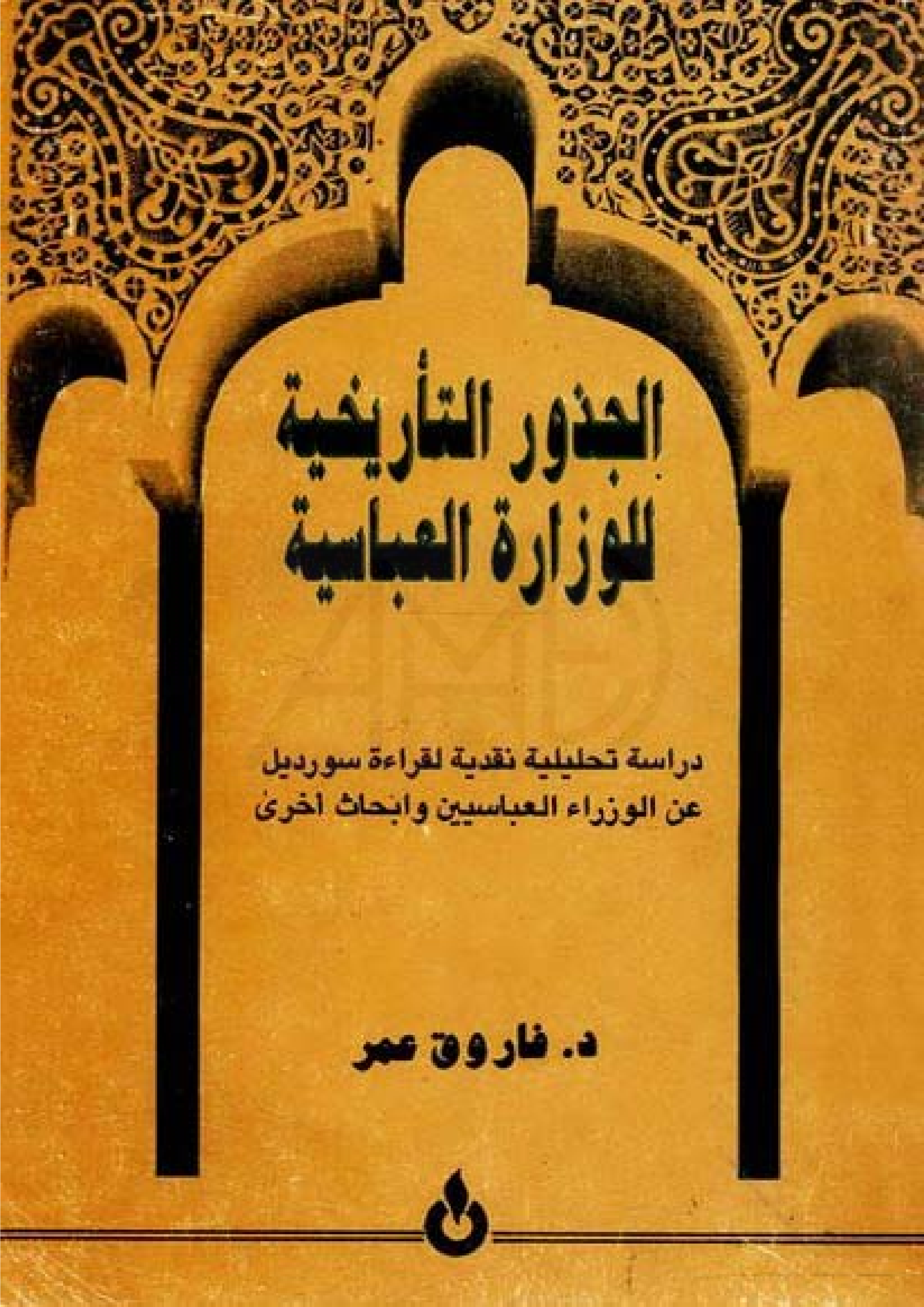
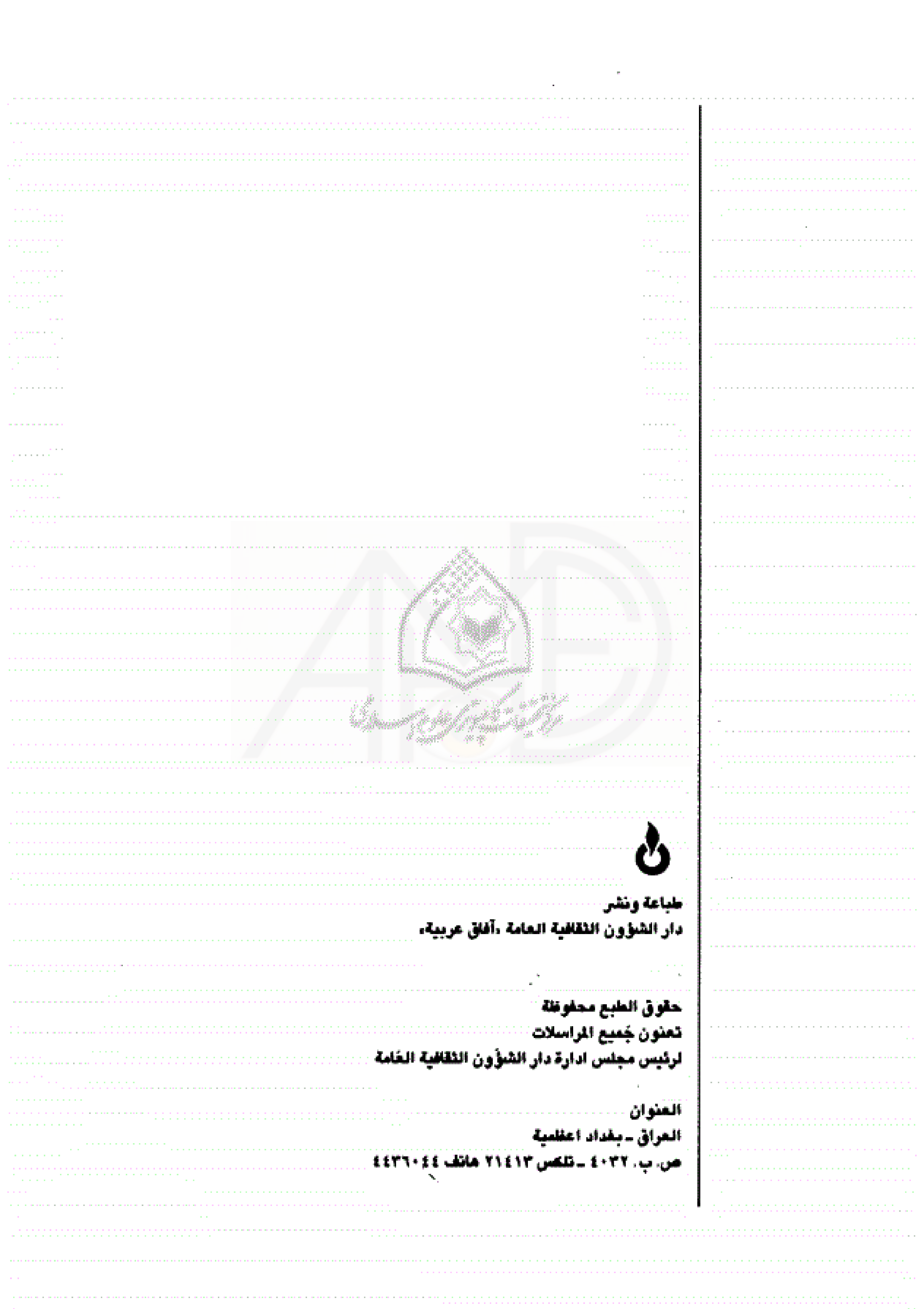

الجذور التأريخية
للوزارة العباسية
دراسة تحليلية نقدية لقراءة سورديل
عن الوزراء العباسيين وابحاث اخرى
د. فاروق عمر



دار الشؤون الثقافية العامة
وزارة الثقافة والاعلام
١٩٨٦



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

تعنون جميع المراسلات
لرئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان
العراق ـ بغداد اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الجذور التاريخية للوزارة العباسية

دراسة تحليلية نقدية لقراءة سورديل عن الوزراء العباسيين وأبحاث أخرى

الدكتور
فاروق عمر

الطبعة الاولى بغداد ـ ١٩٨٦.





الاهداء

الى خليفة بن خيّاط الليثي البصري والى محمد بن جرير الطبـري اللذين عانيـا الكثير من العنت بسبب علمهما واثارا من التاييد والمعارضة ما هو جدير بالرجال المتميزين والمؤرخين الافذاذ.

كلمة لابد منها

يتناول كتابي هذا بحوثا في اطار التاريخ العباسي كُتبتْ خلال العقد الماضي بعضها يتعلق بظواهر سياسية وبعضها يناقش مظاهر حضارية. على ان الذي يجمع بينها انها مظاهر لعصر واحد هو العصر العباسي وانها كُتبتْ بمنهج جديد لا يُسلِّم بما كُتب عنها سابقا.

يلومني بعض الزملاء على تعلقي بموضوع اختصاصي في التاريخ العباسي وكتابتي البحوث تلو البحوث عن الفترة العباسية دون غيرها.

وفي الوقت الذي بدأت استجيب لهؤلاء الزملاء الافاضل حيث ظهرت لي بحوث او كتب خارج اطار التاريخ العباسي فإنني والحق يقال مازال اشعر بالحاجة الملحة المنبعثة من أعماق النفس الى الاستزادة في بحث مظاهر التاريخ العباسي والتعمق في ظواهره الحضارية واعادة كتابة العديد من احداث مسيرته الطويلة التي زادت على الخمسة قرون. ولعل لهذه الحاجة الملحّة ما يبررها... واول هذه المبررات ان ما كتب في التاريخ الاسلامي الى وقت قريب كان في غالبيته عيالاً على المنهج التقليدي او على المنهج الاستشراقي. وهو منهج ناقص ومتحيز في الكثير في كتاباته.

إن الجيل المعاصر من مؤرخينا بدأ في الآونة الاخيرة ينهج منهجا متميزاً في كتابة التاريخ الاسلامي، منهجاً متميزاً يعيد قراءة النصوص الاصيلة ويفسرها غير معتمد على تفاسير السابقين أيا كانوا. وبهذا يقدّم التفسير الجديد صورة اخرىٰ تتهافت عندها الصور القديمة سواء كانت تقليدية متشددة ام استشراقية متعصبة.

من هذا المنطلق أجد الباب واسعاً أمامي وأمام غيري للبحث واعادة البحث في مظاهر التاريخ العباسي واحداثه معيداً تركيبها موضحاً قيمها ومضامينها كاشفاً الاخطاء في تفسيرها. وهنا ادرك بأن التاريخ العباسي بل التاريخ الاسلامي ككل يحتاج الىٰ مزيد من اعادة القراءة ثم اعادة التركيب. وهذا ما ادعو اليه مؤرخينا الشباب كل حسب اختصاصه.

والله أسأل التوفيق فهو حسبي ونعم الوكيل

المؤلف

بغـــداد

المقدمـــة

تعتمـد هذه الدراســة علىٰ مـا كتبته البـروفسورة سـورديل عن الوزراء العباسيين الاوائل في الجزء الاول من كتابتها[1] ويمكن اعتبارها مقدمة تحليلية لتاريخ الوزارات العباسية خلال العصر العباسي الاول[2]. وهي دراسة في التاريخ وليست في النظم بمعنىٰ انها تهتم بالدرجة الاولىٰ بشخصية الوزير العباسي ومدىٰ نفوذه وسلطته في الادارة والسياسة والحرب وطبيعة عـلاقته بـالخليفة وظروف ارتقائه واسباب عزله، اكثر من اهتمامها بتطور الوزارة كمنصب من المنـاصب الادارية في الخلافة العباسية وكنظام جديد من النظم الاسلامية ظهر لأول مرة على عهد العباسيين.

وأكثر من ذلك فإن هذه الدراسة لا تهدف الىٰ تزويد القارىء بخصائص منصب الوزارة والشروط النظرية الواجبة في الوزير ولا الىٰ تصنيف الوزارة الىٰ وزارة تفويض وتنفيذ تلك الاطر والمواصفات النظرية والمثالية التي وصفها الفقهاء المتأخرون وكتاب السياسة الشرعيـة والتي لم تكن تعني شيئاً في العصر الذي ندرسه ولم يتبعها الخلفاء متعمدين في انتقائهم للوزراء حيث لا وجود لها... بل تهدف هذه الدراسة في القاء الضوء علىٰ الكيفية التي كان ينتقي بها الخليفة وزيره وكذلك طبيعة العلاقة بين الطرفين.

وأخيراً لا آخراً كيف اثرت ظروف وأحداث تلك الفترة في نمو سلطة «الوزير» وزيادة او قلة تأثيره على الخليفة وبالتالي في رسم سياسة الدولة.

يرىٰ المؤرخون المحدثون ان منصب الوزارة استحدث في العصر العباسي الاول[3]. ولكن الباحث في تاريخ الوزارة في الدولة الاسلامية يواجـه صعوبـات جمة[4]. منها ما يتعلق بأصل اصطلاح وزير ومنها ما يعود الىٰ بداية نشأة منصب الوزير وتطوره. ومنها ما يلاحظ من عدم تحديد صلاحيات الوزير مما أدىٰ الى نوع من التصادم بين سلطته وسلطة الخليفة.

فمن الاسئلة التي تبحث عن جـواب... متىٰ اصبحـت الوزارة احـدىٰ المؤسسات الرسمية في الدولة الاسلامية؟ وما هي نـظمها؟ أليس من الدقـة ان يتحدث مؤرخ الوزارة عن شخصيات وزارية تتمتع بصلاحيات معينة تتفـاوت درجاتها بحسب قابلية الوزير وحذقه السياسي . وبمعنىٰ آخر هل هنـاك منصب اداري واضح المعالم يطلق عليه (الوزارة) ام ان الخليفة اختار شخصا من مواليه او صحابته ليحمل عنه بعض اعباء الحكم ومسؤوليـاته، او ليعينـه في المشورة والتدبير . ان الجواب علىٰ هذا السؤال يجب ان يعـين نشوء منصب الوزارة في الاسلام .

والمعروف ان كلمة وزير ليست غريبة علىٰ لغتنا العربية ولكن منصب الوزارة كمؤسسةلها صلاحيات معينة وجدت في دول اخرىٰ قبل ان تقرر أسسها في الدولة العباسي . فالوزارة الاسلامية لم تقرر قواعدها وتتوضح أسسها الا نتيجة التجارب التي مرت بها حيث تبلورت في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع الهجري . وعلىٰ ذلك فإن الباحث في الوزارة يجب الا يفترض منذ البداية وجود منصب يسمىٰ (الوزارة) يشبه (الولاية) . وهذه نقطة مهمة في الاسلوب المنهجي الذي يجب ان يتبعه الباحث .

وهناك عوامل وتأثيرات متداخلة ومعقدة اعترضت نشأة الوزارة منها ما يتصل بالعادات العربية ومنها ما يتعلق بتأثيرات الاسلام . وربما كان لادعـاء العباسيين بأنهم اصحاب الحق الشـرعي في حكم الجماعـة الاسلاميـة اثر في اختيارهم هذا الاصطلاح القرآني ليدل علىٰ مشاور الخليفة ومسـاعده الايمن . يضاف الىٰ ذلك التقاليد الدينية التي تبنتها الخلافة العباسية كانت قد اثرت في ابتداع هذا المنصب .

وهناك اعتبارات ادارية وسياسية وثقافية علىٰ الباحث ان يدركها فينظر الىٰ منصب الوزارة من خلال هذه الاعتبارات . فقد كان هناك مثلا نوعٌ من عدم الميل الىٰ اتخاذ الوزير بصورة دائمية وانما كان الخليفة العباسي يتخذ كاتباً مرة ووزيراً

مرة اخرى . فليس هناك اذن منصب اذا شغر من وزير قديم فيجب ان يملأ بوزير جديد . واذا اعتبر الباحث ان الوزير ما هو الا تطور للكاتب في العصر الاموي فعليه ان يتساءل لماذا وكيف استطاع (الكاتب) من بين كل اعوان الخليفة ومواليه وصحابته ان يبرز ويبسط نفوذه .

ثم ما هي الشروط التي يجب ان تتوفر في الوزير؟ وهل كانت له صلاحيات مرسومة؟ وفي اي عصر تميزت هذه الصلاحيات؟ وما هي علاقة الوزير بالخليفة؟ والظاهر ان الوزارة مرت بفترات من القوة والضعف اطلق عليها الفقهاء وكتّاب السياسة الشرعية النظريون مصطلحات منها وزارة تفويض ووزارة تنفيذ . ولكن المؤرخ الباحث يتساءل هل كان هذا الضعف او تلك القوة نتيجة ضعف في نظام الوزارة أم في شخصية الوزير نفسه؟؟

وهنا تدخل اعتبارات جديدة ذات علاقة بالتنافس بين التكتلات المختلفة في البلاط والادارة العباسية . فهناك سلطة الخليفة وهناك النزاع بين موالي الخليفة وصحابته وهناك نفوذ قادة الجيش (اصحاب السيف) ونزاعهم مع كتلة الكتّاب وأصحاب الدواوين المدنيين (أصحاب القلم) . وهناك التيار الخفي الفعّال الذي كانت تمثله كتلة الكتّاب (البيروقراطية المدنية) الذين ظلوا متعلقين بإرثهم الفكري الفارسي وأثروا او حاولوا التأثير في المفاهيم الادارية الاسلامية .

هذه نماذج من الاعتبارات التي تعترض الباحث في تاريخ الوزارات العباسية وعليه ان يجد لها جواباً مقنعاً يستطيع به ان يحدد المعالم الرئيسة لهذا المنصب وصلاحياته، لقد بحث في نظام الوزارة الاسلامي العديد من الفقهاء وكتّاب السياسة الشرعية منهم الماوردي في أدب الوزير والاحكام السلطانية . وهناك كتب تختص بتاريخ الوزارة منها كتب الجهشياري وهلال الصابي وغيرهم . الا ان هذه الكتب عالجت موضوع الوزارة في فترة متأخرة حين كانت الوزارة قد حددت خصائصها وتبلورت طبيعتها . ثم هناك مؤلفات في تاريخ الوزارة الاسلامية لم تصلنا اولم نعثر على مخطوطاتها(*) اولم تُحقق بعد وربما حين يتيسر لنا الاطلاع

ستبدل من وجهات نظرنا او فرضياتنا حول نظام الوزارة .

وتحوي كتب الادب مثل رسائل الجاحظ وكتبه وكتب ادب الكاتب على معلومات جيدة وطريفة عن الوزارة والوزراء . كما ان في كتب التاريخ العام مثل الطبري وغيره معلومات قيمة عن الوزارة وتاريخ الوزراء .

اما تحديد الفترة الزمنية لهذه الدراسة بنهاية عهد المأمون ٢١٨هـ/٨٣٣م فلاعتقادنا بأن هذا العهد شهد منعطفا في تاريخ الوزارة العباسية وتحولا في مركز الوزير وصلاحياته في الادارة والسياسة . فالمعتصم الذي جاء بعد المأمون كان رجلا عسكريا بالدرجة الاولى اهتم بالجيش وتدريبه واعداده أكثر من اهتمامه بالمؤسسات الاخرى . ولهذا فهو لم يهتم باختيار وزرائه قدر اهتمامه بانتقاء قادة جنده وعسكره فهبط مركز الوزير خلال العصر العباسي الاول الى الحد الذي يعترف فيه الخليفة المعتصم نفسه حين فوجيء بان وزيره احمد بن عمّار الخراساني يعجز عن الاجابة على سؤال له فيقول «خليفة أمي ووزير عامّي»!!

واذا كانت بدايات تدهور مركز الوزير قد وقعت في عهد المعتصم فإن آثارها السلبية لم تظهر بوضوح الا بعد ذلك حين اصبحت المؤسسات الادارية والسياسية تحت سيطرة زمرة من القادة العسكريين الاتراك ولم يبق الخليفة او وزيره الشيء الكثير بل ان منصب وزير الخليفة شغر في أواخر العصر العباسي الثاني ثم أُلغي في العصر البويهي وغدا للخليفة كاتب فقط واختص امير الامراء البويهي بالوزير!!

على أن دخول الوزارة العباسية هذا المنعطف الجديد لا يعني عدم ظهور شخصيات وزارية خلال العصر الثاني فقد ظهر وزراء قديرون امثال محمد بن عبدالملك الزيات وعلي بن عيسى وغيرهم .

ولابد لنا بعد ذلك من ان نشير الى ان النظرة المتعمقة في تأريخ الوزراء الاوائل تدحض الفكرة التي تفسر تأريخنا على أسس من الطموحات الشخصية او القبلية والصراعات الاقليمية وغيرها او التي تظهر الخلفاء بمظهر الحكام

«الثيوقراطيين» المتفردين بالسلطة الذين لا يرون الا مصالحهم . واذا جاز لنا ان نستبق الاحداث ونخلص الى نتائج البحث نقول بأن هذه الدراسة اثبتت ان الخليفة لم يكن حاكما مستبدا متفردا بالسلطة . بل إن المسؤولية كانت مشتركة . ذلك ان ادارة الدولة وتقرير سياستها كان قسمة بين الخليفة والصفوة او النخبة التي تحيط به . وكان الوزير الاول بين اقرانه من اعضاء تلك الصفوة الادارية والسياسية ، هذا مع اعترافنا بوجود حالات استثنائية ثم ان هذه الدراسة قد اظهرت دور النخبة المحيط بالخليفة في انتقاء السياسة المعينة من بين خيارات متعددة والتحكم في التيارات السياسية المؤيدة والمعارضة واتخاذ موقف سياسي منها . ولها بعد ذلك دور في خلق التكتلات السياسية في البلاط والادارة ولها بالتالي دورها في صنع القرار السياسي . ذلك ان هذه النخبة كانت تحيط بالخليفة وتناقش معه وتشير عليه حين تُستشار ومن هنا يأتي تأثيرها في نوعية وماهيّة القرار الذي يتخذه الخليفة .

واخيراً وليس آخراً فقد اثبتت هذه الدراسة بأن النخبة الحاكمة وعلى رأسها الخليفة ووزيره في الفترة موضوعة البحث كانت في الاعم الاغلب تتكون من رجال حكم وساسة يدركون مسؤولياتهم تجاه الامة ويجتهدون بإخلاص من أجل تنفيذ خططهم الرامية لرفاهية المجتمع وازدهاره . من هذا المنطلق نستطيع ان نفهم موقف أبي العباس «السفاح» من ابي سلمة الخلال وإجراءات المنصور تجاه المورياني او الخراساني وموقف الرشيد من البرامكة فهي لم تكن كما تفسرها النظرة التقليدية الضيقة مجرد عاطفة جامحة ولا هي مجرد نزوة آنية ليس لها ما يبررها الا المصالح الشخصية ووشايات البلاط!! رغم ان لهذه الوشايات دورها الذي لا ينكر .

وبعد ... فقد حاولنا توضيح معالم تاريخ الوزراء الاوائل وحسبنا اننا أشرنا الى أهمية دورهم واثرنا نقاطاً عديدة حاول بعض المؤرخين طمسها ورجاؤنا ان

تفتح هذه الدراسة الباب لدراسات أخرىٰ عن فتـرات أخرىٰ عـلىٰ نفس النمط والمنهج التأريخي .



هوامش المقدمة

(١) D. Sourded, Levizirat Abbasid, Dam. 1959-1960, Vol 1

(٢) لقد بحث العديد من المؤرخين المحدثين في تاريخ الوزارة الاسلامية وكانت بحوثهم اما دراسة في النظم باعتبار ان الوزارة واحدة من النظم الرئيسية في الادارة الاسلامية ، او دراسة في التاريخ السياسي العام وهنا كذلك ياتي ذكرالوزارة او مشاهير الوزاره ضمن المساق العام للاحداث فيكون عرضياً او موجزاً . وليس بين ايدينا الا القليل جداً من البحوث والدراسات التي تدرس الموضوع بصورة مركزة وعميقة .

(٣) احمد امين ، ضحى الاسلام ج١ ص ١٧١ ، محمد برانق ، الوزراء العباسيـون ، ط١ ص٤ . عبدالعزيز الدوري النظم الاسلامية ص٢١٢ . ـ توفيق اليوزبكي ، الوزارة العباسية ص٣١ .
Goiten, The Origin of the Vizierate, I.C., 1942 P. 258

(٤) Sourdel, problemes de l'hiotoire du Vizirat.. chapt. VII, c.o., Moscow, 1957

(٥) راجع : مقدمة عبدالستار فراج في (تحفة الامراء من تاريخ الوزراء لهلال الصابي) . وكذلك المقدمة لكتاب (تحفة الوزراء) المنسوب للثعالبي .

تمهيـــد

اصطلاح «الوزير» قبل العصر العباسي

رغم ان الوزير يعقوب بن داود كان اول من حصل علىٰ لقب الوزارة بصورة رسميـة سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩م ولكن الملاحظ ان شخصيات عديدة اضطلعت بمسؤوليات الوزير قبل يعقوب بن داود وقبل العصر العباسي حيث يشار بأن الخلال «كان اول وزير في الاسلام»، ولذلك يرىٰ ابن خلدون بأن مرتبة الوزارة كانت موجودة بالفعل في العصر الاموي رغم عدم تقريرها كمنصب سياسي واداري يحمل صاحبه لقب الوزير. يقول ابن خلدون[1]:

«فكانت الوزارة ارفع رتبهم، هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر امور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلة وغير ذلك.

فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة ... فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معالي الوزارة والمعاونة».

وليس يهمنا في هذا المجال ان نتتبع الاصول اللغوية والادبية[2] لاصطلاح الوزير بل سنحدد اهتمامنا بالاصول التاريخية للوزير في الاسلام حسبما ترد في الروايات التاريخية الموثوقة. ويبدو ان اصطلاح وزير عرف قبل الاسلام ولكننا لا نعلم بالضبط المراد من الكلمة وأغلب الظن انها كانت تطلق علىٰ المجربين من ذوي الحكمة والرأي الحسن الذين يعينون بالمشورة في الازمات. ثم وردت الكلمة مرتين[3] في القرآن حيث جاء في الآية:

«واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري واشركه في أمري».

وهي هنا مشتقة من الازر وليس الوِزْر او الوَزر وبمعنى آخر انها تدل على المشاركة في المسؤولية والمؤازرة في العمل .

واستعمل اصطلاح الوزير في عصر الرسول (ص) ففي رواية للطبري ان زيداً بن ثابت قال لأحد خطباء بني تميم «نحن انصار الله ووزراء رسوله»[4] . ويدل هذا المفهوم على ان الصحابة كانوا بمثابة المستشارين للرسول (ص) واعوانه ايضاً . وفي العصر الراشدي استعمل ابو بكر الصديق اصطلاح الوزير في مناقشاته مع الانصار في اجتماع السقيفة فقال :

«نحن الامراء وأنتم الوزراء..».

وفي رواية عند ابن ابي الحديد ان عثمان بن عفان استقدم عددا من الامراء والعمال معظمهم من بني امية وشاورهم قائلا:

«لكل امير وزراء ونصحاء وأنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي».

وفي نفس الكتاب يستعمل علي بن ابي طالب الاصطلاح بنفس المفهوم حيث قال بعد ان عرض عليه بعض الصحابة الخلافة عقب مقتل عثمان :

«التمسوا غيري فأنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً»

ولعل هذه الروايات[*] تشير بأن الاصطلاح كان يقصد به في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام معانٍ لا تتعدى المشاورة والمؤازرة بالرأي والعمل قد تصل في بعض الاحيان الى المشاركة الفعلية في الحكم كما ورد في القرآن الكريم وفي حديث زيد بن ثابت ومناقشة ؟ ابي بكر الصديق او قد لا تتعدى المشاركة الفعلية في الحكم ما في قول الامام علي بن ابي طالب :

فإذا جاء العصر الاموي لاحظنا ان اصطلاح الوزير يطلق على شخصيات تشارك عملياً في السياسة والحرب والادارة ، على اننا نخالف هنا ابن خلدون ونرى بأن الوزارة كمنصب رسمي او مرتبة لم تكن مقررة بعد بصورة رسمية . ففي رواية الطبري[6] مثلاً يطلق اصطلاح الوزراء على مشاوري هشام بن عبد الملك وصحابته : لقد جاء وفد أهل مصر لمقابلة هشام بن عبد الملك .

بـل ان بعض المؤرخين سمى اعضـاء الاسره الاموية وزراء الخليفـة بمعنى المساعـدين والمشاورين وجوّز الجهشياري [١٠] اطلاق لقب الوزير على عبد الحميد الكاتب بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

«فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم كتبوا اسماءهم في رقاع ورفعوها الى الوزراء وقالوا هذه اسماؤنا وانسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه...».

وبمثل هذا المعنى تورد مصادرنا التاريخية روايات عديدة فقد كان المختار بن ابي عبيد الثقفي يقول انه «وزير محمد بن الحنفية وظهيره» ، وعلى لسان محمد بن الحنفية نفسه يقول عن المختار .

«اما بعد فإني قد بعثت اليكم بوزيري وأميني ونجيّي الذي أرتضيه لنفسي وقد امرته بقتال عدوي...»[٧] .

وفي رواية[٨] ان رجاء بن حيوة كان «وزيرا ومستشارا وقيما على عمـالهم واولادهم وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان ما ليس لأحد يثق به ويستريح اليه» ويبدو ان استعمال لفظ الوزير من المرونة والاتساع بحيث اطلق على أعوان الولاة وامراء الاقاليم فقد كان موسى بن نصير وزيراً ومشيراً لعبد العزيز بن مروان أمير مصر وكان ليوسف بن عمر والي العراق وزراء وكذلك للحرشي أمير خراسان .

ومنذ المرفق بدايات العصر الاموي اتهم الضحاك بن عبدالله الهلالي ابن الحضرمي الذي قدم البصرةيحث الناس على الانضمام الى معاوية اتهمه بالعمل لمصلحته قائلاً : «وتأمرنا الآن ان نختلع سيوفنا من اغمادها ثم يضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية اميراً وتكون له وزيراً»[٩] . بل ان بعض المؤرخين سمى اعضاء الاسرة الأموية وزراء للخليفة بمعنى المساعدين والمشاورين وجوّز الجهشياري[١٠] اطلاق لقب الوزير على عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية .

واذا كنا نتفق مع إبن طباطبا[١١] في ان «الوزارة لم تُمهّد قواعدها وتتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس» وان «الوزير وسيط بين الملك ورعيته» ومع ابن المقفع في مقولته «لا يستطاع السلطان الا بالوزراء والاعوان ..» فإننا لابد ان نشير

بأن هذه الافكار حول الوزارة لم تتبلور مع مجيء العباسيين الى السلطة بل أخذت بعض الوقت . وعلى هذا فإن المفهوم الأموي للوزير بقي سارياً ردحا من العصر العباسي الاول . فلم يكن ابو سلمة الخلال في البداية وزيراً لدولة بل وزيراً للدعوة العباسية كما كان المختار وزيراً لدعوة ابن الحنفية . وحين تأسست الدولة العباسية لم يعط لقب وزير بصورة رسمية من قبل الخليفة ابن العباس وكانت صلاحياته خلال فترة تواجده القصيرة قبل مقتله محدودة وتتضارب مع صلاحيات الخليفة وأبي مسلم الخراساني أحياناً !! كما سنرى في الفصل القادم .

وقد أستمر ورود اصطلاح «الوزراء» في بدايات العصر العباسي بمعنى المستشارين والمساعدين في السياسة العامة للدولة من صحابة الخليفة ، حيث ترد رواية عن مشاورة المهدي لوزرائه «فقال المهدي لوزرائه ما تقولون في حاجة ابن هرمة وما عندكم فيها من التلطف»[١٢] . وواضح ان المعنى هنا يشير الى المستشارين خاصة وأن المهدي كان لديه وزيرٌ مسؤولٌ وله صلاحيات معينة بل ان المهدي كان اول خليفة عباسي يصدر مرسوماً رسمياً بتقليد الوزارة ليعقوب بن داود كما سنناقش ذلك مستقبلاً .

وفي رواية أخرى جمع المهدي «وزراءه» لبحث تمرد خراسان حيث كسرت الخراج وطردت العمال وشالت ما ليس لها بحق . تقول الرواية :

«فلما انتهى ذلك الى المهدي خرج الى مجلس خلائه وبعث إلي نفر من لُحمته ووزرائه فأعلمهم الحال واستنصحهم الرعية»[١٣] .

وتستطرد الرواية نفسها فتشير الى الحاضرين بأسمائهم اوكتلهم . فقد أمر المهدي مواليه بالابتداء بالكلام ثم قال لعمه العباس بن محمد ان يعطي الرأي الاخير بترجيح احد الآراء . وأمر محمد بن البعيث بأثبات مقالتهم في كتاب . وكان بين الحضور سلّام صاحب المظالم والربيع بن يونس الحاجب وأبو عبيد الله معاوية وزير الخليفة والفضل بن العباس وصالح العباسي وموسى وهارون اولاد الخليفة . والملاحظ ان هذه الرواية فرقت بين الاقرباء «اللُحمة» وبين الوزراء ، رغم انهم

جميعاً من الاعوان المستشارين . ومرة أخرىٰ فقد سمّت الرواية مشاوري الخليفة بالوزراء رغم ان للخليفة وزيراً معنياً هو ابو عبيد الله معاوية .

ولابد من الاشارة بأن اصطلاح «الوزراء» بهذا المعنىٰ المطلق الذي استعمله المؤرخون الاوائل يعني ، في اعتقادنا ، اول ما يعنيه وجود تلك النخبة او الصفوة التي يستشيرها الخليفة او يشاورها او يستعين بها في تدبير امور السياسة والادارة سواء أكانت هذه المشاركة بالراي أم بالعمل . ولقد كانت هذه النخبة تحيط بالخليفة وتشاركه في صُنع القرار وقد ورد ذكرها في رواياتنا التأريخية بمصطلحات عديدة حسب العهود فمرة باسم الوزراء ومرة باسم الصحابة ومرة باسم الخاصة وهكذا . ولا يعني ان تكون هذه الاصطلاحات ذات مدلولات محددة واحدة بل ربما اختلفت مراتبها او مراتب اصحابها قربا وبُعداً عن الخليفة أو في الهم السياسي ـ الاداري ، ولكنها دون شك تجتمع تحت اصطلاح «النخبة» المحيطة بالخليفة والمشاركة في صنع القرار السياسي .

هوامش التمهيد

---

(١) ابن خلدون المقدمة ، ص ١٩٧ فما بعد .

(٢) حول ذلك راجع ظافر القاسمي ، نظام الحكم ص ٤٠٩ فما بعد

(٣) سورة طه ٢٠ ، سورة الفرقان ٢٥

(٤) تاريخ الطبري ، ج٣ ، ص ١١٦

(٥) ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ص١٣٠ ، ١٦٠ ، ٥٦

(٦) تاريخ الطبري ، ج٦ ص١٣ـ١٦

(٧) فاروق عمر ، المختار الثقفي ، مجلة

(٨) ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ١٣٩

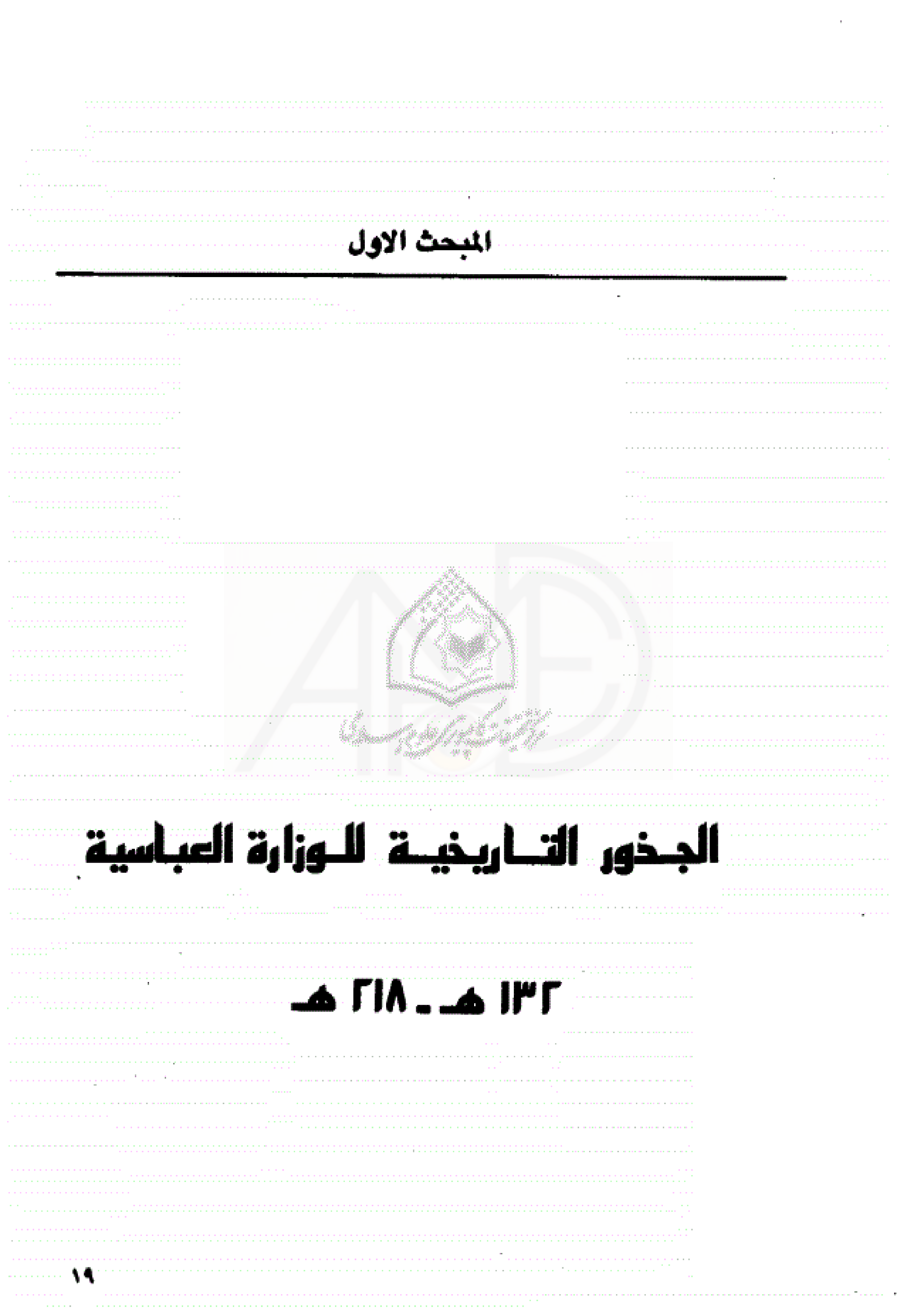
(٩) ابن ابي الحديد ، ج١ ص ٣٤٩

(١٠) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٨٣

(١١) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣

(١٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٦ ص ٣٥١

(١٣) المصدرالسابق ، ج١ ص ١٩١ فما بعد



المبحث الاول

الجذور التاريخية للوزارة العباسية

١٣٢ هـ - ٢١٨ هـ



وزارة ابي سلمة حفص سليمان الخلال الهمداني

وزير آل محمد



تعتبر رواياتنا التاريخية ابا سلمة الخلال اول مسؤول في الدعوة السرية العباسية ثم في الدولة العباسية حمل لقب وزير.

لعب الخلال دوراً حساساً في الدعوة العباسية حيث كان من جملة من موّلوا الدعوة من اموالهم الخاصة وساهموا بفعالية في ادارة تنظيمها السري وستراتيجيتها أثناء فترة النضال السري ضد الخلافة الاموية. ولعل أهم المسؤوليات التي أنيطت به خلال تلك الفترة الحرجة كونه حلقة الوصل بين الحميمة حيث ابراهيم الامام وبين مرو في خراسان حيث مقر نقيب النقباء العربي سليمان بن كثير الخزاعي المسؤول الاول عن الدعوة هناك. فكانت الكوفة في العراق مقر الخلال مركز الوصل بين الحميمة في الاردن ومرو في خراسان.

أصله ونسبه:

كان ابو سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال مولى لقبيلة سبيع او لبني الحارث بن كعب من العراق. وتختلف الروايات حول لقب الخلال هذا فالجهشياري يرجعه الى بيع جفون السيوف (الخلل)[1] اما ابن خلكان[2] فيرى بأن ابا سلمة كان يسكن محلة الخلالين بالكوفة. اما عمله الذي عُرف به فكان الصرافة. وكان ابو سلمة نسيباً لكبير دعاة العباسيين بالكوفة بكر بن ماهان (اي زوج ابنته) وهو الذي عرّفه على الدعوة العباسية الهاشمية وسهّل له الاتصال بالامام ابراهيم العباسي.

دورهُ السياسي:

أشرنا سابقاً الى أن الخلال لعب دوراً نشطاً في الدعوة العباسية وخاصة بعد وفاة بكير بن ماهان سواءً أكان في الناحية السياسية أم في تمويل الدعوة بالمال اللازم لها. وما ان انتصرت الدعوة العباسية ودخلت جيوش العباسيين الكوفة، اتصل حميد بن قحطبة الطائي في محرم سنة ١٣٢هـ/ ايلول ٧٤٩م بالخلال وسلّم

اليه «الرئاسة» وخاطبه بعبارة «وزير آل محمد» . وبدأ ابو سلمة الخلال فعلاً يدبّر امور الدعوة واعلن «الامامة الهاشمية» دون ان يُسمّي الخليفة بالاسم!!

ويبدو ان لظروف اعتقال ابراهيم الامام ثم قتله بالشام واختفاء اخيه ابي العباس واستتاره عن الانظار اضافة الى اسباب اخرىٰ سنذكرها بعد قليل آثراً في هذا التصرف . ولذلك فإن الخلال هو الذي اخذ البيعة من الناس للرضا من آل البيت دون ان يذكر اسمه او شخصيته[٣] !!

ولعل اولىٰ المشكلات التي واجهت الخليفة العباسي الاول ابا العباس هي انحراف الخلال عن العباسيين وتآمره ضدهم باتصاله بالعلويين . لقد قضىٰ ابو سلمة الخلال ثلاثين سنة تقريباً في خدمة الدعوة العباسية ولكن ما إن سمع بمقتل ابراهيم الامام علىٰ يد مروان بن محمد الاموي وهروب ابي العباس الىٰ الكوفة في صفر سنة ١٣٢هـ حتىٰ تغير وأشار علىٰ أبي العباس بالتخفي عن الانظار والابتعاد عن الكوفة مما اضطره الى البقاء في احدىٰ قرىٰ الكوفة .

ويرىٰ بعض المؤرخين المحدثين ان اخلاص الخلال لم يكن قويا للعباسيين علىٰ عكس ما تدل عليه ألقابه الرنانة «الامين» و «الوزير» علىٰ اننا نعتقد بأن ولاء الخلال كان لابراهيم الامام بالذات وعلاقته كانت وطيدة بشخصه ولهـذا فحين سمع بمقتله اراد ان يجعل الخلافة علوية وراسل ثلاث شخصيات علوية لمعرفة موقفهم من قبول منصب الخلافة . وقد أمر الخلال رسوله بأن يذهب اولًا الىٰ جعفر الصادق فإذا قبل الامر مزّق الرسالتين الاخريين . وإذا رفض ذهب الىٰ عبدالله بن الحسن المحض فإذا رفض ذهب الى عمر بن علي بن الحسن .

لقد كان جواب الصادق احراق الرسالة منكراً معرفته بالخلال ومعرفتـه بالشيعة الهاشمية التي قامت بالثورة في خراسان .اما عبدالله المحض فكان اول الامر متردداً وشاور الصادق فحذره من مغبة التورط والانقياد للخلال قائلا :

«ومتىٰ صار أهل خراسان شيعتك؟ .. فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك»

ولكن عبدالله المحض كان طموحاً ووعد الرسول خيراً فحمل الرسول موقف عبدالله المحض الايجابي الى الخلال ولكن بعد فوات الاوان ذلك لأن الدعوة العباسية كانت قوية وأن الدعاة اكتشفوا عن طريق ابي الجهم بن عطية الباهلي وعدد من القادة الآخرين مكان اختفاء أبي العباس ورتبوا امر اعلان اسمه خليفة للدولة الجديدة. مما اضطر الخلال الى الاعتذار مبرراً ذلك انه كان يحاول تمهيد الامور لاستقرار الاوضاع، وبايع الخليفة الذي قبل عذره وأمره بالاستمرار في تصريف الامور وتحمل مسؤولياته بالكوفة[٢]. وعلى ذلك لم يظهر ابو العباس استياءه من الخلال في حينه. والواقع انه لم يكن من السهل القضاء عليه نظراً لسعة نفوذه وسطوته السياسية حتى تحين الفرصة للتخلص منه.

ويختلف القدامى من مؤرخينا المسلمين في الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذه المناورة فمنهم من يقول بأنه أراد ان يجعل الامر شورى بين بني هاشم من عباسيين وعلويين ولكنه عدل عن ذلك وقال: «اخاف الّا يتفقوا». ومنهم من يرى انه خاف انتقاض الامر وفساده بعد وفاة ابراهيم الامام وقلق على مصير الدعوة. كما أشار الى العباسيين بقوله: «ينبغي ان يتربصوا فإن الناس بايعوا ابراهيم الامام وقد مات ولعل امراً ما سيحدث ولكن آخرين يعتقدون انه كان عازماً على نقل الخلافة الى العلويين وخطط لذلك بأن أخر إظهار اسم الخليفة العباسي او البيعة له ولذلك يقول اليعقوبي ان الخلال «دبّر ان يصير الامر الى بني علي». ويقول الفخري «لما سبر ابو سلمة احوال بني العباس عزم على العدول عنهم الى بني علي»[٣].

ونعتقد بأن الخلال لم يكن واثقاً من أبي العباس حيث ان علاقته بأبي العباس لم تكن وثيقة كعلاقته بابراهيم الامام ولهذا أرجأ خروجه قائلاً لأبي الجهم الباهلي منافسه الرئيسي في الكوفة «ليس هذا وقت خروجه ..!!».

لقد أدرك الخلال بأن تسلم أبي العباس للسلطة ربما سيحد من نفوذه القوي في العراق والذي اخذ يتعاظم بعد نجاح الدعوة العباسية وسيطرة الشيعة العباسية على الكوفة ولذلك حاول الخلال ان يجد شخصية هاشمية غير عباسية

أخرىٰ ينصبها خليفة ويحتفظ هو بنفوذه السياسي الكبير ذلك لأنه سيكون صاحب الفضل على الخليفة الجديد وسيلعب دور (صانع الملوك) في الدولة الجديدة .

مقتله :

لقد باءت مؤامرة الخلال بالفشل لشك العلويين وحذرهم من المحاولة التي ربما اعتبرها بعضهم دسيسة لجس النبض اولاً ولتردد الشخصيات العلوية بالمغامرة التي تتطلبها السياسة ثانيا ولقوة الدعاة العباسيين وجهودهم في التحري عن الخليفة ثالثا .

فلقد اكتشف ابو الجهم الباهلي ودعاة عباسيون آخرون مكان وجود أبي العباس وبايعوه ولم يتخلص الخليفة من الخلال الا بعد مدة حيث كتب الىٰ ابي مسلم الخراساني يعرفه بمؤامرة الخلال فوافق ابو مسلم على فكرة التخلص من الخلال وأرسل من يقتله من خراسان . واعلن رسميا ان الخوارج وأُعلن رسمياً ان الخوارج قد اغتالته .

ولا شك فإن المنافسة بين الخلال وأبي مسلم الخراساني[٧] لعبت دوراً في التعجيل بقتل الخلال ولهذا يشير المسعودي الى ان أبا مسلم الخراساني كتب الىٰ الخليفة يشير عليه بقتله بعد ان سمع بمؤامرته «لأنه نكث وغيَّر وبدَّل» . هذا اضافة الىٰ ان نفوذ الخلال تعاظم بحيث غدا ابو مسلم يخشاه ويحسب له حساباً لأنه علىٰ حد قول الدينوري «ينفذ الامور من غير مؤامرة» وفي رواية أخرىٰ «انه كان يظهر الادلال والقدرة علىٰ أمير المؤمنين»[٨] .

ومن الطبيعي ان مقتل الخلال بعد سجله الحافل والطويل في سبيل الدعوة والدولة العباسية آثار عواطف الشعراء فقال احدهم :

ويحك من كان مذ ثلاثين حولاً ... يبتغي حتف نفسه غير آل

وقال آخر :

ان الوزير وزير آل محمد ... اودىٰ فمن يشناك كان وزيرا

تلقيبه بالوزير:

من المتفق عليه لدى غالبية المؤرخين الرواة بأن ابا سلمة الخلال لقب بلقب «وزير آل محمد» قبل تأسيس الدولة العباسية . ويسميه الطبري في رواية تاريخية «وزير الامام» اي وزير ابراهيم الامام كما خاطبه ابو مسلم الخراساني بلقب الامارة والوزارة. كما كانت للخلال القاب اخرى اثناء الدعوة العباسية منها الداعية والامين وانه تمتع بها سنة ١٢٧هـ اي قبل ترؤسه للدعوة في الكوفة بعد وفاة بكر بن ماهان . وفي رواية تاريخية كتب ابراهيم الامام الى «داعية الهاشميين ووزيرهم» ابي سلمة الخلال يأمره بتسهيل مهمة أبي مسلم الخراساني وتسفيره الى خراسان(٩) .

والمعروف تاريخيا ان لقب الوزير كان معروفاً في المجتمع الاسلامي وانه استعمل في بعض الحركات الشيعية من قبل بعض اتباعها المخلصين ولربطهم بالحركة برباط رسمي فالمختار الثقفي على سبيل المثال كان وزيراً لمحمد بن الحنفية .

وخلال فترة الدعوة كانت الظروف الاستثنائية تبرر لقب الوزير والامين اللذين تمتع بهما الخلال لعلاقته الوطيدة بالدعوة وبإمام الدعوة ابراهيم بن محمد وللمسؤولية الحساسة التي كان يتمتع بها في الكوفة . رغم اننا لا نعلم بالضبط صلاحيات هذين اللقبين وهل انهما كانا لقبي شرف او تشريف وتمييز للخلال ام انهما ينطويان على مسؤوليات معينة ومحددة؟ خاصة وان الخلال مثله مثل أبي مسلم الخراساني كان قد شُرِّف كذلك بكنية رغم كونه مولى والقليل من الموالي كانوا يكنّون في تلك الفترة .

صلاحياته:

لابد ان نشير بدءاً بأن مصادرنا التاريخية لا تحدد بالضبط مسؤوليات الخلال وصلاحياته كوزير ولكنها تذكر تأسيسه لدواوين جديدة في الكوفة وتعيينه العديد من الولاة والعمال على الاقاليم وارساله الجيوش وقيادته لبعض العمليات

العسكرية ضد جيوب الامويين هنا وهناك . ولكن هذه السلطة انتهت بسرعة بعد اقل من أربعة أشهر من ربيع الاول الى رجب سنة ١٣٢هـ[١٠] .

ويلاحظ اصطدام سلطته كوزير بسلطة ونفوذ أبي مسلم الخراساني منافسه القوي من خراسان حيث تنافسا على تعيين الولاة في الاقاليم وخاصة بلاد فارس ويعتبرهما الجاحظ الرجلين الوحيدين القويين في الدولة الجديدة في تلك الفترة وهذا يفسر دور أبي مسلم الخراساني في مقتل الخلال . وعلى ذلك فإن اطلاق لقب الوزير على الداعية أبي سلمة الخلال لا يدل على ان الوزارة كمؤسسة رسمية قد بدأت اعمالها وصلاحياتها مع بداية الدولة العباسية فهذا التفسير يعتبر نظرياً فقط وقد أشاعه بعض المؤرخين أمثال الدينوري ومن بعده ابن خلكان والفخري الذين رأوا من الطبيعي ان تبدأ الوزارة مع بداية الدولة الجديدة . ولابد ان نشير الى النزعة الفارسية في روايات الدينوري حيث أراد ان يجعل من الخلال اول وزير فارسي للخلافة العباسية الجديدة التي ، كما يزعم ، قامت على أكتاف الفرس !! وهذه فرضية خاطئة دون شك .

* * *

ولكن هل للخلال خلفاء اعقبوه في حمل لقب الوزير او احتلال منصب الوزارة؟ ان العديد من الروايات تشير الى ان منصب الوزارة غدا مشؤوماً بعد اغتيال الخلال .

«ان كل من استوزر بعد ابي سلمة كان يتجنب ان يُسمى وزيراً نظراً لما جرى لأبي سلمة»[١١] .

على ان العديد من المؤرخين الرواد[١٢] يعطون لقب «الوزير» الى ابي الجهم إبن عطية الباهلي وهو مولى باهلة . وأحد الدعاة الاوائل في خوارزم ثم عينه أبومسلم كاتباً في الجيش العباسي ثم انتقل لخدمة الحسن بن قحطبة الطائي . وكان منافساً قوياً للخلال في العراق وعيناً لأبي مسلم ولعب دوراً مهماً في البيعة لأبي العباس

بالرغم من محاولات الخلال ارجاء البيعة .

وقد قضىٰ ابو الجهم نحبه علىٰ يد المنصور الذي لم يكن ليحتمل جاسوساً او عيناً لأبي مسلم في البلاط العباسي . ورغم ان ابا الجهم غيّر رأيه في ابي مسلم وادان تصرفاته وسياساته الا ان ذلك لم يشفع له لدىٰ المنصور الذي تخلص منه بالسم . ولهذا قال الشاعر :

إحــذر سويق اللوز لا تشـربنّه فــإن سويق اللوز اودىٰ ابــا الجهم

ولكنَّ مؤرخين آخرين يشيرون[١٣] الىٰ خالد بن برمك باعتباره الوزير الذي اعقب الخلّال . وخالد اول شخصية معروفة في تاريخ الاسلام من العائلة البرمكية وقد لعب دوراً مهماً في اوائل العصر العباسي وخاصة في عهدي المنصور والمهدي . وكان في بداية امره كاتباً ارتبط بالامام محمد العباسي وابنه ابراهيم الامام . وبعد نجاح الدعوة في خراسان وتقدم الشيعة العباسية نحو العراق عُين خالد البرمكي مسؤولاً عن توزيع الغنائم والعطاء في جيش قحطبة الطائي . وكان قحطبة الطائي يستشيره في تحركاته العسكرية ضد جيش الامويين بقيادة عامر بن ضبارة . ثم أُرسل خالد البرمكي مع المسيب زهير لادارة ديرقنا .

اصبح خالد البرمكي في عهد ابي العباس رئيساً لديوان الخراج وديوان الجند وكان عمله بالدرجة الاولىٰ جباية الاموال ثم توزيعها علىٰ الجند . والواقع ان خالداً البرمكي تميز بكفاءته العالية في المسؤوليات التي تسلمها ونال ثقة الخليفة أبي العباس وغدا من «خاصته» ولعب دور الوزير فكان يعمل عمل الوزير ولا يُسمىٰ وزيراً . وفي رواية أخرىٰ انه كان يتقلد دواوينه «اي دواوين الخليفة» . والاكثر من ذلك فإن علاقته بالخليفة باتت اكثر مودةً حين عهد اليه ابو العباس تربية احدىٰ بناته مع بنات خالد البرمكي فكان اطفاله يختلطون بأطفال الخليفة .

امام هذا الاختلاف في روايات المـؤرخين بـين ابي الجهم الباهــلي وخالد البرمكي لابد ان نلاحظ بأن المصادر المتقدمة الاولىٰ ترجح كفة ابي الجهم الباهلي

ولكن اذا تمعنا في المسألة تظهر النقاط التالية :

اولاً :

ان المسؤوليات والصلاحيات لكلتا الشخصيتين لم تكن واضحة او معروفة تماماً .

ثانياً :

ان صلاحيات منصب الوزير لم تكن محددة او متبلورة في تلك الفترة المبكرة .

ثالثاً :

تتناقض آراء المؤرخين في المسؤوليات التي قام بها كلا الرجلين . ففي حين يُسمي الجهشياري ابا الجهم وزيراً بصورة عرضية حين يتكلم عن احداث عصر ابي العباس ولا يشير اليه الطبري الا في آخر عهد أبي العباس حين يسرد على عادته قائمة بأسماء المسؤولين والعمال والولاة . والجدير بالذكر ان الطبري يُظهر ابا الجهم «مستشاراً» للخليفة دون ان يعطيه لقب الوزير . اما اليعقوبي فيصف ابا الجهم بأنه «الغالب على أمره» اي على امر الخليفة ويظهره بمثابة الحاجب الذي يحمي باب الخليفة وينظم مقابلاته للخاصة والعامة من الناس . ومن ذلك كله يبدو ان الاستنتاج الاقرب الى الصحة او الاكثر قبولاً هو ان ابا الجهم لم يكن وزيراً ولا ذا مرتبة كبيرة في الادارة العباسية او مسؤولاً عن ادارة جهاز او ديوان وانما كان شخصاً موثوقاً به في البلاط العباسي وكذلك مستشاراً للخليفة اضافة الى عمله كعين لأبي مسلم الخراساني على ما يجري في العراق ولذلك يقول الجهشياري «ان ابا الجهم كان ينوب عن ابي مسلم بحضرة أبي العباس ويخلفه» اما خالد البرمكي فإن مسؤولياته كما يصورها الجهشياري كانت رئاسة الادارة المركزية ومستشاراً خاصاً للخليفة . ولم يشر اليعقوبي بوضوح الى دور خالد البرمكي او موقعه في الادارة العباسية . ورغم ان المؤرخين المتأخرين أكدوا على «ان المنصور لما تولى الخلافة أقر خالد بن برمك في منصب الوزارة وأكرمه واستشاره» فإن المعلومات

التي تتوفر في مصادرنا تميل الى ان خالداً لم يكن وزيراً ولم يتمتع بصورة رسمية بلقب الوزير[14].

ان الملاحظات الثلاث التي اوردناها لابد ان توضح مدىٰ التناقض في رواياتنا التاريخية حول وضع الوزارة العباسية في الفترة القصيرة بين اغتيال الخلال وموت الخليفة أبي العباس وأغلب الظن ان مؤرخينا الرواد من أمثال ابن الطقطقي وابن خلكان وغيرهما حين لاحظوا غياب الوزير بعد الخلال لم يتورعوا او لم يجدوا بُدّاً من اضفاء هذا اللقب علىٰ بعض الشخصيات المقربة من الخليفة او التي نالت حظوة عنده واستندت اليها مسؤوليات معينة ولكنها في واقع الامر لم تنل لقباً معيناً ولا مرتبة سياسية او ادارية معينة!!

هوامش الفصل الاول

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتّاب ، ٨٤ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات ، ج١ ص ٤٤٥

(٣) الجهشياري ، ص ٨٤ ـ الطبري ، تاريخ ، القسم الثالث ، ص ١٦

(٤) سورديل ، الوزراة العباسية ، ج١ ص ٦٧ فما بعد .

(٥) البلاذري ، انسلب الاشراف ، مخطوطة ، ٢٩٧ ب . ـ اليعقوبي ، التاريخ ج٢ ص ٤١٣ ـ . الدينوري ، الاخبار ، ص ٣٥٧ .

(٦) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج١ ص ٤٣ .

(٧) الطبري ، القسم الثالث ، ٧١ .

(٨) ....

(٩) راجع : الطبري ، القسم الثاني ٩١٦ ، الجهشياري ٨٣ .

(١٠) الطبري ، القسم الثالث ، ص ٢٠ ، الكامل ، ج٥ ص ٣١٠ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ٤١٣ . الجهشياري ، ٨٦ فما بعد .

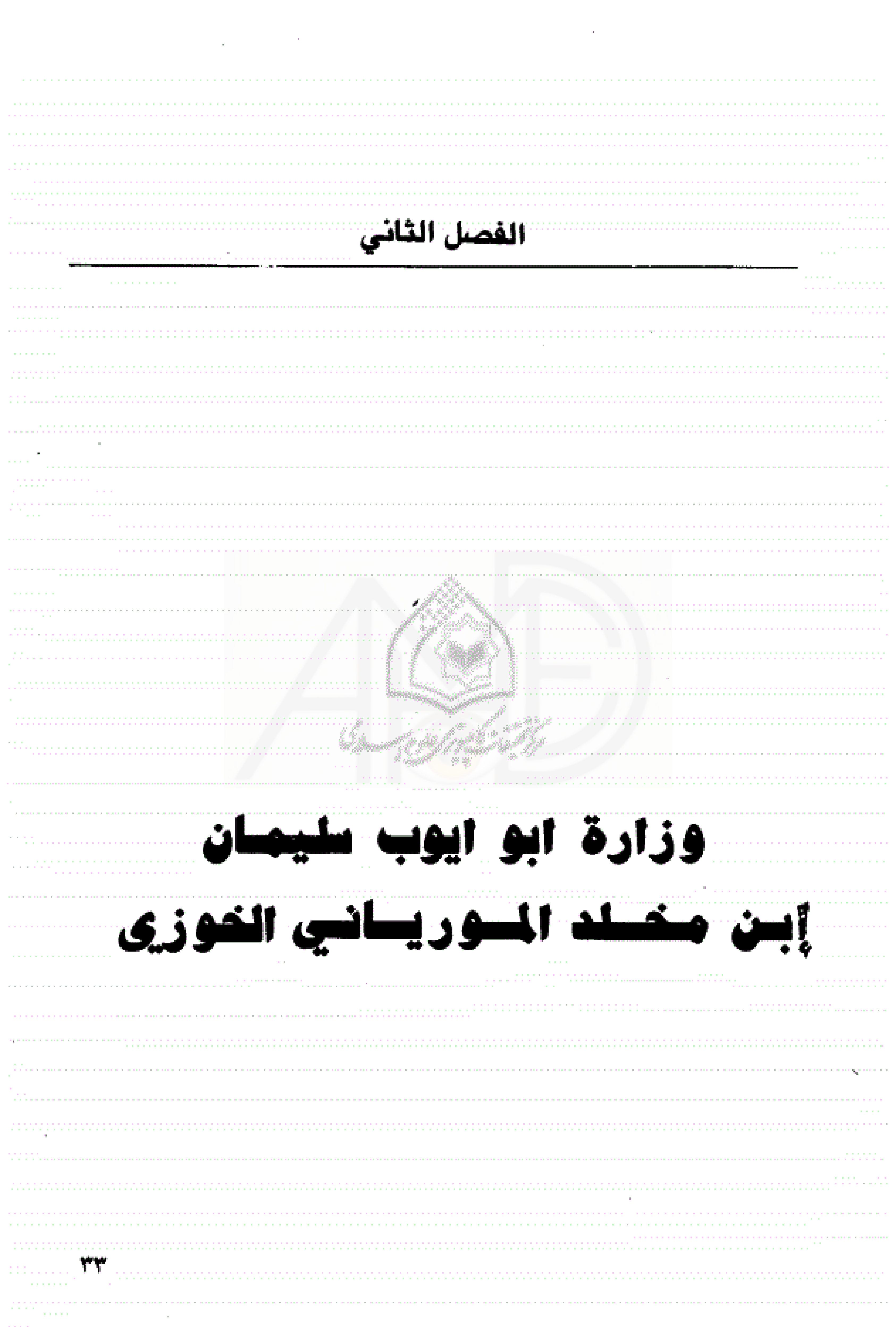
(١١) الفخري ص ١٥٦ طبعة بيروت ١٩٦٦ .

(١٢) البلاذري ، انساب ٢٩٧ ب . ـ اليعقوبي ، ج٢ ص ٤١٠ . ـ الجهشياري ص ٨٧ . ـ الطبري القسم الثالث ، ص٣ ، ١٥ ، ٢٧ ـ ٢٨ .

(١٣) المسعودي التنبيه ، ص ٣٤٠ . ـ ابن خلكان ، وفيات ، ج١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(١٤) راجع سورديل ، المصدر السابق ج١ ص ٧٢ ـ ٧٣ .





وزارة ابو ايوب سليمان
إبن مخلد المورياني الخوزي



مقدمـــة :

يتفق المؤرخون من قدامىٰ ومحدثين علىٰ ان الخليفة ابا جعفر المنصور الذي خلف أخاه ابا العباس في الحكم ، بادر باتباع سياسات جديدة تتسم بالواقعية وتضحي بالقيم والمبادىء التي اعلنتها الدعوة العباسية في سبيل الضرورات التي يقتضيها الحكم والادارة . والواقع فإن المنصور طيلة عهده الطويل لم يخلد للراحة حتىٰ نجح في القضاء علىٰ منافسيه السياسيـين والحركـات المعارضـة للخلافـة العباسية . كما نظم الادارة وخزن الاموال الوفيرة للاستعانة بها عند الحاجة .

ومن أجل ان يقوم المنصور بكل تلك الانجازات كان بطبيعة الحال بحاجة الىٰ مساعدين واعوان وهم كثرة ، ولكن مشكلة الوزارة كنصب او مؤسسة رسمية او كلقب تعود فتثير امام الباحث مشاكل عديدة .

والغريب ان غالبية المصادر فيما عدا الطبري والجهشياري تكرر الاشارة الىٰ ان ابا الجهم الباهلي[1] وخالد البرمكي[2] كوزراء للخليفة المنصور . علىٰ ان المنصور سرعان ما تخلص من ابي الجهم الباهلي بأن دس له السم . اما خالد البرمكي فإن مكانته لم تكن مهمة او حساسة في عهد المنصور . فقد أصبح رئيساً للديوان (ديوان الخراج) حتىٰ تسلمه منه ابو ايوب سليمان بن مخلد المورياني . ثم أصبح والياً علىٰ فارس لسنتين . ورغم الرواية التي تشير الىٰ سقوط منزلته في نظر المنصور لفترة من الزمن نراه متمتعاً بنفوذ معين في البلاط حيث يعارض هدم ايوان كسرىٰ في المدائن سنة ١٤٦هـ فيدينه الخليفة بالحنين الى اجداده الفرس . وفي سنة ١٤٧هـ شارك في المفاوضات الدائرة مع عيسىٰ بن موسىٰ لاقناعه بالتنـازل عن ولاية العهد للمهدي بن المنصور . ثم عين والياً للري ودبناوند وبقي هناك سبع سنين حيث سك النقود باسمه من سنة ١٥٠هـ ـ ١٥٤هـ . وقبيل وفاة المنصور سنة ١٥٨هـ عُزل خالد البرمكي وصودرت املاكه وساعده اصدقاؤه في جمع المال اللازم الذي طلبه منه الخليفة . ثم عاد المنصور فرضي عنه وعينه علىٰ الموصل لقمع

الاضطرابات في النواحي المحيطة بالمدينة . كما أرسل ابنه يحيىٰ البرمكي والياً علىٰ اذربيجان . كما توطدت علاقة حفيده الفضل البرمكي بحفيد المنصور هارون بن المهدي[٣] .

وعلىٰ ذلك فليس هناك ما يشير الى ان خالداً البرمكي كان وزيراً او انه كان اليد اليمنىٰ للمنصور ولا نعرف بالضبط موقعه في الادارة المركزية عدا رواية الجهشياري التي تدل علىٰ ادارته للديوان في بداية عهد المنصور، وهو ديوان الخراج وليس كل الدواوين ، خاصة وان الجهشياري نفسه يذكر بأن الادارة كانت بيد شخصية اخرىٰ هي عبدالملك بن حميد الباهلي الخراساني الذي استمر في منصبه حتىٰ وفاته سنة ١٥٤هـ . وكان من خاصة الخليفة ومستشاريه واسندت اليه مسؤوليات عديدة كما حظي بقطيعة في مدينة بغداد المدورة وربض في ضواحي بغداد .

لقد تقلد عبدالملك رئاسة الدواوين ومعنىٰ ذلك قوة نفوذه في الادارة المركزية ، وبسبب ضعف صحته اختار ابا ايوب سليمان بن مخلد المورياني ليساعده في الادارة . وبعد ذلك بقليل اختار المنصور المورياني «لوزارته ودواوينه» وحمّله مسؤولية الاعمال كافة . ولكن المنصور لم يمنح «وزراءه» كثيراً من النفوذ ويشير صاحب كتاب الفخري الىٰ هذا المعنىٰ بقوله :

«لم تكن للوزارة في ايامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفايته مع انه كان يشاور في الامور دائماً وان كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء وكانوا لا يزالون علىٰ وجل منه وخوف فلا تظهر لهم ابهة ولا رونق»[٤] .

سيرته الأولى :

نشأ ابو ايوب سليمان بن مخلد المورياني الخوزي في قرية من قرىٰ الاحواز (خوزستان) وهناك روايات عديدة حول اصله منها ما تشير الى كونه عبداً او مولىٰ

فارسياً . وانه عمل صرافاً في بداية حياته . وفي اواخر العهد الاموي أصبح كاتباً لأمير الاحواز سليمان بن حبيب المهلبي[٥] .

وفي رواية اخرىٰ يشير البلاذري الىٰ ان ابا ايوب كان مستخدماً في الديوان في ولاية يوسف بن عمر علىٰ العراق في عهد هشام بن عبدالملك وانه زوّر بعض السجلات ثم هرب الىٰ الاحواز واختفىٰ هناك حتىٰ قامت الثورة العباسية . وانه تعرف علىٰ ابي جعفر اثناء زيارته للاحواز فأدرك هذا الاخير قابلياته وجعله من بين كتّابه ومعاونيه .

ومهما يكن من أمر فإن من الواضح بأن مقدرة المورياني الادارية وخبرته المالية هي التي جذبت المنصور الىٰ هذا الكاتب الفارسي الاصل والموظف القديم في الادارة الاموية بالعراق والاحواز . وان اعتلاء المورياني للسلطة كان بسبب الرغبة الخاصة للخليفة بالذات اكثر من اختيار عبدالملك بن حميد له للاستعانة به كما أشرنا الىٰ ذلك من قبل .

ولابد لنا ان نشير هنا الىٰ بدء علاقته بالمنصور حيث تتفق روايات تاريخية علىٰ ان اللقاء كان في اواخر العصر الاموي وفي الاحواز حيث استطاع ابو ايوب المورياني ان ينقذ ابا جعفر من الموت حين اقنع الوالي سليمان المهلبي بألّا تسلّم ابا جعفر الى دمشق بعد القاء القبض عليه في الاحواز بسبب نشاطات سياسية ضد الامويين . فقد استطاع المورياني ان يقنع الوالي المهلبي بأن المستقبل قد يؤدي الىٰ سيطرة الهاشميين علىٰ السلطة وان هناك امكانية لنجاح دعوتهم . ولهذا اطلق سراح ابي جعفر من السجن . ولم ينس ابو جعفر ذلك للمورياني . والىٰ ذلك يشير الجهشياري :

«كانت له بأبي جعفر حرمة رعاها له فخف علىٰ قلبه فلم يزل امر ابي ايوب ومحله من رأي ابي جعفر يزيد حتىٰ قلده وزارته وفوض اليه امره كله»[٦] .

سلطاته الادارية :

يؤكد الجهشياري تمتع المورياني بسلطات ادارية واسعة ويستطرد قائلاً بأن المنصور لم يسلمه الوزارة والدواوين حيث اصبح على رأس الجهاز الاداري فحسب بل انه «فوّض اليه امره كله» . بل ان قسماً من الناس بدأوا يعتقدون بأنه يسحر الخليفة :

«قالت العامة انه سحر ابا جعفر واتخذ دهناً يمسحه علىٰ وجهه اذا اراد الدخول عليه وضرب المثل بدهن ابي ايوب» .

ولعل هذه الرواية تشير الىٰ مدىٰ اتساع نفوذه وسطوته وقد استغل ذلك فوزع افراد عائلته وأقربائه علىٰ المراكز الادارية . والواقع فإن روايات البلاذري واليعقوبي تتفق مع رواية الجهشياري في تأكيد نفوذ المورياني .

يرىٰ سورديل بأن هذا الكاتب القدير احتل المقام الاول الذي لم يستطع سلفه عبدالملك بن حميد ان يحتله في الادارة . ويخطأ كوتين حين يرىٰ مستنداً علىٰ الاشخاص الذين تسلموا المسؤولية بعد سقوطه سنة ١٥٤هـ بأن مسؤوليته كانت محددة بالناحية المالية والخاتم والضياع والرسائل حيث عين المنصور ثلاثة اشخاص لهذه الادارات . فليس هناك شك بأن سلطة المورياني كانت اكثر من ذلك بكثير حتىٰ انها امتدت الىٰ الاقاليم خاصة وانه كان مسؤولاً عن المالية وخاصة الجباية[٧] .

ومما يدل علىٰ نفوذه وتدخله في جباية الخراج من الاقاليم رواية البلاذري التي تذكر اتهام العلماء ورجال الدين للمورياني بالابتزاز علىٰ غير حق ومطالبتهم الخليفة بعزله اثر استدعاء الخليفة لعامل الاحواز بتهمة تعذيبه احد المواطنين حتىٰ الموت . فقد اعترف هذا الاخير بأن المال الذي يجمع من الاحواز يدفع نصفه لبيت المال ويذهب النصف الآخر الى خالد المورياني شقيق ابي ايوب المورياني . ويذكر الطبري والجهشياري [٨] روايات اخرىٰ عديدة تدل علىٰ الابتزاز والتعسف والمشاركة في الارباح بين المورياني والعمال الذين يعينهم علىٰ الجباية . ويبدو ان

المورياني كانت لديه السلطة لتعيين عمال الخراج في العراق والاقاليم المجاورة له علىٰ أقل تقدير. والمعروف ان كثيرين منهم كانوا من اقربائه. علىٰ ان ذلك لا يعني بأنه كان قادراً علىٰ عزل ولاة او عمال دون علم المنصور او اقراره.

دوره السياسي:

كان المورياني ذا مقدرة مالية وادارية كبيرة، ولكنه اضافة الىٰ ذلك لعب دوراً سياسياً في عدة احداث. وتذكر عدة روايات تاريخية ابا ايوب الى جانب الخليفة المنصور حين اتخذ قرارات هامة. ويروي الجهشياري روايات عديدة توضح دور المورياني قبيل مقتل ابي مسلم الخراساني وكيف شارك في تطمين ابي مسلم من أجل ان يقع في مصيدة المنصور. وقد استشار المنصور ابا ايوب المورياني في عدة امور مهمة اخرىٰ منها بعد تمرد عبد الجبار الازدي واليه علىٰ خراسان وبعد ثورة محمد النفس الزكية في الحجاز كما شارك المورياني في مقتل عبد الله بن المقفع الذي كتب الامان للثائر عبد الله بن علي، علىٰ ان كل ذلك لا يعني ان مسؤولياته السياسية كانت كبيرة او خطيرة خاصة وان المنصور لم يكن يسمح بإشراك احد في سلطته السياسية. او كما قال سَلم بن قتيبة «لا يصلح سيفان في غمد». ولهذا فإن المورياني كان قد اقتنع بتسجيل مراسلات الخليفة المنصور والاجابة عليها حسب تعليمات الخليفة، وكذلك تقديم الالتماسات والعرائض للمنصور وأخيراً الادارة المالية بما فيها ريع الاملاك العائدة للدولة[٩].

هل لقِّب المورياني بالوزير؟

لا تتفق مصادرنا التاريخية حول اعطاء المورياني هذا اللقب. فالطبري لا يعطيه هذا اللقب. والبلاذري يكرر اعطاءه لقب كاتب ولا يسميه وزيراً الا في النادر وأحياناً يعطيه اللقبين «كاتبه ووزيره». الا ان الجهشياري لا يتردد في دعوته بالوزير ويبدو واضحاً من ادراكه ان مسؤولية المورياني كانت اكبر من كاتب وأعلىٰ من ذلك في نظر الجهشياري ولهذا فهو يدعوه وزيراً. ولكن يبدو ان الامر كان

ملتبساً علىٰ الكثيرين فهذا الشاعر الذي أرخ قتل المورياني يقول دون ان يوضح منصبه .

أسوا العالمين حالاً لديهم من تسمىٰ بكاتب او وزير

وهنا يواجهنا السؤال الحائر والذي يبحث عن جواب شافٍ وهو... هل ان إضفاء الوزارة عليه كان تفسيراً متأخراً اعتمد علىٰ ما أعطي للمورياني من صلاحيات واسعة علىٰ شؤون ادارية ومالية كثيرة ؟ ام ان منصب الوزير كان قد أُعترف به منذ «وزارة» المورياني ؟

ان غالبية الروايات التاريخية غير المباشرة لا تعترف بوزارته بل تسميه كاتباً علىٰ ان هناك روايات منفردة تسميه وزيراً . ويبدو علىٰ أغلب الظن ان المورياني كان يسمىٰ وزيراً من قبل الموظفين الذين دونه وكذلك من قبل الناس دون ان يكون لقب الوزير قد منح له من قبل المنصور بصورة رسمية[١٠] .

علىٰ ان ذلك لا يعني بأن مسؤوليات الوزير لم تكن موجودة ، ودون شك كان المورياني أكثر من كاتب خاص للخليفة . ثم ان مسؤولياته المالية والادارية اضافة الىٰ مشاركته من اتخاذ العديد من القرارات السياسية يجعله المعين الاول للخليفة .

كل هذه الاعتبارات تُظهر المورياني وكأنه «الوزير» او المعين الاول للمنصور دون ان يحمل لقب الوزارة بصورة رسمية .

اسباب سقوطه :

ان مقدرة المورياني وكفاءته جعلته يحتل المركز الاول في الادارة العباسية علىٰ عهد المنصور ولكنه وبعد حوالي ١٥ سنة لم يعد يتمتع بثقة الخليفة حيث اسقطه وسجنه هو واقرباؤه واعدم بعض معاونيه وهناك عدة أسباب ـ علىٰ اختلاف الروايات ـ أدت الىٰ ذلك :

فهناك العديد من الروايات[١١] التي تنحىٰ منحىً واحداً وتؤكد علىٰ ان

المورياني استغل موقعه باعتبـاره مسؤولاً عن الواردات والجبـاية ومـدخولات الاملاك العائدة للدولة فأثرىٰ ثراءاً فاحشاً عن طريق اخوته وأقربائه واعوانه الذين شغلوا مراكز حساسة في الادارة . ومن هذه الروايات علىٰ سبيل المثال لا الحصر اعتراف بعض العمال بأن وارد مقاطعاتهم كان يقسّم الىٰ قسمين الاول بيت المال والثاني الىٰ أخي المورياني . والرواية التي تشير الىٰ استغلال المورياني لرخص الاسعار واحتكاره بعضِ المواد الغذائية طمعاً في الربح . يقول الجهشياري :

«ورخصت الاسعار في أيام ابي جعفر المنصور فسوّلت لابي ايوب نفسه ان يشتري طعام سواد الكوفة وسـواد البصرة وطمـع في الربح ...».

وكان المورياني يبرر جشعه وحبّه لجمع الاموال وابتزازه لبعض الورادات المتأتية من الخراج الى ان الخليفة يطالبه بالمال ويرهقه بالمطالبة به . ولذلك فعليه ان يكون مستعداً علىٰ الدوام لتلبية طلبات الخليفة . والمعـروف ان المـوريـاني كان معروفاً بالبخل والتقتير كذلك .

وفي رواية اخرىٰ في الجهشيـاري ان الموريـاني اخذ من المنصـور مبلغ ثلاثمائة الف درهم لاصلاح ضيعة لابن المنصور المدعو صالح المسكين ولكنه لم يصلحها ونكث وعده للخليفة .

لقد لاحظ الخليفة هذه التصرفات وغيرها التي تذكرها كتب التاريخ واقتنع بسوء تصرف المورياني الذي ، علىٰ حد قول بعض الروايات ، كان يرتعد في اواخر ايامه حين يستدعيه المنصور . وترىٰ سورديل بأن ارتعاد المورياني وخوفه ظاهرة تؤكد احساسه بالذنب وادراكه لسوء تصرفه اكثر مما تثبت الطبيعة التعسفية للمنصور كما يحلو لبعض المؤرخين ان يصورها .

وتؤكد روايات اخرىٰ الدور الذي لعبه حاجب المنصور الربيع بن يونس في الوقيعة بين الخليفة والمورياني وفي توسيع الشقة بينهما وفي تعميق شكوك المنصور من نوايا المورياني . وان الربيع بن يونس بمساعدة بعض اعوان وموظفي المورياني

نجح في ابلاغ الخليفة ببعض خيانات المورياني وابتزازاته للاموال فأمر الخليفة بسجن المورياني سنة ١٥٣هـ ومصادرة املاكه واملاك اخيه واقربائه والمقربين اليه واعدم بعض اعوانه من الموظفين وقطع ايدي البعض الآخر وأرجلهم بينما أبقى المورياني سجيناً حيث مات في السنة التالية سنة ١٥٤هـ.

ترى سورديل بأن شكوك المنصور من تصرفات المورياني كانت محقة وثابتة. ويبدو ان المورياني لم يخلص للمنصور ولم يتحمل المسؤولية بأمانة ولهذا فإن المنصور كان يكرر دائماً بأن «بني مروان فاقونا بعبدالحميد الكاتب» وهناك روايات تشير الى ان المنصور كان يهدد المورياني باستبداله بعبدالله بن المقفع قبل مقتله بسبب الامان الذي كتبه لعبدالله بن علي عم الخليفة. وكان الخليفة يشعر بعدم وجود الاعوان الاكفاء والمخلصين في الادارة فيقول:

معاوية وكفاه زياد وعبدالملك وكفاه الحجاج وأنا ولا كافي لي»[١٢]

ولقد كان غضب المنصور على المورياني بمقدار الثقة التي اعطاها له. ولقد كانت هذه الثقة كبيرة لأن نفوذ المورياني كان واسعاً جداً حيث تشير رواية تاريخية ان المنصور بعد اسقاطه المورياني سنة ١٥٣هـ:

«قلّد الخاتم الفضل بن سليمان الطوسي وقلّد كتابة الرسائل والسر ابان بن صدقة وقلّد ضياعه صاعداً مولاه... وقلّد ديوان خراج البصرة ونواحيها عمارة بن حمزة وقلد ديوان خراج الكوفة وارضها عمرو بن كيلغ... وقلد الربيع مولاه نفقاته والعرض عليه»[١٣].

مما يدل على المدى الذي وصلت اليه يد المورياني في شؤون الدولة العباسية!!.

هوامش الفصل الثاني

(١) المسعودي، مروج، ج٦ ص ١٦٥. ـ العيون والحدائق ج١ ص ٢٦٨.
(٢) ابن خلكان، ج١ ص ٢٩٥. ـ التنبيه، ص ٣٤٢.
(٣) سورديل، ج١ ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٤) الفخري، ص ١٧٤ طبعة بيروت.

(٥) راجع البلاذري، انساب ورقة ١٣٢٠ فما بعد ـ اليعقوبي، ج٢ ص٤٦٨ ـ الطبري. القسم الثالث ص ١٠٠، ١٠٩ فما بعد. ابن خلكان، ج٢ ص ١٤٣. الفخري، ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

(٦) الجهشياري ص ٩٧ ـ ١٢٤.

(٧) سورديل، المصدر السابق، ص ٨٠ فما بعد.

(٨) الطبري، القسم الثالث، ٢٠٨، ٢٣٧، ٢٣٨ ـ الجهشياري، ١٢٠ فما بعد.

(٩) سورديل، المصدر السابق، ج١ ص ٨٢.

(١٠) نفس المصدر السابق.

(١١) عن هذه الروايات راجع الجهشياري ص ٨١ـ٨٨ طبعة ١٩٣٨ بغداد، الفخري، ص ٣٢٧ ـ ٢٣٨.

(١٢) اليعقوبي، ج٢ ص ٤٦٦.

(١٣) الجهشياري ص ٨٨ طبعة بغداد.





الفصـــل الثالث

وزارة الربيع بن يونس الاولى



يؤكد كل من اليعقوبي والجهشياري بأن الخليفة المنصور حرص على الا يكرر تجربته مع المورياني ولذلك لم يعط احداً سلطات واسعة او صلاحيات كبيرة في امور الدولة[1] بل انه اهتم بأن يوزع المهمات التي اضطلع بها المورياني على اكثر من شخصية فقلد الخاتم للفضل الطوسي وقلد النفقات والعرض للربيع بن يونس وقلد الرسائل والسر لأبان بن صدقة ووزع امور الصياع والامور المالية (الخراج) على العديد من الاشخاص .

ومع ذلك كله فإن مصادرنا التاريخية تحاول ان تبرز الربيع بن يونس على انه الشخصية التي كانت تتمتع بالمقام الاول عند المنصور .

ان الربيع بن يونس بن محمد بن ابي فروة (كيسان) مولى الحارث الحفار[2] ، كان شخصاً غامض الاصل مغمور النسب . وترى بعض الروايات التاريخية الى ان اباه يونس بن محمد كان من شطّار المدينة وانه اعتنق المذهب الخارجي وقد أصبحت له علاقة بجارية فأنجبت له الربيع الذي استعبد ايضاً وتربى عبداً حتى بيع في سوق العبيد الى زياد بن عبد الله الحارثي خال أبي العباس (السفاح) فأهداه الى الخليفة ثم خدم بعده المنصور فخص به . ويصفه كتاب الفخري بأنه :

«كان جليلاً نبيلاً منفذاً للامور مهيباً وضيحاً كاتباً حازماً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والاعمال حاذقاً بأمور الملك بصيراً بما يأتي وبذراً محباً لفعل الخير...».

وفي روايات اخرى ان الربيع كان لقيطاً لا يعرف نسبه او والده ولذلك فقد كان عرضةً لكثير من النقد اللاذع من منافسيه واعدائه خلال فترة حياته . على ان المنصور اعتقه وأعطاه حريته وبذلك ارتبط به ارتباطاً وثيقاً . وكان الربيع قد خدم في البداية مع حاجب المنصور ابي الخصيب ثم خلفه في الحجابة وبذلك اصبح احد اعمدة البلاط العباسي ومن خاصة الخليفة المنصور . وظهر الربيع في العديد من المناسبات مع الخليفة وبجانبه يشير اليه ويجيبه على تساؤلاته حين يسأله الخليفة

المشورة .

تؤكد العديد من الروايات التاريخية مسؤولياته الكثيرة فقد عهد اليه المنصور الاشراف علىٰ بناء قصر الخلد مثلاً كما كان مسؤولاً عن رقيق الخليفة كما كانت لديه مفاتيح الخزائن حين تُوفي الخليفة .

سلطاته الجديدة :

ودون شك فقد عُهدت للربيع بن يونس مسؤوليات جديدة اضافية بعد سقوط المورياني . وقد أشرنا فيماسبق الى ان الربيع بن يونس لعب دوراً مباشراً في سقوط المورياني حين كشف للمنصور العديدمن نقائصه وابتزازاته .

الا ان المؤرخين يختلفون في طبيعة المسؤوليات التي انيطت بالربيع بن يونس . فالبلاذري يرىٰ أن ادارة النفقات اضيفت اليه مع مسؤوليته القديمة الحجابة ، بينما يؤكد الجهشياري انه رُقيَ الى مرتبة وزير وفي نفس الوقت مسؤولاً عن النفقات والعرض . اما العرض فهو تقديم الرسائل ومذكرات الالتماس وطلبات الحوائج الىٰ الخليفة .

ويبدو ان الجهشياري علىٰ يقين بأن منصب الوزارة قد عهد للربيع بن يونس حيث يشير الىٰ المراسيم الرسمية التي اتبعت في ذلك والىٰ اقوال الخليفة فيقول :

«ولما عزم المنصور علىٰ تقليد الربيع العرض عليه قال اجلس في بيتك حتىٰ يأتيك رسولي .... فصار اليه الرسول بدرّاعة وطيلسان وشاشية . فقال له البس هذا واركب بهذا الزي فركب . فأمر الفراش ان يطرح له مرفقه تحت البساط تقصيراً به عن منزلة المهدي وعيسىٰ إبن علي ... فلما وصل اليه قال له : قد وليتك الوزارة والعرض ....» .

ويؤكد الجهشياري في هذا القول كل من المسعودي والخطيب البغدادي وابن خلكان[٣] . الا ان الطبري لا يسمي الربيع وزيراً بل حاجباً حتىٰ سنة ١٥٧هـ .

لقد اختلف المؤرخون المحدثون تبعاً لاختلاف المؤرخين الرواد في منصب الربيع ومسؤولياته ففي حين يؤكد بعضهم وزارته للمنصور، يرىٰ البعض الآخر بأن «الوزارة» التي عهدت الىٰ الربيع بن يونس لم تكن في حقيقتها منصباً ادارياً بقدر ما كانت مرتبة في البلاط العباسي شبيهة بمرتبة الحاجب الاول للخليفة. والغرض منها تشريف وتقديم احد خواص الخليفة. وبكلمة اخرىٰ فإن الحاجب السابق الربيع بن يونس اتسعت صلاحياته فأخذ يعرض علىٰ الخليفة الالتماسات والطلبات ويدير النفقات ويشير الىٰ الخليفة بالرأي خاصة فيما يتعلق بتوزيع الهبات والهدايا. وفي رواية تاريخية ان الربيع بن يونس كان كريماً جداً وكان المنصور يرسل اليه الاشخاص الذين يريد اكرامهم والاحسان اليهم.

لقد اثبت الربيع بن يونس كفاءته وقدرته في اتخاذ قرارات سريعة في مواقف حاسمة واخلاصه في تنفيذ رغبات المنصور. ولعل الدور الذي لعبه الربيع بن يونس حين قربت وفاة المنصور في طريق الحجاز لأخذ البيعة من الاشراف وبني هاشم والقواد لولي العهد المهدي كان من الادوار الحاسمة في تاريخ الخلافة العباسية. تشير الرواية التاريخية الىٰ ان الربيع كان الوحيد الذي حضر موت المنصور ولكنه اخفىٰ النبأ. وطلب من بني هاشم وغيرهم ان يقسموا يمين البيعة للمهدي بناءاً على رغبة المنصور «المريض» وحين تم له ذلك اعلن نبأ وفاة الخليفة وضمن تنفيذ رغبته بأن يكون ابنه المهدي خليفةً من بعده.

وعلىٰ هذا فإن نفوذ الربيع بن يونس في عهد المنصور لم يكن أقلّ من نفوذ سلفه المورياني. وحين تحاول سورديل ان تقارن بين منصبيهما ترىٰ بأن المركز الذي احتله المورياني كان بسبب خبرته الفنية في مجال الادارة المالية ومع ذلك لم يمنح لقب وزير بصورة رسمية. اما الربيع بن يونس فإن بعض المؤرخين رسموه الى منصب الوزارة رغم انه لم يشغل وظيفة ادارية بارزة. ومهما يكن من أمر فإن الرجلين احتلا مركزاً متساوياً الى جانب الخليفة المنصور كمساعدين رئيسيين موثوقاً بهما. وكان واجبهما الرئيس تسهيل اعمال الادارة الحكومية دون ان يكون

لهما الحق باتخاذ اجراءات مهمة الا بعد الاستئناس برأي الخليفة حيث ان طبيعة المنصور لم تكن تسمح بغير ذلك[4] .

وبعد ذلك يمكننا القول بأن عصر المنصور يعتبر علامة بارزة في تاريخ الوزارة في الاسلام حيث وضع لبنة جديدة في عملية بناء مؤسسة الوزارة . فمنذ عصر المنصور غدا من المقرر ان يكون الى جانب الخليفة شخص جديرٌ بالثقة يعتبر مساعداً اولاً للخليفة في تسيير شؤون الدولة .

هذا من جهة ومن جهة اخرىٰ فإن عصر المنصور شهد بداية نظامٍ جديدٍ آخر . فمن أجل ان يكون ولي العهد قادراً علىٰ تحمل مسؤولياته حين يأتي اليوم الذي يكون فيه خليفة قرر المنصور ان يلحق بولي العهد او ولاة العهد مربياً وكاتباً يدربه ويعُدّه ثم يصبح ساعده الايمن حين يتولىٰ الخلافة . وهذا نظام جديد ابتدعه المنصور ولم يكن موجوداً قبله .

وقد اختار المنصور ابا عبيدالله معاوية بن عبيدالله بن يسار لتربية ابنه المهدي والكتابة له . وفي رواية ان المنصور «كان قد عزم ان يستوزره لكن تأثير ابنه المهدي» حمله علىٰ ارساله الى الري سنة ١٤٠هـ . وجعل الفضل بن عمران كاتباً ومربياً لابنه الآخر جعفر[5] .

ولم يمضِ وقت طويل حتىٰ غدا ابو عبيدالله معاوية يدير بحرية وكفاءة شؤون مولاه محمد المهدي وأصبح اكثر من مجرد كاتبٍ للمهدي ، بل يظهر في حملة المهدي علىٰ خراسان سنة ١٥٠هـ يتمتع بسلطات واسعة مصدراً اوامره الىٰ قطعات الجيش حيث تضاربت تلك الاوامر مع اوامر القائد خازم بن خزيمة التميمي .

وحين غادر المنصور الىٰ بلاد الشام وترك المهدي نائباً له في بغداد كان ابو عبيدالله معاوية مسؤولاً عن الواردات ولعب دوراً في مصادرة اموال المورياني .

ان التقليد الذي ابتدعه المنصور فيما يتعلق بالمساعد الاول او فيما يخص اختيار مربٍ وكاتبٍ لولي عهده .... ان هذا التقليد سيستمر لسنوات طويلة .

ومهما يكن من امر فقد بقي الربيع بن يونس الاول بين اقرانه من خاصة المنصور والمساعد الاول له حتىٰ وفاة الخليفة . وقد فتح الربيع بن يونس نفوذه في عهد المهدي الى ابي عبيدالله معاوية . ولكن دور الربيع بن يونس السياسي لم ينته بعد حيث استمر في عهد المهدي وابنه الهادي الذي قتله سنة ١٧٠هـ .

هوامش الفصل الثالث

(١) الجهشياري ، المصدر السابق ، ونفس الصفحة . ـ اليعقوبي ، ج٢ ص ٤٦٨ .

(٢) عن الربيع بن يونس راجع : البلاذري ، انساب ، ورقة ١٣١٧ ـ ٣١٧ب . ـ اليعقوبي ، ج٢ ص ٤٦٢ فما بعد . ـ الطبري ، القسم الثالث ١١٢ فما بعد . ـ الجهشياري ص ١٢٥ فما بعد .

(٣) المسعودي ، التنبيه ، ٣٤٢ فما بعد . ـ الخطيب البغدادي ، ج٢ ص٤١٤ . ـ ابن خلكان ، ج٢ ص ٥٥ فما بعد .

(٤) سورديل ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٥) الطبري ، القسم الثالث ، ص ٣٥١ فما بعد . ـ الجهشياري ص١٢٦ .



وزارة ابي عبيدالله معاوية إبن عبيدالله بن يسار الطبراني



لقد كان من الطبيعي ان يحتفظ الخليفة العباسي الجديد المهدي بكاتبه ومربيه القديم ابي عبيدالله معاوية بن يسّار الى جانبه في ادارة شؤون الدولة .

ولابد من الاشارة باديء ذي بدء بأن خلافة المهدي كانت فاتحة عهد جديد في تاريخ الخلافة العباسية . فلقد استطاع الخليفة المؤسس ابو جعفر المنصور ان يوطد اركان الدولة ويقوي سلطة الخليفة ويضع الاسس القويمة للحكم العباسي . ولكن كانت هناك مشكلات تنتظر الحل وقد بدأت الآمال العريضة التي فجرتها الثورة العباسية تتبخر وتصطدم بصخرة الواقع السياسي والاقتصادي . وبدأت حركات العلويين واضطرابات الفرس وغيرهم في المشرق الاسلامي وخاصة في خراسان ذاتها .

على ان طبيعة الخليفة الجديد المهدي كانت تختلف من جميع النواحي تقريباً عن طبيعة المنصور وكان المنصور نفسه قد تنبأ بأن ابنه سيختلف عنه في حكمه للبلاد . فلقد كان هم المهدي ان يجعل عهده مطابقاً ومنسجماً مع ما يتوقعه الناس من «المهدي» الذي يعني المنقذ المنتظر الذي سيملؤها عدلاً ورخاءاً وسلاماً . ولهذا فقد كان المهدي مرناً سخياً الى حد التبذير راغباً في تحقيق السلام مع حركات المعارضة وتحقيق التقارب مع العلويين وبالتالي الوصول الى الاستقرار العام للخلافة .

ان هذه المظاهر التي تتسم بها سياسة المهدي أثرت في اختياره لوزرائه ومساعديه وخاصته كما سنرى .

ابو عبيدالله والوزارة :

بقي ابو عبيدالله معاوية الى جانب المهدي بعد مبايعته بالخلافة . وابو عبيدالله هذا مولى من فلسطين ولهذا يلقب بالطبراني نسبة الى طبرية[1] . وقد واتته الفرصة لتطوير خبراته الادارية خلال عهد المنصور حين تولى خراج بغداد حين اصبح المهدي نائباً للمنصور .

وفي عهد المهدي تعطي غالبية المصادر لقب «الوزير» الى ابي عبيدالله معاوية . بل ان الجهشياري يؤكد ، مثلما فعل مع المورياني ، انه استلم الوزارة والدواوين . كما يؤكد الشاعر علي بن الخليل لقب «الوزارة» حين يشير في شعره الى سلب يعقوب بن داود لكافة صلاحيات ابي عبيدالله ولم يبق له شيئاً :

قل للوزير ابي عبيدالله هل لك باقية؟!!(٣)

ولكن الطبري في رواية تاريخية يشير الى ان لقب الوزارة منح الى يعقوب بن داود ولم يمنح الى سلفه ابي عبيدالله معاوية . وان نفوذ ابي عبيدالله معاوية وتأثيره على المهدي كان اكبر بكثير من نفوذ المورياني على المنصور .

ومع ذلك كله لا يمكن القول بأن ابا عبيدالله منح لقب «وزير» في حياته . فالشعراء والكتاب باستثناء علي بن الخليل لا يعطون هذا اللقب كما وان الجهشياري لا يشير الى مراسيم منحه هذا اللقب .

وكما أشرنا من قبل ونكرر الآن فيبدو ان مصطلح الوزير كان متداولاً في هذه الفترة ويمنح للمساعد الاول للخليفة او للاول بين اقرانه من خاصة الخليفة او حتى ولي العهد . ففي سنة ١٦٠هـ حين ذهب المهدي للحج ترك ابنه موسى الهادي نائباً عنه في بغداد وجعل معه اخاه يزيد بن المنصور وزيراً ومدبراً لشؤونه وأمره ، بينما أخذ معه يعقوب بن داود وابنه الثاني هارون الرشيد الذي كان له وزير وكاتب هو أبان بن صدقة . وفي سنة ١٦٣هـ ترك المهدي ابنه موسى نائباً عنه ومعه أبان بن صدقة . وهناك روايات اخرى تشير الى مشاورة المهدي «لوزرائه» في الاحداث المهمة والخطيرة في الدولة .

ان كل هذه الروايات تشير الى ان مصطلح وزير كان متداولاً ولكنه يرتبط بالدرجة الاولى بكاتب الخليفة ومدبر اموره او بالشخصية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالخليفة والتي تقوم بخدمة الخليفة وادارة اعماله . وهذا ينسحب كذلك على الشخصية المرتبطة بولي العهد .

وبكلمة اخرى فإن اصطلاح الوزير لحد هذه الفترة لم يكن له معنىً مستقلاً

او صلاحيات محـددة بوضـوح ، ومعنىٰ ذلك ايضاً أن الوزارة لم تكن منصباً واضحاً في الدولة بعدُ .

نفوذه وسلطاته :

لقد كان نفوذ ابي عبيدالله في الدولة وتأثيره علىٰ الخليفة كبيراً جداً . يقول مؤلف الفخري :

«.... فكان غالباً علىٰ امور المهدي لا يعصي له قولاً وكان المنصـور لايزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير به . فلما مـات المنصور وتـولىٰ المهدي الخـلافـة فـوض اليـه تـدبـير المملكـة وسلّم اليـه الدواوين»[3] .

ومنذ عصر المنصور كان لابي عبيدالله شأن في السياسة فقد تدخل في مسألة ولاية العهد للمهدي وكان هو الذي كتب نص تنازل عيسىٰ بن موسىٰ عن ولاية العهد الاولىٰ للمهدي بن المنصور . وهو الذي أخذ البيعة العامة من الناس في بغـداد للمهدي بعد سماعه بنبأ وفاة المنصـور . وتشير المصـادر التاريخيـة الىٰ ان ابا عبيدالله معاوية كان «شديد التكبر والتجبر» ولذلك لم يستقبل الربيع بن يونس الاستقبال اللائق به بعد عودته من الحجاز بعد موت المنصور وحين هم الربيع ان يروي لابي عبيدالله دوره في أخذ البيعة للمهدي من الهاشميين والناس ، قطع ابو عبيدالله كلامه قائلاً : قد بلغنا نبأكم!! وقد اضمرها الربيع له وحلف بأن «يبذل ماله وجاهه في مكروهه وازالة نعمته»[4] .

وفي عهد المهدي قام ابو عبيدالله للمرة الثانية بالتفاوض مع عيسىٰ بن موسىٰ ولي العهد للتنازل عن حقه الشرعي الىٰ ابن المهدي (موسىٰ الهادي) . وقد اقنعه بالفعل بالتنازل عن حقبه والعدول عن طموحاته مقابل تعويض مالي كبير . وحين وافق عيسىٰ بن موسىٰ كتب ابو عبيدالله الىٰ الآفاق يعلم الناس بالخبر .

وفي سنة ١٦٣هـ امر المهدي ابا عبيدالله معاوية بأخذ البيعة الىٰ ابنه الثاني

هارون بعد موسىٰ باعتباره ولياً ثانياً للعهد . وقد قام ابو عبيدالله بمراسيم البيعة في دار العامة وكان بصحبته قائد الحرس ابو العباس الطوسي . ثم كتب ابو عبيدالله الىٰ الاقاليم يعلمهم بالخبر.

وأكثر من ذلك فإن ابا عبيدالله معاوية كان يقوم بمهمة المستشار للخليفة ، فقد كان المهدي يصدر اوامره بتعيين ولاة الاقاليم بعد مشاورة ابي عبيدالله ، وكذلك كان يساعده اثناء الجلوس للمظالم ويكون الىٰ جانبه .

وكان ابو عبيدالله معاوية يعمل كاتباً خاصاً للخليفة فكان هو الذي يكتب الرسائل الصادرة عن الخليفة الىٰ الاقاليم وكان ابو عبيدالله معاوية متضلعاً في الادارة المالية وقد ألف كتاباً في الخراج وإليه تعود فكرة اتباع الدولة (لنظام المقاسمة) في المحصول . يقول ابن طباطبا عن ابي عبيدالله :

«وكان مقدماً في صناعته فاخترع اموراً منها نقل الخراج الىٰ المقاسمة . وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجا مقررا ولا يقاسم ، فلما ولي ابو عبيدالله قرر المقاسمة وجعل الخراج علىٰ النخل والشجر.. وصنف كتاباً في الخراج ذكر فيه احكامه الشرعية ودقائقه وقواعده . وهو اول من صنف كتاباً في الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج ...» .

ولقد حفظ لنا الكتاب والاخباريون نتفاً عن الرسالة التي وجهها للمهدي حول نظام المقاسمة وأهميته بالنسبة للفلاحين وللدولة علىٰ حد سواء . ويشير فيه الىٰ الاجحاف الذي يلحق بالفلاحين حين تفرض عليهم الدولة ضريبة نقدية سنوية معينة ولا تأخذ بنظر الاعتبار كمية المحصول السنوية المتغيرة وعوامل المناخ والطبيعة والري وغيرها . ولابد ان نذكر في هذا المجال الى ان عبدالله بن المقفع كان قدطرح نفس هذه الفكرة علىٰ الخليفة المنصور قبل الآن في (رسالته في الصحابة) . ويبدو ان المهدي اخذ بالكثير من الآراء التي طرحها ابو عبيدالله في هذا الشأن ونفذها[1] .

سقوطه :

ان سلطة ابي عبيدالله معاوية كانت ، على ما يتفق عليه المؤرخون ، لم تدم طويلاً فقد نقل المهدي ثقته الى يعقوب بن داود واتخذه وزيراً له سنة ١٦٣هـ .

ومع اننا سنتكلم بالتفصيل عن يعقوب بن داود فلابد لنا ان نشير هنا بأنه كان سجيناً سياسياً في عهد المنصور بسبب ميوله العلوية ثم استفاد من العفو الذي اصدره المهدي عن السجناء السياسيين سنة ١٦١هـ وبدأ يقرب نفسه بمساعد الربيع بن يونس حتى ايقن المهدي ان يعقوب يمكن ان يلعب دوراً مهماً في التقارب بين العباسيين والعلويين .

ولا شك فإن هناك عوامل متداخلة لعبت دورها في تحديد نفوذ ابي عبيدالله معاوية ثم في سقوطه . فالطبري يروي العديد من الروايات التاريخية التي توضح بأن المهدي ظل يثق بأبي عبيدالله ويعطيه قدراً كبيراً من الاحترام ويعمل بمشورته ولكنه كرّه نفسه ونفّر الخليفة منه بتخطيه صدور سلطته وتدخله بأمور لا تعنيه . ثم ان المهدي كان شخصية يسهل التأثير عليها من قبل منافسي ابي عبيدالله واعدائه وعلى رأسهم الربيع بن يونس .

ويبدو ان المنافسة بين ابي عبيدالله معاوية والربيع بن يونس قديمة وتعود الى عهد المنصور فقد كان ولي العهد المهدي قد وقع تحت تأثير كتلة الموالي بقيادة الربيع بن يونس ولذلك اراد ابو عبيدالله ان يقلل من تأثيرهم «فرشح له اربعة رجال من قبائل شتى من اهل الادب والعلم فضمهم الى المهدي فكانوا من صحابته فلم يكونوا يدعون الموالي يختلون به» . وفي رواية تاريخية اخرى ان ابا عبيدالله معاوية حين استقبل الربيع بن يونس وابنه الفضل بعد عودة الربيع من الحجاز بعد وفاة المنصور لم يبد له الاحترام اللائق به ولم يسأله عن امر بيعة المهدي الذي قام به الربيع . وحين اراد الربيع ان يبلغه ما تم قاطعه قائلاً «قد بلغنانبأكم»!! فحملها الربيع بن يونس له وحاول شتى الطرق لتحطيم ابي عبيدالله .

وفي رواية تاريخية اخرى ان الربيع بن يونس فشل في اتهام ابي عبيدالله

بالتقصير او عدم الكفاءة ولم يستطع ان يجد ثغرة في اخلاصه للمهدي او في ورعه وتقواه. ولكنه استطاع بمساعدة القشيري ان يتهم احد ابنائه بالزندقة واقنع المهدي بصحة هذا الاتهام وكان ذلك سنة ١٦٣هـ.

«فأمر [المهدي] فأحضر [محمد] واخرج ابو عبيدالله فقال يا محمد اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن فقال يا معاوية الم تعلمني ان ابنك جامع للقرآن قال اخبرتك يا أمير المؤمنين ولكن فارقني منذ سنين وفي هذه المدة التي نأى فيها عني نسي القرآن. قال قم فتقرب الى الله في دمه فذهب ليقوم فوقع فقال العباس بن محمد ان رأيت يا أمير المؤمنين ان تعفي الشيخ قال ففعل وامر به فأخرج فضربت عنقه ... فقال له الربيع قتلت ابنه وليس ينبغي ان يكون معك ولا أن تثق به فأوحش المهدي ...».

تشير هذه الرواية الى الدور الرئيسي الذي لعبه الربيع بن يونس من سقوط ابي عبيدالله معاوية بل اكثر من هذا فان الربيع استمر في تحريض المهدي وتخويفه منه. وتشير رواية تاريخية :

«.... وتنمر قلبه (ابو عبيدالله) وتنمر ايضاً قلب المهدي منه [بعد قتل ابنه]. فدخل بعض الايام على المهدي ليعرض عليه كتباً قد وردت من بعض الاطراف. فتقدم المهدي باخلاء المجلس فخرج كل من به الا الربيع فلم يعرض ابو عبيدالله شيئاً من الكتب وطلب ان يخرج الربيع. فقال له المهدي : يا ربيع اخرج. فتنحى الربيع قليلاً. فقال المهدي : ألم آمرك بالخروج؟ قال : يا أمير المؤمنين كيف اخرج وانت وحدك وليس معك سلاح، وعندك رجل من اهل الشام اسمه معاوية وقد قتلت بالامس ولده واوغرت صدره فكيف ادعك معه على هذه الحال وأخرج»[٨].

وقد اثر هذا الكلام في المهدي فقال لابي عبيدالله اعرض ما تريد فليس دون

الربيع سر.

وبعد هذه الحادثة التي وقعت سنة ١٦٣هـ أعفي ابو عبيدالله من كافة مسؤولياته «الوزارة» الا ديوان الرسائل حيث بقي مسؤولاً عنه حتىٰ سنة ١٦٧هـ. كما ان هذه الحادثة واعفاءه لم تؤثر في احترام المهدي له وفي منزلته في بلاط المهدي حتىٰ سنة ١٦٧هـ. فقد استمر الربيع يحث المهدي على ابعاده الى ان نجح في تلك السنة. فقد أمر المهدي الربيع بن يونس ان يحجبه عنه قائلاً:

«اني استحي من ابي عبيدالله بسبب قتل ولده فاحجبه عني. فحجب عنه وانقطع بداره واضمحل امره وتهيأ للربيع ما اراده من ازالة نعمته ومات ابو عبيدالله سنة ١٧٠هـ»[٩].

واذا صدّقنا رواية الجهشياري وابن خلكان اصبح يعقوب بن داود وزيراً منذ سنة ١٦٣هـ كما اعلن المهدي يعقوب «اخاً في الله». بينما بقي ابو عبيدالله مسؤولاً عن الرسائل حتىٰ سنة ١٦٧هـ. وهذا يوضح بأن ابا عبيدالله لم يعزل مباشرة بعد حادثة قتل ابنه بل استمر المهدي يستقبله حسب مرتبته السابقة لخدمته المخلصة وانتفع من قابلياته. على ان مؤامرة الربيع بن يونس نجحت وان الربيع بن يونس نفسه رشح يعقوب بن داود للخليفة واستحوذ يعقوب بن داود علىٰ كافة صلاحيات ابي عبيدالله الا الرسائل. وفي ذلك يقول الشاعر:

عجباً لتصريف الامو ... ر مسرّة وكراهيه
والدهر يلعب بالرجا ... ل له دوائر جاريه

ثم يقول:

قل للوزير ابي عبيد ... الله هل لك باقيه
يعقوب ينظر في الامو ... ر وانت تنظر ناحيه
ادخلته فعلاً عليك ... كذلك شؤم الناصيه!!

لقد استغل الربيع بن يونس الموقف وظروف مطاردة الزنادقة لمصلحته وكذلك رغبة الخليفة في الوفاق مع العلويين فأسقط شخصاً مخلصاً ذا قابليات كبيرة وكفاءة عالية من مرتبته بجانب الخليفة المهدي لأسباب شخصية اولاً وقبل كل شيء.

هوامش الفصل الرابع

(١) عن ابي عبيدالله معاوية راجع: الطبري، القسم الثالث، ٣١٥ فما بعد. ـ الجهشياري، ١٢٦ فما بعد. ـ ابن خلكان، ج٦ ص ٢٠. ـ الفخري، ٢٤٦ فما بعد.

(٢) الطبري القسم الثالث، ص ٤٦٥.

(٣) الفخري، طبعة بيروت ص ١٨٢.

(٤) الطبري القسم الثالث، ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

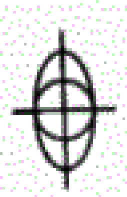
(٥) الفخري، طبعة بيروت، ص ١٨٢.

(٦) سورديل، ج١ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٧) الطبري، القسم الثالث، ص ٤٨٧. ـ الفخري، طبعة بيروت ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.



الفصـــل الخامس

وزارة يعقوب بن داود



إن اول شخصية سياسية في العهد العباسي تتفق الروايات التاريخية علىٰ انها تلقبت رسميا[1] بلقب (الوزير) هي شخصية يعقوب بن داود السلمي وزير المهدي .

أصله وسيرته الاولىٰ :

يعقوب بن داود بن عمرو بن عثمان بن طهمان السُلَمي بالولاء[3] . ليس لدينا معلومات كثيرة عن أصله وآبائه سوىٰ ما يذكره البلاذري[2]من ان طهمان كان مولىٰ لأبي صالح عبدالله بن خازم السُلَمي والي خراسان الاموي وانه قتل معه اثناء صدام مسلح ضد بعض القبائل الخراسانية في ضواحي مرو سنة ٧٢هـ او سنة ٧٣هـ/ سنة ٦٩٢م . ان اتصال طهمان وتقربه الىٰ السلطة الاموية في خراسان هيأ لأبنائه الفرصة للسير علىٰ نفس الطريق حيث تذكر الروايات التاريخية ان داود واخوته اشتغلوا كتّاباً في الديوان في خراسان حتىٰ ولاية نصر بن سيـار . يقول الطبري «كان داود بن طهمان واخوته كتّابـاً لنصر وكتب داود قبله لبعض ولاة خراسان[4] .

ولم يكن داود هذا موظفاً مغموراً بل كان ذكياً مدركـاً للأمور وطمـوحاً . ولعله ـ وهو بحكم وظيفته اقرب ما يكون الىٰ تقلبات السياسة الاموية ـ قد ادرك اسباب تذمر اهل خراسان وتدهور دولة الامويين فاستهوته الدعوة السرية لأهل البيت فأعتنق المذهب العلوي الزيدي واتصل سراً بيحيىٰ بن زيد الحسيني وحذره من خطط نصر بن سيّار للقبض عليه . ولكن نصر بن سيّار قبض علىٰ يحيىٰ وقتله سنة ١٢٥هـ/ سنة ٧٤٣م[5] .

وفي سنة ١٢٩هـ/٧٤٧م اعلن دعاة العباسيين في خراسان يساندهم المقاتلة العرب من أهل خراسان وبعض الموالي والفرس من عجم خراسان الثورة العباسية التي قضت علىٰ الامويين سنة ١٣٢هـ/ سنة ٧٥٠م . وكانت شعارات الثورة الثأر لأهل البيت وخاصة زيد وابنـه يحيى التي ظلت اخبار مقتلهمـا تحز في نفـوس

المسلمين . وقد أمن أبو مسلم الخراساني داود بن طهمان وقدر له موقفه من أهل البيت ، وترك له املاكه وضياعه ولم يصادر من الا الاموال التي كان قد حصل عليها من نصر . ولذلك بقي داود في وضع موسر مكنه من تربية اولاده وتهذيبهم وتلقينهم العلم فنشأوا «أهل أدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم»[٦] . ولكن الدولة العباسية لم تستخدم داود في الادارة وذلك لسببين :

الاول ـ هو ميل داود وأخوته الى الشيعة العلوية حيث كان داود ذا ميل الى الزيدية وعلى اتصال بهم . هذا وبالرغم من أن الدعوة العباسية رفعت شعارات الثأر لأهل البيت الا ان صفتها العباسية كانت محددة منذ البداية ولم يكن بالامكان الاعتماد في هذه الفترة المبكرة الا على شيعة عباسيين موثوق في اخلاصهم .

والثاني ـ ماضي داود بن طهمان واخوته الموصل بالسلطة الاموية في خراسان لم يكن يؤهلهم لكسب ثقة العباسيين الذين خشوا غدرهم كما غدروا سابقاً بنصر بن سيّار .

وبسبب ميولهم تلك لم تشفع ثقافة اولاد داود واخوته وكفاءتهم لدى العباسيين فأصيبوا بخيبة أمل ودفعتهم خيبة املهم هذه الى البحث عن وسيلة اخرى لاشباع طموحهم السياسي وتطلعهم نحو السلطة . وكان طبيعياً ان ينظر اولاد داود الى المعارضة العلوية ، التي بدأت تستفحل بعد اعلان الدولة العباسية وانقسام الهاشميين الى علويين وعباسيين ، على انها طريقهم الى السلطة . وكان «علي بن داود كتب لابراهيم بن عبدالله بن حسن وصحبه يعقوب بن داود»[٧] . ويقول الطبري «ونظروا فاذا ليست لهم عند بني العباس منزلة فلم يطمعوا في خدمتهم ... فلما رأوا ذلك اظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل الحسين وطمعوا في ان يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ومع ابراهيم بن عبدالله أحياناً في طلب البيعة لمحمد بن عبدالله»[٨] . وهكذا فقد انضم علي ويعقوب الى محمد النفس الزكية ، ثم انخرطوا في صفوف أخيه ابراهيم في البصرة الذي ثار سنة

١٤٥هـ/ سنة ٧٦٢م . وكانت ثورة العلويين هذه خطرة على كيان الدولة العباسية الفتية،ولكن حنكة الخليفة المنصور وصلابته مكّنته من القضاء عليها فما كان من يعقوب واخوته الا الاختفاء . وقد استطاع المنصور ان يقبض على يعقوب وأخيه ويودعهما في السجن مع بعض العلويين امثال الحسن بن ابراهيم الحسني . وكان في السجن ايضاً اسحق بن الفضل بن عبدالرحمن الهاشمي .

الخليفة طهمان ويعقوب بن داود :

لقد بقي يعقوب بن داود في سجنه ما تبقى من عهد المنصور اي اكثر من عشر سنوات ولما تولى المهدي الخلافة سنة ١٥٨هـ/ سنة ٧٧٤م أراد ان يظهر للناس انه المهدي حقاً فأعلن عن اجراءات سياسية تتصف بالمرونة والتسامح والعفو وبذل الاموال والعطاء . وكان من هذه الاجراءات اعلانه عفواً عاماً عن اغلب السجناء السياسيين وكان يعقوب بن داود ممن اطلق سراحهم . يقول الطبري[٩] «وفي سنة ١٥٩هـ امر المهدي باطلاق من كان في سجن المنصور الا من كان قبله تباعة من دم او قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الارض بالفساد او من كان لأحد قبله مظلمة او حق فأطلقوا فكان ممن أطلق من المطبق يعقوب بن داود مولى بني سليم» .

وقد استطاع يعقوب بعد فترة قصيرة من استعادته حريته أن يكسب ود الخليفة . ولعل تقرب يعقوب من الخليفة بهذه السرعة كان من الغرابة بحيث ادهش الرواة الذين حاولوا ان يطلقوا العنان لخيالهم وينسجوا الروايات حول ذلك . والواقع ان السجن لم ينقص من عزيمة يعقوب او يقضي على طموحه السياسي بل على العكس فإن هذا الرجل ذا الشخصية الجذابة كان من الذكاء بحيث استغل ماضيه السياسي فجعله سلّماً للوصول الى الحكم .

لم يشمل عفو المهدي الحسن بن ابراهيم الحسني الذي بقي في السجن

فحاول الهرب . يقول الجهشياري[10] وكان الحسن في المطبق فسعىٰ به يعقوب الىٰ المهدي وذكر انه عمل سرباً يهرب منه فبعث المهدي فوجد السرب فنقله الىٰ نصير الوصيف» . ويؤكد الطبري ذلك في رواية دون اسناد فيذكر ان يعقوب علم محاولة الحسن الهرب «كان يعقوب بعد أن أطلق سراحه يطيف بابن علاثة وهو قاضي المهدي ويلزمه حتىٰ أنس به .... فأخبره ان عنده نصيحة للمهدي وسأله ايصاله الىٰ ابي عبدالله [وزير المهدي]»[11] . وعن طريق ابي عبدالله وصل يعقوب الىٰ مجلس المهدي وقابله واخبره بعزم الحسن على الهرب عن طريق ممر ارضي حفره له اعوانه .

لم يتورع يعقوب بن داود عن خيانة صديق قديم له ليتقرب بذلك الىٰ الخليفة ، كما وانه لم يعر أية أهمية الىٰ ولائه العلوي السابق من أجل الوصل الىٰ هدفه السياسي الجديد . ولم تفت يعقوب الفرصة ليشكر الخليفة علىٰ العفو الذي شمله به والظاهر انه جنّد كافة خبراته السابقة ولباقته ليترك أثراً حميداً في نفسية الخليفة .

ولقد ساعدت يعقوب الظروف السياسية التي كانت تمر بها الخلافة وخاصة في مواجهتها للخطر العلوي . فلقد استطاع الحسن بن ابراهيم الهرب الىٰ الحجاز واختفىٰ عن الانظار ، ويتفق المؤرخون بأن هرب الحسن وثق صلة الخليفة بيعقوب لأنه كان مضطراً الىٰ الاستعانة بخبرة يعقوب وصلته بالعلويين في سبيل مراقبة العلويين ومعرفة تحركاتهم . يقول الجهشياري[12] «فاحتيل له [للحسن] في الهرب من يده لأن جماعة من الزيدية احتالت في هربه ... فتقدم المهدي الىٰ يعقوب بطلبه فضمن له ذلك واستأذنه في رفع النصائح اليه فأذن له فداخله بذلك السبب» . وتشير رواية اخرىٰ «اخبر المهدي يعقوب بما حدث من امر الحسن فأخبره يعقوب انه لا علم له بمكانه وانه ان اعطاه اماناً يثق به ضمن له أن يأتيه به علىٰ ان يتم له علىٰ امانة ويصله ويحسن اليه فأعطاه المهدي ذلك في مجلسه وضمنه»[13] .

لقد حاول الخليفة المهدي ان يتبع في بداية حكمه سياسة التوفيق واللين

وخطة المسالمة والمهادنة مع العلويين من أجل كسبهم الى تأييد الدولة العباسية وكان اصطناعه يعقوب موافقاً لهذه السياسة الجديدة . عن علي بن محمد النوفلي[١٤] ، ان المهدي قال «لو وجدت رجلاً من الزيدية له معرفة بآل حسن وبعيسى إبن زيد وله فقه فاجتلبه الي على طريق الفقه فيدخل بيني وبين آل حسن وعيسى بن زيد فدل على يعقوب فأتى به فأدخل عليه» ثم تقول رواية ثانية «تقدم المهدي الى يعقوب بطلب من الحسن فضمن له ذلك[١٥] . ولقد كانت هذه الخطوة الاولى حيث اعقبتها خطوات خاصة وان يعقوب السياسي المداهن كان قد وطد صلته بقاضي بغداد ابن علاثة وبكاتب الخليفة ووزيره ابي عبدالله معاوية الاشعري فلقد انتهز يعقوب فرصة لقائه بالخليفة فاقترح عليه بأن يسمح له «برفع النصائح اليه» فأذن له . وقد مهد يعقوب لذلك بطريقة دبلوماسية وأورد الاسباب الموجبة لها . «قال يعقوب يا أمير المؤمنين قد بسطت عدلك لرعيتك وانصفتهم وعممتهم بخيرك وفضلك فعظم رجاؤهم وانفسحت آمالهم وقد بقيت أشياء لو ذكرتها لك لم تدع النظر فيها بمثل ما فعلت في غيرها وأشياء مع ذلك خلف بابك يعمل بها لا تعلمها فإن جعلت لي السبيل الى الدخول عليك واذنت لي في رفعها اليك فعلت[١٦] . وأصبح يعقوب يدخل البلاط اي وقت شاء .

جنّد يعقوب كل ما لديه من حنكة سياسية وقابلية ادارية وشخصية جذابة في خدمة الخليفة بحيث اصبح الاخير لا يستغني عنه في المشورة وتدبير الامور . فكان يشير «في أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزاب وفكاك الاسرى والمحتسبين والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين»[١٧] وتؤيد ذلك رواية اخرى حيث تسير بأن يعقوب «غلب على أمر المهدي كله»[١٨] .

ولا يخفى على الباحث المتمعن بأن هدف الخليفة وراء اصطناع يعقوب كان اعمق من حاجته الى خبرة يعقوب الادارية والاستشارية الا وهو تأمين جانب العلويين وحل النزاع الهاشمي بطريقة سلمية تضمن للخلافة العباسية البقاء ، ومن أجل ذلك ابتدع الخليفة طريقة مبتكرة لتوثيق الصلة بيعقوب ومن ورائه

العلويـين الا وهي اتخاذه «اخـاً في الله» ووزيراً وأسبـغ عليه مبلغ ١٠٠,٠٠٠ درهم[١٩]. وربما كان ذلك على رواية الطبري سنة ١٥٩هـ وذلك لأن المهدي «رجا ان ينال بيعقوب من الظفر بالحسن بن ابراهيم واتخذه اخاً في الله واخرج بذلك توقيعاً واثبت ذلك في الدواوين[٢٠]، وقد حقق يعقوب رجاء الخليفة بعد سنة واحـدة في موسم الحج سنة ١٦٠هـ/ سنة ٧٧٧م حيث احضر الحسن بن ابراهيم واخذ له اماناً وأعطاه الخليفة كذلك الكثير من المال والضياع .

استيزار يعقوب بن داود :

تتباين الروايات التاريخية في تعيين الوقت الذي حصل فيه يعقوب على لقب «الاخ في الله» وعلى لقب «الوزير» فرواية الطبري ، الآنفة الذكر انه حصل على اللقب الاول قبل اللقب الثاني بسنوات وانه كان له مغزاه السياسي . اما الجهشياري فيقول «وتمالأ يعقوب والربيع على ابي عبيد الله فجعلت حال يعقوب تزيد وحال ابي عبيد الله تنقص الى ان سمى المهدي يعقوب اخاً في الله ووزيراً واخرج بذلك توقيعات تثبت ذلك في الدواوين[٢١]. اما المسعودي[٢٢] فيكتفي بالقول بأن المهدي «اختص يعقوب .. وخرج كتابه الى الدواوين ان امير المؤمنين قد آخاه» . ولعل رواية الطبري هي الاصح والاكثر قبولاً . اما المؤرخون المتأخرون[٢٣] فلا يحددون تاريخاً في اغلب الاحيان وربما اختصروا الرواية وحذفوا منها الشيء الكثير .

وقد ناقش المؤرخون المحدثون لقب «الاخاء في الله» فلاحظ الدوري[٢٤] بأنه «تشير الى ثقة بعيدة واعتماد كلي» واهمل الدكتور حسن ابراهيم حسن هذا اللقب فلم يشرْ اليه في كلامه عن يعقوب[٢٥] . والغريب ان شخصية يعقوب بن داود لم تحضَ باهتمام الاستاذ شبلي في كلامه عن الوزراء العباسيين[٢٦] .

اما المستشرق سورديل فيرى انه من الطبيعي ان يسبق تعيين عدو قديم للدولة في منصب رفيع كمنصب الوزارة اصدار عفو كامل عنه ولذلك اعلن الخليفة انه «اخاً في الله» مشيراً الى قلب صفحة جديدة بإزالة كل آثار العداوة السابقة . اي ان الاخاء خطوة ضرورية تسبق منحه لقب الوزير وتزيل ترسبات العداء الماضي .

ويبدي كوشير دهشته من تصرف الخليفة هذا تجاه شخصية من الشخصيات السياسية ويقارنها بتصرف هارون الرشيد تجاه البرامكة الا انه يعترف بأن علاقة المهدي كانت اوثق وأنها أعطت يعقوب مكانه اقوىٰ . اما كويتين فيقرنها بالآية القرآنية «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به ازري واشركه في امري»[٢٧] . اما حسن الباشا فيقول عن هذا اللقب «بأنه نعت خاص لقب به المهدي وزيره يعقوب وذلك جرياً علىٰ عادة تلقيب الوزراء بنعوت شخصية في العصر العباسي وهو مقتبس من الآية القرآنية [انما المؤمنون اخوة]»[٢٨] .

ولعلنا ندرك اهمية اللقب اذا استعنا بالوقائع التاريخية ورجعنا الىٰ الوراء قليلاً لنبحث في تاريخ صدر الاسلام . فلقد آخىٰ الرسول (ص) بينه وبين علي بن ابي طالب قبل الهجرة وكذلك في المدينة . كما آخىٰ الرسول (ص) بين المهاجرين والانصار في المدينة المنورة[٢٩] . ولقد كان تلقيب الخليفة يعقوب بهذا اللقب اشارة ودية ذات مفهوم سياسي موجه نحو العلويين بل ان هذا الاجراء كان من أكثر الاجراءات السياسية التي اتخذها المهدي في مجال التقارب العلوي ـ العباسي . وبمعنىٰ آخر فإن الخليفة لمح للعلويين واتباعهم بصورة غير مباشرة الىٰ استعداده للذهاب الىٰ ابعد الحدود في التسامح معهم وانه يتودد الىٰ اولئك الذين يودون نسيان الماضي واظهار الولاء للدولة العباسية .

وفي الوقت الذي كانت هذه الاجراءات تتفق مع سياسة المهدي في الفترة الاولىٰ من حكمه فإنها في نفس الوقت عبدت الطريق امام يعقوب بن داود لكي يتقلد منصب الوزارة .

اما ما يتعلق باستيزار يعقوب فتتفق الروايات التاريخية علىٰ انه اول شخصية سياسية عباسية اتخذت رسميا لقب «وزير» . يقول الجهشياري[٣٠] «سمىٰ المهدي يعقوب أخاً في الله وزيراً» . ويبين الطبري «ولم يزل امر يعقوب يرتفع عند المهدي ويعلو حتىٰ استوزره وفوض اليه أمر الخلافة» . ويشير ابن طباطبا «استحضر المهدي يعقوب وخاطبه فرأىٰ انه اكمل الناس عقلاً فشغف به

واستخلصه لنفسه ثم استوزره وفوّض الامور اليه» . ثم يستمـر فيقول «قـرب المهدي يعقوب وادناه فصار يعرض عليه من المصالح والنصائح ما لم يكن يعرض عليه من قبل فاستخلصه وكتب كتاباً بأنه اخوه في الله تعالىٰ واستوزره وفوض اليه الامور كلها وسلم اليه الدواوين وقدمه علىٰ جميع الناس[٣١]. ويلاحظ ابن الاثير وابن خلكان والخطيب البغدادي والمقريزي نفس الملاحظة في أن اسْتيزار يعقوب كان استيزار تفويض وانه صدر فيه مرسوم رسمي[٣٢].

وبالنسبة للمؤرخين المحدثين فقد لاحظ كوتين اتفـاق المصادر التـاريخية والادبية بصورة لا تقبل الشك علىٰ اتخاذ يعقوب لقب الوزارة رسمياً ، ويرجع كوتين اهمال بعض الروايات لذكر كلمة وزير مع اسم يعقوب الىٰ تأثـير بعض المفاهيم المتأخرة التي أكدت علىٰ ذكر «الأخ في الله» دون «الوزير»[٣٣]. ولكن سورديل لا يقتنع كلياً بتفسير كوتين ولذلك فهو لا يعلق كبير أهمية علىٰ لقب «الوزير» ويقول بأن يعقوب حصل على هذا اللقب كما حصل عليه من سبقه ولكن شخصيـة يعقوب الجذابة ومنحه لقب «الاخ في الله» هي التي اضفت ضوءا خاصا علىٰ وزارة يعقوب بن داود هذه[٣٤]. اما كوشير[٣٥] فيلاحظ بأن نفوذ يعقوب بن داود بدأ بالنحو منذ سنة ١٦١هـ/سنة ٧٧٨م حيث استطاع ان يحل محل ابي عبيدالله معاوية ويصبح الرجل بعد الخليفة . ولم يكن منح المهدي لقب وزير له إلا تأكيداً رسمياً لما كان قد وقع فعلا منذ فترة ليست بالقصيرة . ويتفق موسكتي[٣٦] وسورديل في الراي مع كوشير في هذا الشأن . ويؤيد الدكتـور الدوري والدكتور حسن ابـراهيم حسن والمدور ومحمد برانق وأحمد أمين ان الخليفة استوزر يعقوب وأعلن ذلك رسمياً علىٰ اقاليم الدولة وانه فوض اليه امور الدولة[٣٧].

اما الاساليب التي دعت المهدي الىٰ استيزار يعقـوب فترد فيهـا روايات عديدة :

(١) «زعم الناس ان [يعقوب بن داود] وعد [المهدي] الدخول بينه وبين [عيسىٰ بن زيد] وكان يعقوب ينتفي من ذلك الا ان الناس قد رموه بأن منزلته عند المهدي

انما كانت للعباسية بآل علي ولم يزل امره يرتفع عند المهدي ويعلو حتىٰ استوزره وفوض اليه أمر الخلافة»[38]. ولكن الظاهر ان الطبري صاحب الرواية غير متأكد من روايته هذه علىٰ ان الاصفهاني[39] يشير الىٰ اتصال المهدي بعيسىٰ بن زيد الحسيني ـ ربما عن طريق يعقوب ـ وأمنه ولكن عيسىٰ لم يثق بوعود الخليفة وبقي متوارياً عن الانظار.

(٢) ان هرب الحسن بن ابراهيم الحسني من السجن كان البداية لتوثيق العلاقة بين الخليفة ويعقوب. «فتقدم المهدي الىٰ يعقوب بطلبه [الحسن] فضمن له ذلك واستأذنه في رفع النصائح اليه فأذن له ...»[40] وفي رواية ثانية «فحظي [يعقوب] بذلك عند [المهدي] ومما رجا ان ينال به من الظفر بالحسن ... فلم تزل منزلته تنمو وتعلو صعداً الى ان صير الحسن في يد المهدي بعد ذلك» وفي رواية ثالثة «ومما حظي به يعقوب عند المهدي انه استأمنه للحسن بن ابراهيم ودخل بينه وبينه حتىٰ جمع بينهما بمكة»[41].

(٣) تتفق روايات[42] الجهشياري والطبري وابن طباطبا علىٰ ان استيزار يعقوب تم بمؤامرة دبرها الربيع بن يونس بالاتفاق مع يعقوب علىٰ اقصاء ابي عبيدالله معاوية بن يسار وزير المهدي. فلقد وثق يعقوب صلته بابن علاثة ثم دخل البلاط بمساعدة ابي عبيدالله نفسه الا ان ازدياد نفوذه ازعج ابا عبيدالله. وكان بين الربيع وأبي عبيدالله حسد وكراهية فاتفق الربيع ويعقوب علىٰ ازالة سلطان الوزير. تقول الرواية «فتثاقل ابو عبيدالله وادلَّ وتمالا يعقوب والربيع على ابي عبيدالله فجعلت حال يعقوب تزيد وحال ابي عبيدالله تنقص». وفي ذلك يقول الشاعر علي بن الخليل[43]:

عجباً لتصريف الامو	ر مرّة وكراهيه
والدهر يلعب بالرجا	ل له دوائر جاريه
رَثت بيعقوب بن دا	ود حبال معاويه
وعدت على ابن علاثة	القاضي بوائق عافيه

قل للوزير ابي عبيد	الله هل لك باقيه
يعقوب ينظر في الامو	ر وانت تنظر ناصيه
ادخلته فعلاً عليك	كذاك شؤم الناصيه

وفي هذ ينطبق قول ابن طباطبا في وصفه الدولة العباسية حيث يقول انها كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر.

(٤) كان لموالي الخليفة تأثير كبير على المهدي وقد حسدوا ابا عبيدالله لسلطته ونفوذه فأخذوا «يشنعون عليه عند المهدي ويسعون عليه عنده» فأزالوا سلطته واستطاع يعقوب ان يحل محله بمساعدة الربيع مولى الخليفة.

وتضيف بعض الروايات ان يعقوب بن داود وعد الربيع بمبلغ كبير جائزة له ان هو استطاع ان يقنع الخليفةباستيزاره «فأثنى عليه الربيع لدى المهدي فاستحضره... فقربه وادناه... واستخصه واستوزره وفوض اليه الامور كلها وسلم اليه الدواوين وقدمه على جميع الناس[٤٤]».

(٥) وقد خبر يعقوب طبع الخليفة وخاصة اسرافه وميله للتبذير والترف تلك الصفات التي كانت سبباً الى سوء علاقته بأبي عبيدالله «فزين [للمهدي] هواه فأنفق المال وانكبَّ على اللذات والشرب وسماع الغناء» وبهذا واستطاع ان يجذب المهدي نحوه ويكسب مودته له فعينه وزيراً[٤٥].

من هذا نلاحظ بأن الروايات التي تتعلق باستيزار يعقوب متداخلة الا انها ربما كانت متكاملة[٤٦] اي ان الخليفة اختار يعقوب لأسباب عديدة. فالمعروف ان عصر المهدي كان فترة هدوء سياسي واستقرار بعد الثورات العنيفة التي كادت ان تعصف بكيان العباسيين في عهد الخليفة المؤسس المنصور. وقد حاول الخليفة الجديد ان يبرهن بأنه «المهديُّ»[٤٧] حقاً فاتخذ اجراءات من شأنها ان تخفف العبء عن الرعية وتزيل الشدة التي لحقت بهم ايام المنصور. فأطلق السجناء وأعاد الاموال والضياع المصادرة وعمَّر الحرمين ومنح بسخاءلأهل الحجاز واصطنعهم وطارد اهل الكفر والزندقة، وأظهر انه مستعد للتسامح والتراضي مع

العلويين وكان تودده الى يعقوب بن داود خطوة ايجابية في هذا المجال .

هذا من جهة ومن جهة اخرىٰ لم تكن شخصية المهدي في قوتها كشخصية ابيه المنصور، فقد كان المهدي سريع التأثر بأقوال مواليه وصحابته ، يفتقر الىٰ القابلية الادارية ، يميل الىٰ البذخ والاسراف وحياة اللهو بسبب البيئة المترفة التي عاش فيها . وكان ابوه المنصور يدرك ذلك فحذره من الاسراف والاهمال وترك الامور بيد الكتّاب ، وأمر يحيىٰ بن خالد البرمكي وابا عبيدالله معاوية ان يصاحبا المهدي ويساعداه بالعمل والمشورة . ولكن المهدي وقع خلال مدة حكمه (١٥٨/ ٧٧٥ ـ ١٦٩/ ٧٨٥) تحت تأثير الربيع بن يونس كما وانه أسرف في البذخ حتىٰ انفق كل ما ادخره له ابوه من مال ويقدره الجهشياري بـ ٩٦٠ مليون درهم[٤٨] .

من هذا المنطلق ـ وبعد هذا العرض السريع لصفات المهدي كخليفة ـ نستطيع ان نستنتج بأن اختياره ليعقوب كان لأسباب منها شخصية ومنها سياسية . فالمهدي كان بحاجة الىٰ وزير له صفات يعقوب بن داود وخصائصه الشخصية بحيث يستطيع ان يخلصه من اعباء السياسة والادارة ويأخذ علىٰ عاتقه حتىٰ يتاح له المجال ليعيش حياةً بعيدة عن محن السياسة وتكاليف الادارة . كما وان سياسة الترضية والتوفيق تجاه العلويين لم تكن لتجد منفذا لها احسن من يعقوب . وبعبارة اخرىٰ فان المهدي وجد في شخصية يعقوب الجذابة اللبقة الكثيرة التجارب والكفوءة ، اضافة الىٰ ماضيه كنصير للعلويين خير معين له على تحقيق اهدافه .

ويظهر ذكاء يعقوب بن داود السياسي في حشده كافة قابلياته الشخصية واستغلاله ماضيه في سبيل الوصول الىٰ الخليفة . وحين خطا يعقوب الخطوة الاولىٰ بمساعدة ابن علاثة القاضي وابي عبيدالله معاوية أحسن التصرف في حضرة المهدي فأثر فيه بحيث اقتنع الاخير بأنه الشخص الذي كان يبحث عنه .

ولا ينكر ان كسب يعقوب للربيع ومن ورائه كتلة الموالي كان خطوة كبيرة في

سبيل الوصول الى الوزارة وازاحة ابي عبيدالله لما كان من التنافس والحسد بين هذه الكتل في البلاط العباسي .

وقد خلد الشاعر سلم الخاسر تنصيب يعقوب وزيراً بقوله[49] :

قل للامام الذي جاءت خلافته	تهدي اليه بحق غير مردود
نعم المعين على التقوى اعنت به	اخوك في الله يعقوب بن داود

سلطة يعقوب بن داود :

لقد بدأ نفوذ يعقوب في البلاط منذ سنة ١٦١هـ/سنة ٧٧٧م الا انه حل محل ابي عبيدالله معاوية سنة ١٦٣هـ/ سنة ٧٧٩م وتقلد سلطات واسعة في الدولة لعدة سنوات اي حتى سنة ١٦٦هـ/ سنة ٧٨٢م . وقد كان تأثيره كبيراً مما دعا الشاعر بشار بن برد الى القول :

بني امية هبوا طال نومكم	ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا	خليفة الله بين الزقّ والعود[50]

وتختلف المصادر في توضيحها صلاحيات يعقوب فيقول الجهشياري[51] «غلب يعقوب على امر [المهدي] كله ووزارته» ويؤكد «وتفرد يعقوب بتدبير الامور كلها» . ويذكر علي بن محمد النوفلي ان الخليفة فوّض الى يعقوب أمر الخلافة[52] .

وقد عين يعقوب اقرباءه وانصاره من الزيدية في مناصب الدولة المهمة . يقول الجهشياري «ولما استقام أمر يعقوب ارسل الى الزيدية جميعاً فأتى بهم من كل ناحية فولاهم امور الخلافة في الشرق والغرب وكان هذا مما عتب به عليه» . ويذكر الطبري «انه ولى الزيدية من امور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه»[53] . كما وانه كان يشير على الخليفة بتعيين الولاة . وأرسل بأمر من المهدي (الأمناء) الى اقاليم الدولة وامصارها المختلفة فكان لا ينفذ أمراً دون استشارة الامير او الوالي لهم . وكان هؤلاء الأمناء على صلة بيعقوب في بغداد[54] . ويظهر كذلك من الرواية ان يعقوب كان يتولى ادارة امور الجيش والادارة المالية ، يقول يعقوب للمهدي «والله اني لا تفزع ـ في النوم وليتني امور

المسلمين واعطاء الجند»[٥٥].

علىٰ اننا لا نستطيع في حقيقة الامر ان نجد صلاحيات يعقوب بن داود علىٰ وجه الدقة، ولكن الذي يزيد من أهمية سلطة يعقوب هو اصدار الخليفة توقيعاً رسمياً بذلك وتعميمه علىٰ كافة الاقاليم[٥٦]. ويبالغ المستشرق ويل[٥٧] حين يقول بأن يعقوب كان يدير الشؤون الحربية وشؤون القضاء والادارة العامة. ولعلنا نكون أقرب الىٰ الصواب اذا قلنا بأن شخصية الوزير وعلاقته بالخليفة هي التي تحدد صلاحياته ونطاق مسؤولياته.

وقد استغل بعض اقرباء يعقوب مركزه فأصبح أخوه صالح والياً علىٰ البصرة وهو الذي هجاه بشار بن برد[٥٨]:

همُ حملوا فوق المنابـر صالحـاً ... اخاك فضجّت من اخيـك المنابـر[٥٩]

أسباب نكبته:

لم تدم وزارة يعقوب بن داود طويلاً فقد كانت كسابقتها ذات أجل قصير حيث حظي بالوزارة مدة اربع سنوات فقط من ١٦٣ه ـ ١٦٦هـ فقد تغير الخليفة عليه فجأة وكان هذا التغير بمثابة نقطة تحول في سياسة التوفيق والترضية وخاصة تجاه العلويين.

تذكر كتب التاريخ والتراجم روايات تاريخية عديدة عن أسباب نكبة يعقوب بن داود ولعل الملاحظ الدقيق يدرك بأن بعض هذه الاسباب التي أدت الى نكبته هي نفسها ساعدت في حينه علىٰ ارتفاع مكانته وعلو شأنه.

(أ) فشل يعقوب في تحقيق الوعد الذي قطعه علىٰ نفسه وذلك بتجميد حركة المعارضة العلوية عن طريق اقناع الحسن بن ابراهيم وعيسىٰ بن زيد بالاعتراف بالسلطة العباسية. يقول الطبري «ولما علم آل الحسن بن علي بصنعه [يعقوب] استوحشوا منه وعلم يعقوب انه ان كانت لهم دولة لم يعش فيها ....»[٦٠]. والظاهر ان يعقوب فشل فشلاً فيما يخص عيسىٰ بن زيد علىٰ الرغم من الحاح المهدي حيث أهمل يعقوب أمر عيسىٰ وتغافل عن التحري

عنه . ويروي الاصفهاني[٦١] ان المهدي قرأشعراً لعيسىٰ بن زيد يشكو فيه القلق وعدم الاستقرار فأعطاه الأمـان ان خرج ولكن يعقـوب الذي شهد الحادثة تغافل عن الامر واظهر انه لا يعرف قائل الابيات .

(ب) لقد حسد «الموالي» نفوذ يعقوب ومنزلته لدىٰ الخليفة فاستطاعوا ان يغيروا وجهة نظر الخليفة عليه . يقـول الطبري «فحسـده موالي المهـدي فسعوا عليه»[٦٢] وتذكر رواية ثانية «وكثرت الاقوال في يعقوب ووجد اعداؤه مقالاً فيه ... وذكروا للمهدي خروجه على المنصور»[٦٣] . والمعروف ان للموالي تأثيراً علىٰ الخليفة لدرجة ان عمه عبدالصمد بن علي حذره من ذلك قائلاً «يا امير المؤمنين انّا أهل بيت قد أشرب قلوبنا حب موالينا وتفويقهم وانك قد صنعت من ذلك ما أفرطت فيه قد وليتهم امورك كلها وخصصتهم في ليلك ونهارك ولا من من تغير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان»[٦٤] . وكان اعداء يعقوب يقصدون عمداً إظهار عيوبه . فأن مرض يعقوب هيأ الفرصة لأعدائه بتأليب المهدي عليه «فلما فقد وجهه تمكن السعاة من المهدي فلم تأت عليه عاشرة حتىٰ أظهر السخط عليه»[٦٥] وقد استعمل الشعراء في ذلك أيضاً :

لله درّك يـا مهدي من رجـل لولا اتّخـاذك يعقـوب بن داود[٦٦]

(ج) وصل يعقوب الىٰ السلطة بأن زين للخليفة الاسراف والبذخ الا انه كما يظهر اضطر الىٰ انتقاد بعض تصرفات المهدي علانيـة مثل الاسـراف وحضور بعض مجالس الشراب وانفاق ٥٠ مليون درهم من بيت مال المسلمين علىٰ بناء متنزه وما انفقه علىٰ مدينة عيساباذ[٦٧] . فيذكر ابن خلكان ان ابراهيم الموصلي المغني «ان المهدي كان اول خليفة سمعه ولم يكن في زمانه مثله في الغناء واقتراع الالحان»[٦٨] . وحرضه بعضهم علىٰ نبذ يعقوب قائلاً :

فـدع عنكإبن داود جـانبـاً واقبـل علىٰ صهبـاء طيبة النشر[٦٩]

وتروي بعض الروايات ان يعقوب طلب من الخليفة اعفاءه من منصبه قائلاً «ليس على هذا استوزرتني ولا علىٰ هذا صحبتك أبعد الصلوات الخمس

في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ وتسمع السماع»[٧٠].

(د) وتعزو رواية اخرىٰ متواترة[٧١] ان سبب نكبة يعقوب تعود الىٰ اطلاقه سراح احد العلويين الذين أمره الخليفة بقتلهم. وقد استطاع الخليفة القبض علىٰ العلوي الهارب وأحضره امام يعقوب الذي لم يستطع الكلام اطلاقاً ولا ببنت شفة.

يقول المسعودي[٧٢] «فاتهم المهدي [يعقوب] بشيء من أمور الطالبيين فهم بقتله ثم حبسه» ويذكر ابن طباطبا «حدَّث يعقوب بن داود ان سبب نكبته ان المهدي أمره ان يكفيه رجلاً علوياً لانه خائف ان يخرج عليه فأخذته وأطلقته وأعطيته مالاً وأخبرت احدىٰ الجواري المهدي بذلك»[٧٣].

(هـ) وهناك رواية[٧٤] ينفرد بها الطبري عن علي بن محمد النوفلي وفحواها ان سبب نكبة يعقوب هو اتصاله بإسحق بن الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن الربيع بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم. وكان اسحق الهاشمي صديقاً ليعقوب منذ كانا في السجن سوية ايام المنصور وكان اسحق يعتقد «بأن الخلافة قد تجوز في صالح بني هاشم جميعاً فكان يقول كانت الامامة بعد رسول الله (ص) لا تصلح الا في بني هاشم وهي في هذا الدهر لا تصلح الا فيهم وكان يكثر في قوله للاكبر من بني عبد المطلب وكان هو ويعقوب يتجاريان ذلك».

وقد اقترح يعقوب على المهدي تعيين اسحق ولاية مصر لاضطراب الامور فيها ولكن المهدي تغافل عن ذلك كما وصل الىٰ سمع الخليفة ان يعقوب يمهد الامور للقيام بثورة باسم اسحق الهاشمي. «وأقبلت السعايات ترد علىٰ المهدي حتىٰ قيل ان المشرق والمغرب في يد يعقوب واصحابه وقد كاتبهم وانما يكفيه ان يكتب اليهم فيثوروا في يوم واحد علىٰ ميعاد فيأخذوا الدنيا لاسحق بن الفضل فكان ذلك قد ملأ قلب المهدي عليه». وقد استجوب الخليفة يعقوب قائلاً «ألم تخبرني بأن هذا [اسحق] وأهل بيته يزعمون انهم

احق بالخلافة منا أهل البيت وان لهم الكبر علينا» فأنكر يعقوب ذلك، كما انكر اسحق ذلك ايضاً وأكد بأن ليس هذا من شأنه «وكيف اقول هذا يا أمير المؤمنين وقد مات جدي في الجاهلية وابوك الباقي بعد رسول الله (ص) ووراءه».

وفي رأينا فإن الروايات التي ترجع أسباب نكبة يعقوب لعوامل سياسية هي الراجحة ويجدر اخذها بنظر الاعتبار والتمعن فيها. فالخليفة صمم على التخلص من يعقوب بعد ان اقتنع بأن الاخير يشكل خطراً على أمن الدولة وسلامتها بسبب فعاليته السياسية المريبة. فلقد فشل يعقوب في الوصول بسياسة الترضية مع العلويين الى نتيجة ناجحة ذلك لأن العلويين شكوا في نواياه واستهجنوا تقلب ميوله السياسية وظل عيسى بن زيد مستتراً عند علي بن صالح بن يحيى حتى وفاته. كما وان هذا الفشل أقنع المهدي بعدم جدوى امكانية التوفيق وبعقم سياسة اللين والمهادنة وجدد شكوكه القديمة في ميول يعقوب العلوية.

وحين أصبح يعقوب بن داود بين المطرقة والسندان اي بعد ان فقد ثقة العلويين وخيب آمال المهدي اندفع ليجد له طريقاً آخر فتقرب الى اسحق بن الفضل الهاشمي الذي كان يمني نفسه بالخلافة فشعر الخليفة بالخطر، ولعب اعداء يعقوب دوراً في تهويل هذا الخطر لدى الخليفة. وربما حاول يعقوب، في محاولة أخيرة منه لابعاد بعض الموالي عن البلاط وتخليص الخليفة من تأثيرهم ومؤمراتهم، ان يحذر المهدي من الاسراف والبذخ في مجالس الغناء والشراب ولكن ذلك زاد من توسيع الخلاف بينه وبين الخليفة.

على ان الرواية في الفقرة (هـ) الآنفة الذكر تسند الى علي بن محمد النوفلي وهو ثقة عند الطبري كما وان نص الرواية متكامل ويشرح العلاقة بين يعقوب واسحق الهاشمي بصورة مقنعة وانهما بحثا ـ على اقل تقدير ـ في أحقية الاخير للخلافة. ويؤكد المسعودي[٧٥] ذلك فيقول بأن وجهة نظر يعقوب في الامامة انها يجب ان تكون في الفرع الاكبر من نسل العباس وان عدداً من اعمام المهدي كانوا

احق بالخلافة من المهدي نفسه . ان قلة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا لا تساعدنا على معرفة المدى الذي عمل فيه الطرفان على تحقيق فكرة نقل الخلافة الى اسحق وهل وضعت الخطط العملية لتنفيذها ، ام ان ما تذكره الروايات عن اعداد ثورة باسم اسحق كانت مجرد اشاعات بثها حساد يعقوب وتناقلها الناس .

اما الرواية في الفقرة (د) فمصدرها علي بن يعقوب بن داود نفسه وهي تدعو الى الحذر من حيث الاسناد كما وان النقد الباطني (الداخلي) لنص الرواية يظهر بأن فيها الكثير من الحشو والخيال والتزويق اللفظي في وصف مجلس الخليفة والظروف التي أحيط بها الحديث بين الخليفة والوزير . على ان الجهشياري[٧٦] يؤيد هذه الرواية كما يؤكها الخطيب البغدادي وابن الاثير وابن خلكان . ولذلك فأغلب الظن انها صحيحة في مفهومها العام ولكن الرواة او علي بن يعقوب نفسه اضاف اليها كثيرا من الرتوش اللفظية لتؤثر في نفسية القارىء وتستجلب عطفه على يعقوب . والواضح من هذه الرواية ان الازمة بين الخليفة والوزير كانت «ازمة ثقة» ليس الا . ولم يكن هناك اقوى من تهمة الولاء للعلويين لو محاولة نقل السلطة لأحد الهاشميين. وبعد أفليس من حق الخليفة ان يشك في يعقوب حين يساعد هذا الاخير احد العلويين ـ بغض النظر عن الدوافع التي دعته الى ذلك ـ على الفرار والاختفاء[٧٧] .

على ان الباحث يحار في تفسير التصرف الذي سلكه يعقوب تجاه العلوي وعصيانه اوامر الخليفة ولعل تصرفه هذا يوضح سلوكه في الفترة الاخيرة من وزارته حين توسعت الهوة وازداد الجفاء بينه وبين الخليفة . وقد يرجع هذا التصرف ـ كما يقول كوشر[٧٨] ـ لأسباب دينية بحتة فإن يعقوب الذي عرف بتدينه الشديد خاف من عاقبة قتل او اضطهاد شخص علوي من بيت الرسول (ص) .

اما ما ذكر في الفقرة (حـ) من روايات فلعل في بعضها وصفاً قريباً من الصحة لما كان يحدث في البلاط العباسي الا اننا يجب أن نحذر من الروايات التي تبالغ في استهتار المهدي في مجالسه وتشيد بموقف يعقوب الصلب وبتقواه وتدينه ،

او بمحاولته أكثر من مرة التخلص من مسؤولية الوزارة . واغلب الظن ان هذه الروايات او جزءاً منها موضوع من قبل انصار يعقوب او من قبل العلويين وخاصة بعد نكبة يعقوب[٧٩] .

ولعلنا نستطيع ان نستنتج بأن سقوط وزارة يعقوب بن داود ترجـع الى عوامل متداخلة هي في مجموعها ذات طابع سياسي حيث فشل في سياسة الترضية العلوية واهملها بعد تسلمه الوزارة وتقرب الى اسحق بن الفضل الهاشمي واطلق سراح العلوي السجين . الا ان أهمها أثراً هي السلطة الاستثنائية الواسعة التي تمتع بها يعقوب حتى ان الخليفة أحس بتأثيرها فتحرك ليحرر نفسه من هـذا النفوذ الذي بدأ يهدده بالذات . وهكذا فقد الخليفة بأن وزيره قد أصبح ذا نفوذ خطر يهدد كيان الخلافة العباسية فعمل في الحال على اقصائه .

نهاية الوزير:

لقد أمر الخليفة بسجن يعقوب في سجن (المطبق) . وطرد كافة العمال والولاة الذين عينهم فاختفوا وتشردوا . كما وسجن الكثير من اقربائه وأهل بيته[٨٠] .

وبالرغم من ان التهمة التي اتهم بها يعقوب كانت تمس أمن الدولة وسلامتها الا ان الخليفة لم يأمر بقتله ولعل ذلك يعود الى حصوله على لقب «الاخ في الله» ذلك اللقب الذي صانه من عقوبة الموت . يقول التنوخي ان يعقوب بن داود لما حضر عند المهدي ذكر بما كان قد منحه من عهد الله وميثاقه وذمة رسوله وما كان قد تعهد له بعدم سجنه او ضربه او قتله[٨١] . ولقد ظل هذا الامان يشفع ليعقوب ، أمر الخليفة الهادي (١٦٩هـ/٧٨٥م - ١٧٠هـ/٧٨٦م) بضربه ١٠٠ سوط ولما علم بنبأ احتمال موته بعد الضرب فزع أشد الفزع خوفاً مما يقوله الناس بعد الامان الذي كان قد اعطاه اياه المهدي[٨٢] .

على ان هذه الحادثة الاخيرة قد تظهر مدى تعلق بعض الناس به ، وفي الواقع رثاه بعض الشعراء وأظهروا فضائله الحميدة وتشير بعض الروايات التاريخية الى ان يعقوب لم يكن مجرد شخص سياسي طموح متعطش للسلطة لا يدخر سبيلاً من

أجل الوصول الىٰ الحكم بل كان لشخصيته الجذابة التي سخرت الخليفة مدة من الزمن جوانب أخرىٰ منها قابليته الفذة وذكاؤه وثقافته الواسعة وشاعريته . وقد قال عنه ابو الشيص الخزاعي الشاعر :

ابلغ امام الهدىٰ ان لست مصطنعاً للنائبات كيعقوب بن داود
لو تبتغي مثله في الناس كلهم طلبت ما ليسَ في الدنيا بموجود

ورثاه الشاعر ابو حَنَش :

يعقوب لا تبعد وَجنبتَ الردىٰ فلأبكين زمانك الرطب الثرىٰ
وارىٰ رجالاً ينهشونك بعدما اغنيتهم من فاقةٍ كل الغنىٰ
لو ان خيرك كان شرّاً كله عند الذين عدوا عليك لما عدا[83]

وقد سجن يعقوب سنة ١٦٦هـ في عهد المهدي ولم يقدَّر له ان يخرج من السجن الا في عهد الرشيد[84] . ولكن الروايات تختلف في السنة التي اطلق فيها سراحه فبالنسبة للجهشياري سنة ١٧٥هـ/ سنة ٧٩١م وبالنسبة للخطيب البغدادي سنة ١٨١هـ[85]/ سنة ٧٩٧م . وقد اختار المقام في مكة حيث بقي فيها حتىٰ توفي سنة ١٨٧هـ/ سنة ٨٠٢م[86] .

وبهذا انتهت حياة رجل سياسي من الطراز الاول يعتبر سلوكه بمثابة مرآة تعكس بصدق السياسة ومتطلباتها في العصر العباسي الاول .

هوامش الفصل الخامس

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ابن خلكان ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ١٥٧ ، ص ١٨١ . الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، طبعة ليدن ، III ، ص ٥٠٩ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج١ ، ص ٢٥٤ . اليعقوبي ، تاريخ ، الطبري ـ تاريخ ، ج٢ ، ٤٨٢ فما بعد جهشياري ، الوزراء ، من ١٥٥ـ١٦٣ . الطبري ـ تاريخ ، III ص ٤٦١ فما بعد (انظر الفهرست) . المسعودي مروج ج٦ ص ٢٣٢ ، تنبيه ، ص٣٤٣ . للاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ص ٤٤١ ـ ٤١٢ ، الاغاني ج٩ ، ص ٤٥ (انظر الفهرست) . التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج١ ص ١٤١ . الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ، ج١٤ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٢٤ فما بعد (انظر الفهرست) . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج٤ ص ١٩ ـ ٢٥ النسخة

الانكليزية ج٤، ص ٤٥٢ فما بعد) . خيرالدين الزركلي . الاعلام ، (مادة يعقوب بن داود) .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، ص ٤١٦ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، III ، ص ٥٠٦ . ويؤيد ذلك الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٨٠ ، ابن خلكان ، وفيات ، (الانكليزية) ج٤ ، ص ٣٥٢ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٤٦ . ابن خلدون ، العبر ج٣ ، ص ٢١١ (١) (يعقوب بن داود) .

E. Kocher - Ya'qub. B. D a'ud.... Mitteilungen des Instituts Fur Orientforsehung. Band III, 1955, Berlin.

(٥) الطبري ، تاريخ ، ص ٥٠٦ .

(٦) نفس المصدر السابق .

(٧) الجهشياري المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٨) الطبري ، المصدر السابق ، ص ٥٠٧ .

(٩) الطبري ، المصدر السابق ، ص ٤٦١ .

(١٠) الجهشياري المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .

(١١) الطبري المصدر السابق ، ص ٤٦٢ . ابو عبيدالله معاوية بن عبدالله بن يسّار مولى الاشعريين ويلقب ايضا بالطبراني كان وزيراً للمهدي ومشاوراً له قبل استيزاره يعقوب بن داود . انظر (٢) (ابو عبدالله) . الجهشياري المصدر السابق ، ص ١٤٠ فما بعد . الطبري . المصدر السابق ، III ، ص ٤٦١ فما بعد .

(١٢) الجهشياري ، المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .

(١٣) الطبري ، المصدر السابق ، III ، ص ٤٦٣ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٥٠٨ . انظر كذلك البلاذري ، انساب الاشراف (مخطوطة) في استانبول . ص ٥٨١ .

(١٥) الجهشياري ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(١٦) الطبري ، المصدر السابق ، III ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ .

(١٨) الجهشياري ، ص ١٥٦ .

(١٩) الطبري ، III ، ٤٦٤ ، الجهشياري ، ص ١٥٦ . ابن خلكان ، المصدر السابق ، (الانكليزية) ج٤ ، ٣٥٢ ص ابن طبابا ، الفخري ص ١٦٦ فما بعد .

Kocher - Ya'qub, PP. 389ff

Moscati, Nuovi studi sul califatao dial - Mahdi, Orientalia, 15, 1946, PP. 164 - 167 -

Sowdel, Le Vizirat.... PP. 108ff.

(٢٠) الطبري ، III ، ص ٤٦٤ ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ فما بعد .

(٢١) الجهشياري ، ص ١٥٥ .

(٢٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٦ ص ٢٣٢ .

(٢٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٤، ص٢٦٢ ـ ٢٦٥ . ـ ابن الاثير، الكامل، ج٦ . ص٢٤ فما بعد . . ـ ابن خلكان، وفيات الاعيان ج٤، ص١٩ ـ ٢٥ . ابن طباطبا، الفخري، ص ١٦٧ ـ ١٦٩ .

(٢٤) الدكتور عبدالعزيز الدوري . النظم الاسلامية، ص ٢٢٠ .

(٢٥) الدكتور حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي، ج٢، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٢٦) احمد شلبي، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ج٣ ص ٢٤٧ فما بعد . ص ٦٣ فما بعد .

(٢٧) Sowdel, Le Vizirat.... P. 108; Kocher, Op. cit, p. 382; Goiten Op. cit, p. 382.

(٢٨) حسن الباشا، الالقاب الاسلامية، ص ١٣٥ .

(٢٩) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٣٠٤، البلاذري، انساب الاشارف، ج١، ص ٢٧٠ .

(٣٠) الجهشياري، ص ١٥٥ .

(٣١) الطبري، III ص ٥٠٨، الفخري، ص ١٦٦ .

(٣٢) الكامل، ج٦، ص ٢٦، وفيات الاعيان (الانكليزية)، ج٤، ص ٣٥٢، الطبعة العربية ج٦، ص ٢١ . تاريخ بغداد ج١٤، ص ٢٦٢ . ـ مخطوطة منتخب التذكرة، ص ١٢٨ب .

(٣٣) Goiten, op.cit, p. 382

(٣٤) Sourdel, op.ct, p.106

(٣٥) Kocher op.cit, p.388

(٣٦) Moscati, op. cit, p.165

(٣٧) الدوري، النظم الاسلامية، ص ٢٢٠ . حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج٢ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ . المدور حضارة الاسلام في دار السلام، ص٨٨ ـ ٨٩ . محمد برانق، الوزراء العباسيون، ج١، ص٤ فما بعد . انظر كذلك احمد امين، ضحى الاسلام، ج٢، ص٤٢ ـ ٤٣ .

(٣٨) الطبري، III، ص ٥٠٨ ابن الاثير، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٤ فما بعد . الفخري، ص ١٦٦ .

(٣٩) الاصفهاني، مقاتل الطالبيين (عيسى بن زيد) .
كان عيسى بن زيد قد (إشترك مع الزيدية في ثورة ابراهيم الحسني في البصرة . فلما قتل ابراهيم توارى عيسى وقيل انه خلف ابراهيم في زعامة حركة المعارضة المسلحة ضد العباسيين فطلبه المنصور دون جدوى و اوصى ابنه المهدي باستنفاذ كل الوسائل في سبيل القبض عليه .

(٤٠) الجهشياري، ص ١٥٥ . ابن خلكان، وفيات (الانكليزية)، ج٤، ص ٣٥٢ .

(٤١) الطبري، III ص ٤٦٤، ص٥٠٨ .

(٤٢) المصدر السابق، ص ٤٦٣، ٤٨٨ ـ ٤٩٠ . الجهشياري، ص ١٥١ ـ ١٥٢، ص ١٥٥ . الفخري ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٤٣) الطبري، III، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٤٨٧ . الفخري ، ص ١٦٦ .

(٤٥) الجهشياري ، ص ١٥٩ . ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٣٥٣ .

(٤٦) هذا مع وجوب الحذر من عنصر المبالغة او او الوضع في اجزاء من هذه الروايات كالرواية التي تظهر يعقوب والربيع كالراشي والمرتشي ، او الرواية التي تصور استيزار يعقوب بسبب تشجيعه الخليفة على الاسراف واللهو .

(٤٧) تقول ارجوزة في تاريخ العباسيين وضعها شمس الدين محمد الباعوني الشافعي (مخطوطة رقم ١٦١٥ في المكتبة الوطنية في باريس) :

ابـاد كـل طـافـر زنـديـق	والده وكـان سـيـفـاً مـنـتـضى
وانـتـصـب الـمـهـدي لـمـا ان مضى	وكـان مـهـديـاً عـلى الـتـحـقـيـق

(٤٨) الجهشياري ، ص ١٥٩ .

(٤٩) الاصفهاني ، الاغاني ، ج٢١ ، ص ١١٠ فما بعد . الجهشياري ، ص ١٥٥ . ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ص ٣٥٢ . الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج١٤ ، ص ٢٦٣ .

(٥٠) الاصفهاني ، الاغاني ، ج٣ ص ٧١ . ابن المعتز طبقات الشعراء ، ص ٤٠ فما بعد . الجهشياري ، ص ١٥٩ . الطبري ، III ص ٥٠٨ . ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٢١ . الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج١٤ ص ٢٦٣ .

(٥١) الجهشياري ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٥٢) الطبري ، III ، ٥٠٨ عن علي بن محمد النوفلي .

(٥٣) المصدر السابق ، Ibid انظر كذلك الجاحظ ، الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٥٤) الطبري ، III ، ٤٨٦ ، ٥٠٩ الجهشياري ، ص ١٥٦ .

(٥٥) الطبري ، III ص ٥١٤ عن محمد بن عبدالله .

(٥٦) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ ، الجهشياري ، ص ١٥٥ . الفخري ص ١٦٦ . وفيات الاعيان ، ج٤ . ص ٣٥٢ المسعودي . مروج الذهب ج٦ ، ص ٢٣٢ .

(٥٧) G. Weil, Geschichte der chalifen, stuttgart, 1866, vol. 2, p. 109

(٥٨) ان علاقة يعقوب بن داود ببشار بن برد طويلة ينتابها التعقيد والغموض لكثرة الروايات وتناقضها . وليس هنا مجال البحث في طبيعة تلك العلاقة التي انتهت بقتل بشار بن برد بتحريض من يعقوب بن داود . وفي الواقع هناك روايتان رئيستان في مقتل بشار . الاولى تؤكد بأن العداوة القديمة بين يعقوب وبشار هي التي اودت بحياة الاخير . والثانية تقول بأن سبب قتله هو اتهامه بالزندقة . (انظر الطبري ، III ٥٣٨ . الجهشياري ، ص ١٨٤ . ابن الاثير ج٦ ، ص ٥٨٠ . الاصفهاني ، الاغاني ، ج III ص ٧٠) . على اننا نعتقد بأن مقتل بشار سواء كان بتهمة الزندقة او بتهمة هجائه للخليفة المهدي كان من تدبير الوزير يعقوب . اما بالنسبة لاتهامه بالزندقة فالروايات المتيسرة لدينا لا تساعدنا على اثبات هذه التهمة عليه . وكل ما نستطيع ان نستنتجه من شعره وسلوكه انه كان شاكاً في بعض المعتقدات الدينية . (انظر

كذلك الجاحظ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص ١٦ فما بعد . زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٢ ، ص ٦٤ فما بعد .) ابن المرتضى، طبقات المعتزلة ، ص ٣٠ .

(٥٩) الجهشياري ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ .

(٦٠) الطبري ، III ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩ .

(٦١) الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٤١١ ـ ٤١٢ .

(٦٢) الطبري ، III ، ص ٥٠٨ عن علي بن محمد النوفلي .

(٦٣) الجهشياري ، ص ١٥٩ .

(٦٤) الطبري ، III ، ص ٥٣١ عن الموصلي .

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٥١٥ .

(٦٦) الجهشياري ، ص ١٥٩ .

(٦٧) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ الطبري ، III ص ٥٠٩ ، ٥١٤ .

(٦٨) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج١ ، ص ١٦ .

(٦٩) الطبري ، ص ٥١٤ ، الفخري ، ص ١٦٧ .

(٧٠) الطبري ، III ص ٥١٤ .

(٧١) الجهشياري ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ ، الطبري ، III ص ٥١١ ، ابن خلكان ، وفيات (الانكليزية) ج٢٤ ، ص ٣٥٣ فما بعد . الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج١٤ ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ . المقريزي ، مخطوطة منتخب التذكرة ص ١٢٨ ـ ١١٢٩، ١٣٠ب . ـ اتهم الشاعر مروان بن ابي حفصه يعقوب بعد ان سخط عليه المهدي بانه رافضي .

(٧٢) المسعودي ـ مروج ، ج٦ ، ص ٢٣٢ .

(٧٣) ابن طباطبا ـ الفخري ، ص ١٦٧ .

(٧٤) الطبري ، III ص ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٦ .

(٧٥) الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين (عيسىٰ بن زيد) . العاملي ، اعيان الشيعة ، ج ١٠ ، ص ٥٧ .

(٧٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٦ ، ص ٢٣٢ .

(٧٧) الجهشياري ، ص ١٦٠ ـ ١٦٢ ، تاريخ بغداد ج١٦ ، ص ٢٦٥ . وفيات الاعيان ج٤ ، ص٣٥٢ فما بعد . (الانكليزية) ، الكامل ج٦ ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٧٨) ولعله من المفيد ان نذكر بان الرواية (   ) في نكبة يعقوب تتفق مع رواية تذكرها مصادر تاريخية عديدة في سبب نكبة البرامكة في عهد هارون الرشيد . وفحواها ان الرشيد أمر جعفر البرمكي بقتل يحيىٰ بن عبدالله العلوي الحسني الا ان جعفر اطلق سراحه بدلاً من تنفيذ اوامر الخليفة . ولنا ان نتساءل هل ان هاتين الحادثتين مجرد توافق عن طريق الصدفة ام ارتباط يصنعه بعض الرواة عن قصد حين يحارون في تفسير امثال هذه الحوادث التاريخية الغامضة .

(٧٩) Kocher, op. cit p. 392

(٨٠) انظر مثلاً الطبري ، III ص ٥١٠ ، ٥١٤ . اليعقوبي . التاريخ ، (انظر الفهرست) . العاملي ، أعيان الشيعة ، (فهرست) .

(٨١) الطبري ، III ، ص ٥١٦ ، الجهشياري ، ص ١٦٣ .

(٨٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة (مخطوطة ، المكتبة الوطنية في باريس ص ١٨٢ رقم
Sourdel Le Vizirat, p. II. (arabe 3483

(٨٣) الطبري ، III ص ٥٨٥ عن محمد بن عبدالله بن يعقوب بن داود .

(٨٤) الجهشياري ، ص ١٦٣ .

(٨٥) قيل ان يحيى بن خالد البرمكي توسط لدى الرشيد لاطلاق سراح يعقوب (جهشياري ١٦١ . ـ قارن التنوخي الفرج بعد الشدة ١٤١ ـ ١٤٢ ، (Sourdel, Le Vizirat, p. III)

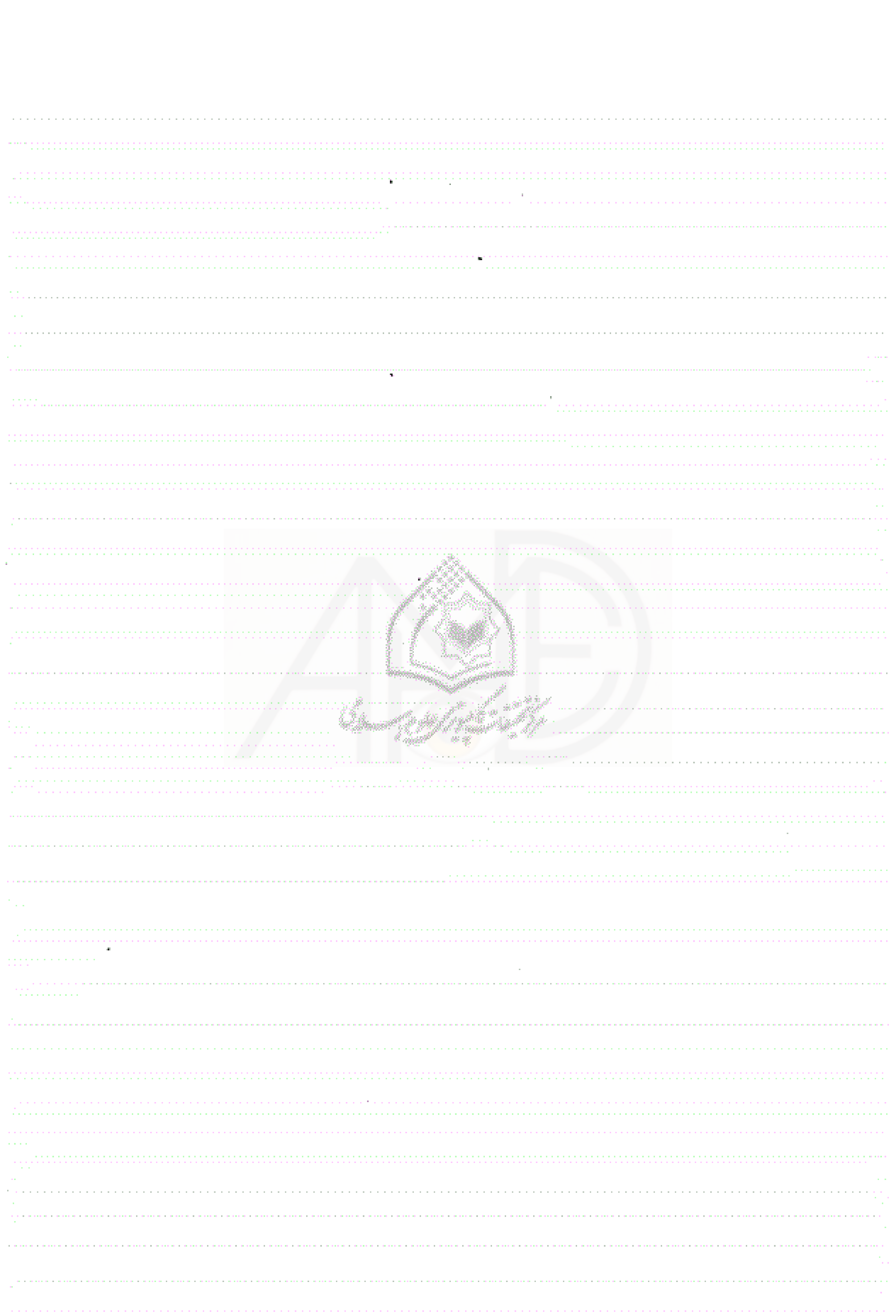
(٨٦) يذكر الخطيب البغدادي رواية فحواها ان المهدي اطلق سراح يعقوب وهي رواية غير صحيحة كما يعترف الخطيب نفسه (تاريخ بغداد ج ١٤ ، ص ٢٦٤) .

(٨٧) الجهشياري ، ص ١٦١ . الطبري ، III ، ص ٥١٦ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ . الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١٤ ، ص ٢٦٤ . ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١٦٩ .. وفي رواية اخرى للطبري ان يعقوب توفي في الرقة سنة ١٨٧ هـ ، III ، ص ٦٨٨ .



الفصــل السادس

وزارة الفـيض بن ابي صالح



الفيض بن صالح شيرويه من خراسان من مدينـة نيسابـور وهو من ام مسيحية وكان قبل ذلك غلاماً لعبدالله بن المقفع . يقول الجهشياري :

«واستوزر المهدي بعد يعقوب بن داود الفيض بن ابي صالح وكان سخيـاً سريـاً كثير الافضـال واسع الحـال وكان متكبـراً متجبراً مترفعاً»[1] .

ويؤكد ابن طباطبا في الفخري ان اهله نصارىٰ انتقلوا الىٰ خدمة بني العباس وأسلموا وترىٰ الفيض في الدولة العباسية وتـأدب وبدع وكـان سخياً مفضـالاً متخرقاً في ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير الكبر والتيه»[2] .

وهكذا يتفق الجهشياري وابن طباطبا ويتبعهما ابن خلكان في تأكيد خلافته ليعقوب بن داود في منصب الوزارة . علىٰ ان الطبري لا يذكره كوزير بل يضعه ضمن قائمة كتّاب الخليفة المهدي . اما اليعقوبي فيرىٰ ان الذي خلف يعقوب بن داود هو محمد بن الليث ويشير الىٰ شخصيات اخرىٰ تقاسمت المسؤولية الادارية بعد سقوط يعقوب بن داود[3] .

ان المعلومات التي بحوزتنا عن الادارة المركزية العباسية بعد سقوط يعقوب بن داود وفي آخر عهد المهدي العباسي قليلة ويبدو من النتف المتناثرة بروز عدة شخصيات ادارية فبالاضافة الىٰ محمد بن الليث آنف الذكر، استلم الربيع بن يونس منذ سنة ١٦٧هـ ديوان الرسائل الذي عين سعيد بن الوليد مساعداً له في تسيير اعمال هذا الديوان . كما تظهر شخصية علي بن يقطين ذي الميول العلوية واحد اتباع موسىٰ الكاظم الذي تسلم ديوان الازمة بدل عمر بن بزيع . وقد أصبح علي بن يقطين موضع ثقة الخليفة بعد سقوط يعقوب بن داود . وعُرف بتأثيره علىٰ المهدي كما انه عرف بكذبه علىٰ حد تعبير بعض الروايات ، اضافة الى انه يظهر بجانب الخليفة في جولاته الرسمية وفي حفلات السمر في القصر . ومما لا شك فيه فإن اهمية علي بن يقطين تبدو واضحة لاشغاله منصب ديوان الزمام ذلك الاجراء الذي ابتـدعه المهـدي من أجل الاتجـاه بالادارة المـالية بصـورة خاصـة نحو

المركزية[1] . على ان رواياتنا التاريخية ليست واضحة تماماً فيما يخص صلاحيات كل من عمر بن بزيع وعلي بن يقطين ولكن رواية في الجهشياري ربما توضح هذا الخلط او الغموض حيث تقول :

«وقد قلد المهدي علي بن يقطين الازمة على عمر بن بزيع وتضعضعت حال عمر بن بزيع وذلك سنة ١٦٨هـ فصار عليٌ زماماً على الازمة وأحسب أن من ذكر ان المهدي اول من احدث الازمة انما اراد ازمة على الازمة» .

ومعنى ذلك ان مسؤولية عمر بن بزيع استمرت على الزمام اما سلطة علي بن يقطين فكانت ارفع من عمر بن بزيع لانه كان مسؤولاً عن زمام الازمة وهو ديوان جديد اوجده المهدي لمراقبة دواوين الازمة والاشراف عليها . كما حاز على ثقة الخليفة وأصبح من خواصه وموضع ثقته .

ان التطورات الادارية التي استجدت في نهاية عصر المهدي وصفت شخصيته الوزير الفيض بن ابي صالح وزيادة اهمية صاحب ديوان الزمام وديوان زمام الازمة تعطي صورة معقدة امام الباحث حيث تختلط عليه صلاحيات الوزير بصلاحيات شخصيات ادارية أخرى .

ومهما يكن من أمر فإن تنظيم الحكومة العباسية المركزية لم يكن واضح المعالم ولم تتبلور مؤسساتها بعدُ . على ان جهود المهدي ومبادراته في تنظيم الادارة لابد ان يشار اليها بالتقدير . ففي البداية حاول المهدي ان يستغل قدرات كاتبه ابي عبيدالله معاوية الكبيرة في الادارة وكذلك قابليات يعقوب بن داود السياسية في كسب ود العلويين . ولكن يعقوب بن داود سقط بسبب انتهازيته وفشل محاولته للتوفيق مع العلويين ونجاح مؤامرات البلاط العباسي ضده . هذا اضافة الى وصول يعقوب بن داود الى السلطة جعلته يتصرف دون ان يضبط نفسة او يعرف حدود صلاحياته كما ان طموحاته ومبادراته افقدته ثقة الخليفة حيث حل محله عدد من الشخصيات الادارية كان ابرزها علوي آخر هو علي بن يقطين . ان علي بن يقطين

وان كان اقل ذكاءاً من يعقوب بن داود الا انه كان قديراً بحيث اصبح بين كتّاب الخليفة الرئيسيين(*) .

وبعد ذلك كله لابد من الاشارة الى ان المراكز الادارية التي احتلها هؤلاء الاشخاص الذين ساعدوا المهدي في الادارة تبقىٰ غير محددة كما ان سلطاتهم تبقىٰ غير واضحة تماماً . فنحن لا نستطيع ان نجزم ـ كما يقول سورديل ـ بأن لقب الوزير مُنح فعلاً الىٰ ابي عبيدالله معاوية بصورة رسمية ، ومع علمنا بأن يعقوب بن داود حمل لقب الوزير فلا نستطيع ان نؤكد بأن الفيض بن ابي صالح الذي اعقبه حمل نفس اللقب بصورة رسمية .

وفيما يخص لقب الوزير فالرواية التاريخية تؤكد ان يعقوب بن داود منح لقب الوزير بمراسيم رسمية . وان الشاعر الذي هجاه سماه بالوزير وادعىٰ بأن سلطات الخليفة كلها غدت في يد يعقوب . ولكن الهجاء يبقىٰ وصفاً مبالغاً فيه ولا يمكن ان يعتمد للدلالة علىٰ حقيقة تاريخية الا اذا ساندته روايات تاريخية موثوقة . والواقع ان يعقوب بن داود لم يكن يملك تلك السلطة المطلقة للتحكم كما يصوره بعض الاخباريين . اضافة الىٰ ان مبادرته للتفاهم مع العلويين كانت أقل بكثير مما اشيع عنها وان حافزها الرئيسي كانت مصلحته الشخصية وطموحاته الذاتية . ولهذا فإن الشيعة اعتبروه انتهازيا يحاول ان يستخدم شعار التوفيق للهجوم عليهم والتعرف علىٰ مواقفهم أكثر من محاولة سياسية مخلصة للمهادنة والسلام .

ومن ناحية أخرىٰ فإن عملية تقوية سلطة الحكومة المركزية وجعل الادارة اكثر مركزية عن طريق ديوان الزمام وديوان زمام الازمّة جعلت من سلطة المسؤولين في بغداد اكثر قوة واتساعاً .

وان المهدي سار علىٰ سياسة ابيه المنصور في تعيين كتّاب ومربين لولاة العهد وهذه السياسة شجعت هؤلاء الكتاب والمربين والمساعدين الطموحين علىٰ زيادة نفوذهم علىٰ أمل الرقي الىٰ مراتب متقدمة حين يصبح ولي العهد خليفة في المستقبل وأخيرا فإن تشجيع المهدي لمواليه وتقريبهم في مجالسه جعل المنافسة قوية بينهم

وبين الوزراء الذين تعرضوا لمؤامرات عديدة لم يستطع الخليفة ان يضع حداً لها بصورة ناجحة[6].

هوامش الفصل السادس

(١) الجهشياري، طبعة بغداد، ١٢٣.
(٢) الفخري، طبعة بيروت، ١٨٧.
(٣) الطبري، القسم الثاني، ٨٤١. ـ اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٣.
(٤) سورديل، ١١١ فما بعد.
(٥) سورديل، ج١ ص ١١٣.
(٦) المصدر السابق.



وزارة الربيع بن يونس الثانية



لم تحسم مشكلة ولاية العهد في زمن المهدي دون قلاقل واضطرابات فالمنافسة كانت قد بدأت في حياة المهدي بين ولديه موسىٰ الهادي وهارون الرشيد وبطبيعة الحال التفَّ حول كل منهما زمرة من أصحاب المصلحة وعلىٰ رأسهم الكتّاب والمربون والصحابة وهم خاصة الأمير.

وعند وفاة المهدي كان الهادي والياً علىٰ جرجان اي انه مسؤولاً عن ادارة ولاية من ولايات الدولة وارتبط به عبيدالله بن زياد بن ابي ليلىٰ الذي كان مسؤولاً عن الرسائل كما اعتبر احياناً وزيراً لولي العهد. وكان محمد بن جميل مسؤولاً عن الجيش وابراهيم بن ذكوان الحراني مستشاراً. اما هارون الرشيد فقد اضطلع عدة مرات بمهام الجهاد ضد الروم واصطحبه خالد ويحيىٰ البرمكيان المسؤولان عن الرسائل والنفقات والجيش. وفي سنة ١٦٣هـ اعطي هارون الرشيد ولاية المغرب وارمينية وأذربيجان ومعه يحيىٰ البرمكي علىٰ الرسائل وثابت بن موسىٰ علىٰ الخراج.

لقد أدرك المهدي في اواخر حياته خطورة هذا التقسيم علىٰ مستقبل الخلافة العباسية وعلىٰ تصدع الادارة بسبب الاختلاف الاكيد بين المرشحين ومن ورائهما اعوانهما الطموحون والمتعطشون الىٰ السلطة والنفوذ والمرتبة العالية. لذلك قرر اختيار احد المرشحين موسىٰ أو هارون وتحت تأثير الخيزران وقع اختياره علىٰ الثاني وقرر اجبار موسىٰ علىٰ التنازل عن حقوقه لهارون. ولكن موسىٰ رفض ذلك عدة مرات مما اضطر المهدي الىٰ السير اليه سنة ١٦٨هـ ومعه هارون وترك الربيع الحاجب نائباً عنه في بغداد حيث أصبح الربيع من اقدم خاصة الخلفاء في البلاط منذ عصر المنصور. ولأول مرة في تاريخ العباسيين يعين الخليفة نائباً عنه في بغداد شخصية غير عباسية بل احد مواليه المقربين الىٰ البلاط.

وفي الطريق من بغداد الىٰ جرجان توفي الخليفة المهدي وأرسل الامير هارون صاحب البريد نصير ومعه شارات الخلافة الىٰ موسىٰ الهادي. وعاد هارون الىٰ بغداد حيث كان الربيع نائب الخليفة قد أخذ البيعة لموسىٰ الهادي. وفي انتظار

عودة الهادي من جرجان التي استغرقت حوالي عشرين يوماً أصبح الامير هارون نائباً للخليفة من بغداد يساعده الربيع بن يونس[1] .

وخلال هذه الفترة استطاع الربيع بن يونس ان يخمد حركة «انقلاب» حاول الجيش القيام بها حيث يبدو ان الخيزران كانت وراء هذه الحركة واستهدفت تنصيب هارون بدل موسىٰ الهادي . ولهذا فإن شكوك الهادي وارتيابه من نوايا امه الخيزران كما تشير اليها رواية تاريخية كانت في محلها .

علىٰ أن الربيع بن يونس ارتكب خطأ حين اتصل بالخيزران وجماعتها الذين ارادوا تأكيد ولاية العهد لهارون بعد الهادي فانصاع اليهم الربيع «فوجه الوفود الىٰ الامصار ونعىٰ اليهم المهدي وأخذ بيعتهم لموسىٰ الهادي [ولهارون] بـولاية العهد من بعده[2] . وقد انزعج الهادي من هذا الاجراء المستعجل وهدد الربيع بن يونس بالقتل . ولكن الربيع استطاع ان يسترضيه او انه تظاهر بالرضىٰ عنه يقول الطبري[3] :

فعاقبه الهادي فاعتذر اليه واعلمه السبب الذي دعاه الىٰ ذلك فقبله وولّاه الوزارة مكان ابي عبيدالله بن زياد وضم اليه ما كان عمر بن بزيع يتولاه من الزمام» .

وان الهادي ثبت يحيىٰ البرمكي باعتباره كاتباً ومربياً للرشيد وثبّت الرشيد علىٰ ولاية اقاليم المغرب . وأصبح الربيع بن يونس وزيراً للمرة الثانية ومع ذلك فقد أبقىٰ الهادي الىٰ جانبه العديد من المسؤولين مثل محمد بن جميل علىٰ ديوان خراج العراقيين وعبيدالله بن زياد علىٰ خراج الشام وما يليه وعلي بن عيسىٰ بن ماهان علىٰ الحرس وديوان الجند وعبدالله بن مالك على الشرطة وأبقىٰ الخاتم في يد علي بن يقطين . علىٰ ان هذا الاخير قتل بعد مدة قصيرة بتهمة الزندقة . والذي يلاحظ ان كلمة «الوزير» كانت لاتزال غير واضحة وتستعمل احياناً لتعني الموظف الكبير الذي يعاون الخليفة . فحين تشير رواية تاريخية الىٰ عودة هارون بعد وفاة المهدي تقول : «وكان هارون خليفة الهادي [في بغداد] ومعه الربيع بن يونس وزيراً» وتذكر رواية

تاريخية اخرىٰ ان الهادي قبل تبريرات الربيع بن يونس وعفا عنه بعد عودته الىٰ بغداد «وولاه الوزارة مكان عبيدالله بن زياد بن ابي ليلىٰ» ومعنىٰ ذلك ان عبيدالله بن زياد كان وزيراً للهادي قبل الربيع . ولا يعني ذلك الا المساعد الاول او المستشار للهادي . ثم ان المسعودي يشير الى ان وزير الهادي هو ابراهيم بن ذكوان الحرّاني وليس الربيع بن يونس[٤] . وهكذا تبقىٰ الوزارة في مفهومها وسلطاتها اصطلاحاً مرناً في هذه الفترة خاصة وان المهدي كان له وزراء عديدون لم يكن لهم عمل سوىٰ المشورة . ومن الصعب التأكد فيما اذا كان الهادي قد سامح الربيع بن يونس من كل قلبه بسبب انتهازيته وارضائه لكتلة الخيزران والرشيد التي أشرنا اليها سابقاً . ومهما يكن من أمر فإن الفترة التي قضاها الربيع بن يونس في الوزارة كانت قصيرة جداً حيث عزل في بداية ١٦٩هـ عن الوزارة وديوان الرسائل وبقي مسؤولاً عن الزمام . وقد أُعطيت الوزارة الىٰ ابراهيم بن ذكوان الحرّاني وأُعطي ديوان الرسائل الى عمر بزيع .

سقوط الربيع ومقتله :

بين أيدينا عدد من الروايات التاريخية[٦] حول موت الربيع بن يونس ومعظمها يشير بطريقة او اخرىٰ الىٰ ان الخليفة الهادي له يد في ذلك . وسواءٌ كان سبب قتله لتعليقه الشائن علىٰ جارية الهادي وام ولده او للاشاعات التي اطلقها أعداء الربيع بأن الهادي قد غلبه حب الجارية فأصبح طوع بنانها وتحت تأثير سيدها السابق الربيع بن يونس والذي يبدو لنا ان الهادي لم يسامح الربيع علىٰ تأكيده البيعة بولاية العهد لهارون خاصة بعدما عاناه الهادي من ضغوط للتنازل عن حقوقه لهارون وانه كما يبدو وكان عازماً علىٰ تنحية هارون من ولاية العهد وأخذ البيعة لأبنه (جعفر بن الهادي) بدل هارون ، فعزم علىٰ التخلص منه بالسم وقد فعل ذلك سنة ١٦٩هـ .

ومع ذلك فقد بقي الفضل بن الربيع حاجباً للهادي ويصوره بعض المؤرخين

ذا تأثير كبير على الخليفة . اما الزمام فأعطي الى ابراهيم الحراني يساعده في ذلك اسماعيل بن صبيح الذي كان مسؤولا عن زمام خراج بلاد الشام . الا ان اسماعيل بن صبيح هذا كان عيناً ليحيىٰ البرمكي وهارون يرسل اليهما اخبار الخليفة وخططه وقد فر الى حران بنصيحة يحيىٰ البرمكي بعد اكتشاف امره وعين الحراني بدله يحيىٰ بن سليمان .

هوامش الفصل السابع

(١) الطبري ، القسم الثالث ، ص ٥٤٧ فما بعد .

(٢) المصدر السابق ، ٥٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، ٥٤٨ . ـ الجهشياري ، ١٦٧ .

(٥) سورديل ، ج١ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٦) الطبري ، القسم الثالث ، ٥٤٨ . ـ الجهشياري ، ص ١٢٥ الفخري ص ١٧٨ ، ١٩٢ .

الفصل الثامن

وزارة ابراهيم بن ذكوان الحراني



بعد عزل الربيع بن يونس عن الوزارة تبدو شخصية ابراهيم بن ذكوان الحراني هي الاقوىٰ بين مساعدي الخليفة ويسميه بعض المؤرخين بالوزير.

ولقد كان المهدي هو الذي عين ابراهيم الحراني مستشارا للهادي حين كان هذا الاخير والياً علىٰ جرجان. وحين اشتدت ازمة ولاية العهد وتعنت الهادي متمسكاً بحقوقه الشرعية طلب المهدي ارسال ابراهيم الحراني علىٰ عجل الىٰ بغداد ولكن ابراهيم الحراني أخر سفره وحين مات المهدي لم يكن الحراني قد غادر جرجان بعدُ[1].

ويظهر دوره الكبير الىٰ جانب الهادي من اعتقاله من قبل البرامكة مباشرة بعد مقتل الهادي وقد سُجن الحراني وعومل معاملة سيئة مما يجعلنا نعتقد بأنه كان ضد ما خطه المهدي ومن ورائه الخيزران والبرامكة بجعل هارون ولياً للعهد بدل موسىٰ الهادي. وقد استمر الحراني الىٰ جانب الهادي خلال خلافته وربما وافقه علىٰ خطته بنقل ولاية العهد من هارون الىٰ ابنه جعفر بن الهادي.

صلاحياته كوزير:

لابد من الاشارة الىٰ ان المؤرخين يختلفون علىٰ اسم وزير الهادي بعد عزل الربيع بن يونس، فالجهشياري والمسعودي يجعلان من ابراهيم الحرّاني وزيراً للهادي. ولكن المسعودي نفسه يجعل الوزارة في رواية اخرىٰ لعمر بن بزيع. اما الطبري فيعطي ديوان الزمام لابراهيم الحرّاني ويخصص بأن ابراهيم الحرّاني كان في موضع الوزارة مما يدل علىٰ انه كان يقوم بمهام الوزير دون ان يُسمىٰ رسمياً بالوزير. اما عمر بن بزيع فكان حسب رواية الطبري علىٰ ديوان الرسائل. ولكن روايات الطبري عديدة وغامضة حول هذا الموضوع فهو يُسمي عمر بن بزيع في رواية اخرىٰ وزيراً وكذلك يُسمي ابراهيم الحرّاني وزير موسىٰ الهادي قبل ان يتولىٰ هذا الاخير الخلافة.

نستنتج من ذلك بأن المؤرخين اعطوا لقب الوزير الى صاحب الرسائل مرة

والىٰ صاحب ديوان الخراج والزمام مرة أخرىٰ دون ان يكون أي منهما وزيراً بصورة رسمية .

والواقع ليس لدينا دليل عن صلاحيات ابراهيم الحرّاني يشير الىٰ تقلده منصب الوزارة . فهو مسؤول عن بيت مال الخليفة وموضع ثقته لانه منحه حق توزيع هباته علىٰ الناس . وكان ابراهيم الحرّاني يذكّر الخليفة بمسؤولياته مثل عدم جلوسه للمظالم منذ ثلاثة أيام . ولهذا يبدو ان ابراهيم الحرّاني كان متقدماً علىٰ غيره وانه هو الذي حمل شارات الخلافة الىٰ هارون بعد مقتل الهادي وهو الذي تدخل ليمنع الخليفة من قتل يحيىٰ البرمكي . ولهذا يمكن اعتبار ابراهيم الحرّاني وزير الهادي دون ان يمنح اللقب بصورة رسمية .

يرىٰ المؤرخ سورديل[٢] بأن عهد الهادي القصير مهم بالنسبة لتطور الوزارة العباسية لانه يظهر بوضوح ان هذا المنصب كان لايزال غير محدد المعالم ولا معروف الصلاحيات . ويبدو ان المؤرخين في غالبيتهم يتفقون ان صاحب ديوان الرسائل وصاحب ديوان بيت المال زاد نفوذهم منذ عهد المهدي الىٰ درجة أن المؤرخين الرواد يطلقون عليهم لقب الوزير .

ان الشخصيات التي لقبت بلقب الوزير بصورة رسمية قليلة جداً . فالخلال مُنح اللقب في ظروف استثنائية ولأسباب سياسية . وليس هناك غير الربيع بن يونس الذي منح اللقب بحفل خاص في عهد المنصور ، ويعقوب بن داود منح اللقب بمرسوم صدر عن المهدي . اما عدا ذلك فإن المؤرخين منحوا لقب الوزير لأكثر الموظفين حظوة لدىٰ الخليفة مثل المورياني وابي عبيدالله معاوية وبعض الكتّاب والمسؤولين الاداريين الآخرين .

وعليه فإن الفترة المبكرة من تاريخ بني العباس حتىٰ نهاية عهد الهادي يمكننا القول عنها عموماً ان الوزارة فيها لم يكن لها نظام معترف به او صلاحيات محددة ولكنها كانت مرتبةً او مركزاً رسمياً تضمن حسب الظروف وشخصية الخليفة وقابليات «الوزير» وشخصيته بعض النفوذ والصلاحيات والسلطة .

ومعنىٰ ذلك لم يكن هناك منصب وزاري لحد الآن بل كانت هناك شخصيات لقبت بالوزير وتمتعت بنفوذ معين اختلف من وزير لآخر.

ولقد اتضح خلال فترة الاربعين سنة المنصرمة اتجاهان رئيسان :

الأول ـ النمو المتزايد لنفوذ الاداريين من الكتّاب «اصحاب القلم» الذين استطاعوا بقابلياتهم ان يضطلعوا بالاشراف علىٰ الادارة مثل خالد البرمكي والمورياني وابي عبيدالله معاوية . وكان هؤلاء احياناً يميزون بمنزلة خاصة ليست بالضرورة مرتبة رسمية .

الثاني ـ ظهور شخصية من بين خاصة الخليفة ربما كان حاجباً او مدبراً لأمور القصر او مساعداً ولكنه غير محترف لأمور الادارة . ثم تزايد نفوذه ليصبح بمرتبة مستشار الخليفة مثل الربيع بن يونس ويعقوب بن داود .

ان هذين العاملين الاداري والسياسي يشكلان المنصب الذي يسمى بالوزير فهو يوصف في روايات التاريخ العباسي بكونه كاتباً حاذقاً في الادارة وسياسياً ماهراً وهذا ما أثبته يحيىٰ البرمكي حيث تولىٰ الوزارة لهارون الرشيد بعد ذلك بفترة قصيرة .

هوامش الفصل الثامن

(١) راجع : الطبري ، القسم الثالث ، ٥٧٢ . ـ الجهشياري ، ص ١٦٧ فما بعد . الفخري ، ص ١٩٢ ، المسعودي ، مروج ، ج٦ ص ٢٦٥ فما بعد .

(٢) سورديل ، ج١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .



الفصــل التاســع

الوزارة البرمكية



مقدمـــة :

لعبت الروايات الشعوبية دوراً فعالاً في ابراز أهمية البرامكة في ادارة الدولة العباسية وسياستها فكانت ادارتهم فذة وسياستهم رشيدة ، حتىٰ وُصف نفوذهم بأنه دولة «دولة البرامكة» داخل الدولة العباسيـة ، كما وان كـرمهم فاق كـرم العباسيين ـ ومن خلالهم الكرم العربي الاصيل ـ لدرجة أن الامثال الشعبيـة اخذت تنسب الكرم لهم فتقول هذا كرم برمكي!! اما مجالس البـرامكة فكـانت محافل «للتفكير الحر» وحرية العقيدة تطرح وتناقش فيها شتىٰ الآراء المتضاربة دون قيد او رقابة!!

وفي ذات الوقت صوّرت الروايات الشعوبية سقـوط البرامكـة «بالنكبـة» المأساوية تلك النكبة التي كانت «بداية النهاية» لقوة العباسيين سياسياً واداريا ، والتي أظهرت «دكتاتورية» الرشيد وعبثه وحدة مزاجه حيث انقلب عليهم فجأة «دون سبب او سابق انذار»!! ولم تكتف الروايات الشعوبية بذلك بل طعنت ـ من خلال قصة العباسة ـ بالشرف العباسي ومن وراءه بكل القيم والتقاليد العربية الاسلامية .

لقد جعلت الشعوبية من سقوط البرامكة فـرصة طعنت عن طريقهـا بكل مفاهيم العصر العباسي السياسية والحضارية فأشاعت أساطير روجتها بين الناس فتداولها العامة حتىٰ غدت بتقادم الزمن شـواهد مـزوّرة علىٰ سيـاسة العـرب واخلاقهم ، لابد ان يُتخذ منها موقف حاسم في الدراسات التاريخية .

ان اعتمادنا علىٰ الروايات العربية القديمة ومقارنتها مع الروايات الفارسية المتأخرة او المعاصرة يـظهر مـدىٰ المبالغـات التي حبكتها افـواه الرواة واقلام المؤرخين والتي جعلت من «اسطورة البرامكـة» قصة شعبيـة يتداولهـا الناس متلذذين او مندهشين بأحداثها ومدلولاتها . اما المؤرخون والكتّاب المحدثون فقد ذهبوا مذاهب شتىٰ في موقفهم من البرامكة . فرغم ان بوفوا[1] قد كشف في دراسته عن الجذور التاريخية لأسطورة البرامكة وخاصة فيما يتعلق بأصلهم وميولهم الىٰ

الثقافة الفارسية الا انه اخطأ في اعتماده الكبير على المصادر الفارسية . اما جرجي زيدان وجميل المدور[2] فقد جعلا من البرامكة قصة شعبية يتداولها الناس ، فيها الكثير من عنصر الخيال والمبالغة البعيدين عن الواقع التاريخي . ونظر الدوري[3] نظرة شمولية الى الموضوع حيث اورد جملة أسباب سياسية ومالية وعنصرية وشخصية أدت الى وصولهم الى القمة ثم سقوطهم السريع .

وليس يهمنا هنا تاريخ اتصال البرامكة بالخلافة العباسية[4] ولكننا نود الاشارة الى أن البرامكة اسرة ايرانية من بلخ ينسبون الى جدهم برمك وهو لقب له باعتباره رئيساً لسدنة معبد النوبهار ، وهو من المعابد البوذية حيث تعبد فيها آلهتهم ـ وأول من أسلم من البرامكة جدهم خالد وتبعه اخواه الحسن وسليمان اللذان اصبحا موليان لقبيلة الازد في البصرة . وقد لعب خالد البرمكي دوراً ادارياً في خدمة الخلافة العباسية في عهد السفاح والمنصور ، ثم شارك مع ابنه يحيى البرمكي في كثير من المهمات في عهد المهدي الى جانب الامير هارون حتى توفي خالد سنة ١٦٣هـ .

وقد بقي يحيى بن خالد البرمكي مربياً لهارون الرشيد ومشرفاً على شؤونه ومرافقاً له في حملاته وسفراته . وكان ذا طموح كبير اراد ان يحققه من خلال الامير هارون فوقف وراءه يشد من عزمه ويشجعه على الاحتفاظ بحقه الشرعي في الخلافة تجاه ضغوط الخليفة الهادي[5] .

الرشيد وولاية العهد :

وهنا لابد لنا ان نلقي بعض الضوء على شخصية الرشيد[1] قبل تسنمه السلطة وموقفه من مشكلة ولاية العهد . والواقع ان شخصية الرشيد تعتبر من اكثر الشخصيات التاريخية العربية شهرة لا في الاساطير الشعبية فحسب بل من روايات المؤرخين والادباء على حد سواء . وهذه الحقيقة تدفعنا الى الاحتراز من أجل تنقية الحقائق من بين مئات الروايات المفعمة بالخيال البراق والقصة

الساذجة والخبر الفارسي الشعوبي المدسوس او الموضوع .

لقد اخفت هذه التناقضات شخصية هارون الرشيد وسلطته الحقيقية وضاعت مظاهر سياسته الداخلية والخارجية ... فقد كان هارون الرشيد ثالث ابناء الخليفة المهدي وثاني ابنائه من الخيزران الجارية المشهورة . وقد عاش هارون في حياة من الدعة بحيث جعل من شخصيته شخصية من السهل التأثير عليها وخاصة من قبل امه ومربيه يحيىٰ البرمكي . ولم يكن هارون مهتماً بمنصب الخلافة بل كاد ان يقبل التنازل عن ولاية العهد لجعفر بن موسىٰ الهادي لولا الحاح الخيزران ويحيىٰ البرمكي وتشخيصهما له علىٰ الصمود .

ان الظروف الصعبة التي مر بها الامير هارون في خلافة أخيه موسىٰ الهادي وضياع شخصيته بين الخيزران والبرامكة شجعت الىٰ حد كبير علىٰ ظهور تكتلات جديدة في البلاط العباسي بعد مجيء الرشيد الىٰ السلطة سنة ١٧٠هـ/ سنة ٧٨٦م . فقد أمر الرشيد بعد تسلمه الخلافة بابعاد الاشخاص الذين تعاونوا مع الهادي ، ومع ان البرامكة والخيزران تمتعوا بصلاحيات واسعة الا أن شخصيات عربية مهمة كانت تنافسهم منذ البداية نذكر منها الفضل بن سليمان الطوسي ومحمد بن الازدي ويزيد بن مزيد الشيباني والعديد من أمراء العباسيين وكذلك كل من الفضل بن الربيع وعلي بن عيسىٰ بن ماهان[٧] . وقد لعبت هذه الشخصيات والكتل التي وراءها دوراً متزايداً في سياسة الرشيد في مراحلها المتتابعة .

تعاظم نفوذ البرامكة :

تعتبر الخيزران ويحيىٰ البرمكي عاملين مؤثرين في سياسة الرشيد ، ففي صباح نفس اليوم الذي كان من المفروض ان يُعدم فيه يحيىٰ البرمكي فوجيء البلاط والناس بالموت المفاجيء للخليفة الهادي في ظروف غامضة . ثم استدعت الخيزران يحيىٰ البرمكي بعد الافراج عنه وطلبت منه ابلاغ الخليفة الجديد هارون الرشيد بالأمر[٨] .

كان الرشيد في الثالثة والعشرين من عمره وقد ابتدأ خلافته بتعيين يحيىٰ البرمكي وزيراً وتفويض امر الدولة له قائلاً :

فأحكم بما ترىٰ واستعمل من شئت واسقط من رأيت فإني غير ناظر معك في شيء»[9] .

ودخل مع يحيىٰ البرمكي في السلطة عدد من افراد عائلته وخاصة ابناؤه . ومع ذلك فإن واقع الاحداث تثبت بأن البرامكة لم يكونوا وحدهم في السلطة ، ففي السنوات الاولىٰ من حكم الرشيد ترك الخليفة لأمه الخيزران الكثير من النفوذ والسلطة . ثم ان يحيىٰ البرمكي كان من الذكاء بحيث اشرك الخيزران في القرارات التي يتخذها فكان يستشيرها ويعرض عليها الامور حتىٰ اعتبرتها بعض الروايات «الناظرة في الامور»[10] حتىٰ توفيت سنة ١٧٣هـ/ سنة ٧٩٠م .

ومهما يكن من أمر فإن الدواوين كانت تحت اشراف يحيىٰ البرمكي بعد سنة ١٧١هـ حيث تمتع بمنصب وزير . ولكن ما هي صلاحيات الوزير في تلك الفترة؟ لا تعرفنا مصادرنا بالضبط علىٰ صلاحياته ، ولكن نعلم انه كان يراس الديوان وان دويان الخاتم ضُم اليه سنة ١٧١هـ بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسي . وقد انتقلت رئاسة ديوان الخاتم من يحيىٰ البرمكي الىٰ ابنيه الفضل ثم جعفر وتداولت بينهم بين سنة ١٧٣هـ ـ سنة ١٨٠هـ . وقد اعطىٰ المؤرخون اهمية كبيرة الىٰ اعطاء الرشيد الخاتم الىٰ البرامكة لانها تدل علىٰ ثقة الخليفة بهم كما وان الخاتم يعتبر رمز السلطة والنفوذ اللذين تمتع بهما البرامكة والمكانة المميزة التي احتلوها[11] .

ويبدو ان يحيىٰ البرمكي بدأ تدريجياً يستقل عن الخليفة في الرأي لأنه ـ وكما تشير مصادرنا التاريخية[12] اخذ يختار بنفسه معاونيه في الادارة ويهيمن علىٰ كُتّاب الدواوين ويراقب اعمالهم في الدواوين المركزية . اما ولاة الاقاليم فكان يعينهم بعد ان يكتفي ظاهرياً باتباع راي الخليفة[13] .

أما ابناء يحيىٰ البرمكي فإن اثنين منهما لعبا دوراً حساساً وتسلما مراكز

ممتازة في الدولة العباسية وهما الفضل وجعفر . اما محمد وموسىٰ فرغم تسلمهما مناصب ادارية وعسكرية الا انها كانت ثانوية ولم يلعبا دوراً بارزاً . يعتبر الفضل بن يحيىٰ البرمكي[١٣] الساعد الايمن لأبيه في الامور الادارية والسياسية ، وكان ينوب عنه في بعض الاحيان كما حدث سنة ١٨١هـ/ سنة ٧٩٨م . علىٰ ان الفضل البرمكي اضطلع كذلك بقيادة بعض الحملات العسكرية كما وانه كان مسؤولاً عن الاقاليم الشرقية الايرانية وخاصة في غربي ايران مثل الجبال وطبرستان ودبناوند وقومس وأرمينية وأذربيجان . كما وان الرشيد أرسل الفضل البرمكي لحرب يحيىٰ بن عبدالله الحسني الذي تمرد في اقليم الديلم وقد نجح الفضل البرمكي في انهاء التمرد وتوصل الىٰ اتفاق سلمي بعد مفاوضات مطولة كتب في نهاياتها اماناً من الرشيد الىٰ يحيىٰ بن عبدالله . وقد عُين الفضل البرمكي والياً علىٰ خراسان سنة ١٧٧هـ الا انه لم يذهب حتىٰ سنة ١٧٨هـ وقد اظهرته الروايات[١٤] والياً مصلحاً اعطىٰ للناس مؤخرات رواتبهم وزاد من رواتب الجند ، وحفر قناة جديدة في بلخ وبنىٰ جوامع (وخانات) جديدة وارسل حملة بقيادة ابراهيم بن جبريل لغزو كابل . وتشير رواية تاريخية[١٥] الىٰ ان الفضل البرمكي أعدّ كذلك جيشاً جديداً من الخراسانية قواده من العجم أرسل كتائب منه الىٰ بغداد قبل عودته هو سنة ١٧٩هـ وقد لقّب هذا الجيش (بالعباسية) الا ان اهل بغداد ادركوا خطورته بتواجده في العاصمة فسموه (الكرمينية) .

وكان الفضل البرمكي مربياً للأمين ولي العهد ولعب دوراً مهماً في اعطاء البيعة للأمين سنة١٧٨هـ، يساعده في ذلك عيسىٰ بن جعفر خال الامين . واعلن الفضل البرمكي ولاية العهد للأمين في الولايات الشرقية أول الامر لأنها كانت تحت نفوذه وضربت النقود باسم ولي العهد الجديد . وبعد ذلك أُعلنت البيعة في بغداد والمناطق الاخرىٰ رسمياً رغم معارضة الكثير من الهاشميين . وفي سنة ١٨٠هـ غادر الرشيد بغداد الىٰ الرقة وترك الامين نائباً عنه في بغداد يعاونه في ذلك الفضل البرمكي[١٦] .

اما جعفر البرمكي فقد غلب علىٰ الرشيد غلبة شديدة حتىٰ صار لا يقدم عليه أحد . وتشير الروايات التاريخيـة[١٧] بأن جعفـر البرمكي أرسـل الى مصر سنة ١٧٦هـ لتهدئة الحالة فعزل واليها وعيّن والياً جديداً ، وفي سنة ١٨٠هـ أرسله الرشيد الىٰ بلاد الشام لقمع الاضطرابات التي قامت بها القبائل في مناطق عديدة وقد أدّب المتمردين ونزع السلاح من القبائل ثم عاد الىٰ الرقة . وكان تعيين جعفر والياً علىٰ خراسان اسمياً لم يذهب الىٰ هناك بل أصبـح رئيساً لحـرس الخليفة ومستشاره الخاص . ومن خلال هذا المنصب الاخير لعب جعفر البرمكي دوراً هاماً في سير الادارة والسياسة العباسية ، فقد اشركه الرشيد في النظر في المظالم وادارة البريد ودور الضرب (سك النقود) والطراز . ولعل الاشراف علىٰ دور الضرب من قبل جعفر البرمكي وبتخويل من الخليفة حدث لأول مرة في تاريخ العباسيين لأن هذه المهمة كانت من واجبات الخليفة الرئيسية[١٨] بل اكثر من ذلك ظهر اسم جعفر البرمكي مطبوعاً علىٰ كل القطع النقدية في المشرق ثم ظهر بعد ذلك علىٰ نقود الاقاليم الغربية . ويبدو ان جعفر البرمكي كان مشرفاً علىٰ السكة كلها وختم اسمه علىٰ النقود المضروبة .

كما عهد الرشيد الىٰ جعفر البرمكي مهمة تأديب ابنه عبدالله المأمون الذي عُيّن ولياً للعهد بع أخيه الأمين . وكان لجعفر البرمكي دورٌ في حث الرشيد علىٰ كتابة العهد المشهور وتعليقه في الكعبة لتثبيت حق المأمون والتأكيد علىٰ استقلاليته في خراسان خلال فترة حكم الامين[١٩] . وهكذا يبدو ان الرشيد قسم الخلافة العباسية بين الفضل البرمكي مربي الامين وجعفر البرمكي مربي المأمون الىٰ منطقتي نفوذ شرقية وغربية وبقي هو يحكم في العراق !!

أسباب سقوط البرامكة :

استمر تأثير البرامكة في السلطة لمدة سبع عشرة سنة ... ولكن هذا التأثير تفاوت من فترة الىٰ اخرىٰ خلال هذه المدة ولم يبق قوياً او علىٰ نسق واحد . وتذكر

رواياتنا التاريخية[٢٠] ان الرشيد امر مسروراً الخادم في ليلة السبت الاول من صفر سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م بقتل جعفر البرمكي كما أمر بسجن الفضل البرمكي واخوته ووضع اباهم يحيىٰ البرمكي تحت الحراسة ولم يترك من البرامكة غير محمد بن خالد البرمكي .

ولابد لنا ان نشير بأن الرواة ومن بعدهم المؤرخون نقلوا هذه الاحداث باختلاف كثير وصوروها بصور مأساوية متنوعة . فهناك رواية[٢١] تشير الىٰ ان جعفر البرمكي طلب من مسرور الخادم ان يقتاده الىٰ قصر الخليفة مؤكداً بأن الرشيد حين يراه سيتراجع عن رأيه ولكن آماله باءت بالفشل حيث لم يستطع مقابلة الرشيد وأُعدم . ويرىٰ ابن خلكان نقلاً عن المسعودي ان المكلف بقتل جعفر البرمكي كان شخصاً آخر قُتل فوراً بعد انتهاء مهمته[٢٢] . بل تذهب رواية اخرىٰ بأن خمسين من الحرس كانوا مكلفين بالقضاء علىٰ جعفر البرمكي وان جميعهم قتلوا بعد انتهاء المهمة المسندة اليهم!! . وأكثر من ذلك ادعت روايات شعوبية فارسية[٢٣] بأن الرشيد ارتكب مجزرة رهيبة حيث قتل كل عائلة آل برمك وحاشيتهم ولم يفلت من ذلك كتّابهم وأقرباؤهم ومواليهم وشعراؤهم !! وهذه الروايات متناقضة ومشوهة وغير مسندة .

أمر الرشيد بحجز قصور البرامكة ومصادرة ممتلكاتهم وأموالهم وسجنوا في الرافقة حيث توفي يحيىٰ البرمكي سنة ١٩٠هـ/ سنة ٨٠٥م عن عمر يناهز السبعين ثم تبعه الفضل البرمكي حيث توفي سنة ١٩٣هـ/ سنة ٨٠٨م بعد ان أصيب بالشلل عن عمر يناهز الـ ٤٥ سنة وكان ابنا يحيىٰ موسىٰ ومحمد البرمكيان في السجن حين مات الرشيد وقد أطلق سراحهما الخليفة الجديد الامين .

تحاول النظرة الشعوبية الفارسية ان تصور سقوط البرامكة بكونه حدثاً مفاجئاً لا سبب له سوىٰ نزوة من نزوات الخليفة التي تعتمد علىٰ العاطفة . ولكن منطق الاحداث المستند الىٰ روايات تاريخية موثوقة يؤكد خطأ هذا الرأي ويرىٰ بأن سقوطهم كان ممهداً له ، بل ان البرامكة انفسهم تنبأوا بذلك حين بدأوا يدركون

نقمة الرشيد المتزايدة عليهم . يقول المستشرق بارتولد :

ان سقوط البرامكة كان ممهداً له من مدة طويلة وانه من الخطأ جداً ارجاعه الى نزوة الرشيد[٢٤] .

ان المستشرق سيتسترن فيرى بأن نفوذهم الكبير والقوة التي اكتسبوها كانت سبباً رئيسياً لسقوطهم ولكنه لا يرفض كذلك اسباباً أخرى اعتبرت عوامل مساعدة لانهيار الاسرة البرمكية فيقول[٢٥] :

«ولابد ، على اية حال ، انه كان بين الرشيد وجعفر خلاف شخصي وهذا يفسر عدم ارتياحه منه في السنوات الاخيرة ... ولذلك يحتمل ان عوامل كثيرة ساهمت او دفعت الرشيد للقضاء على البرامكة» .

اما بوفوا فيرى بأن ميلهم الى العلويين كان ينقصُ من قيمة الرشيد[٢٦] . ويضع كرد علي سقوط البرامكة ضمن محاولات الفرس الفاشلة لاعادة الملك اليهم واخراجه من أيدي العرب . ويؤكد الدوري ان البرامكة افرطوا في استخدام الفرس فأدى ذلك الى ردود فعل عربية ضدهم . اما فيليب حتي فيعزوه الى صراع حول السلطة حيث ان البرامكة وصلوا من القوة الى حد لم يطقه الرشيد[٢٧] .

واذا تمعنا في آراء المؤرخين الرواد نلاحظ اختلافات عديدة ومواقف متنوعة فاليعقوبي يقول ان جعفر البرمكي قُتل دون سبب!! ولا يذكر الدينوري الحادثة . اما الطبري وكذلك الجهشياري فإنهما يعرضان مجموعة من الروايات المتناقضة او فعلق دون ان يبديا رأيهما في الموضوع !! ويمكننا الاستنتاج من روايات ابن خلكان بأن سقوط البرامكة حسب رأيه ـ يعود الى ثلاثة امور : اولها ـ بقاؤهم في الحكم مدة طويلة وثانياً ـ الاخطاء الكثيرة التي جمعها الرشيد ضد جعفر والفضل . وثالثاً ـ أثر الكتلة المنافسة للبرامكة بزعامة الفضل بن الربيع .

لقد تداخلت الاساطير بالروايات الموثوقة وزاد من تعقيد الامر سكوت الرشيد وعدم تصريحه بشيء بعد الحادث . ومهما يكن من أمر فلابد لنا ان ننفي باديء ذي بدء قصة العباسة اخت الرشيد وزواجها من جعفر البرمكي صورياً بل

وانجابها منه . ذلك لكونها رواية لا تقف امام النقد الداخلي لمتن الرواية ولا امام النقد الخارجي ، يرويها الطبري[٢٨] دون سند وليس لها ذكر في كتب الدينوري واليعقوبي والاصفهاني وهم من اوائل من كتب في احداث العراق . ويبدو الجهشياري مستهزئاً بها حيث ينقل عن مسرور الكبير مفنداً هذه القصة الاسطورة[٢٩] :

«كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ... لا والله ما لشيء من هذا اصل ولكنه من ملل موالينا وحسدهم» .

ويناقش ابن خلدون[٣٠] اسطورة العباسة وينفيها اصلاً ويستطرد متسائلاً واين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب منها ؟ وقد انكر مؤرخون متأخرون مثل ابن كثير هذه القصة التي وضعتها الاقلام الفارسية الحاقدة خاصة وان متنها يغلب عليه الطابع الاسطوري المختلق لكثرة المتناقضات فيه .

فالعباسة كانت متزوجة من محمد بن سليمان العباسي والي البصرة فتوفي عنها ثم تزوجت في عهد ابيها بالامير ابراهيم بن صالح الهاشمي فتوفي عنها ثم تزوجت ثالثة ولم تبق دون زوج حتى ان الشاعر ابا نؤاس يتندر في شعره بأمرها ويقول (من اراد الموت فليتزوج من العباسة!!)[٣١] !! وكانت القيم والتقاليد قوية فاعلة في عصر الرشيد وان هذا الخليفة جعل ابنه الامين وهو من ام عربية ولياً اولاً للعهد فكيف يوافق على زواج اخته من مولى اعجمي ؟ وكيف يتم زواج كهذا دون علم الخليفة وبصورة منافية للشرع الاسلامي ؟ ولا تذكر رواياتنا الموثوقة ان جعفر البرمكي كان زوجاً للعباسة في يوم من الايام . لقد نفى غالبية المؤرخين المحدثين نفياً قاطعاً هذه الاسطورة ولعلنا نكتفي هنا بقول سورديل حيث تقول :

«ان قصة العباسة حكاية شعبية واسطورة خيالية حاكها الفرس بعد سقوط البرامكة مباشرة . ومما يثبت ذلك افتقارها الى الوثائق الثبوتية التي هي من مستلزمات العقد الشرعي»[٣٢] .

ولم تقف الرواية الشعوبية عند هذا الحد بل انها كررت التهمة ثانية مع

اخت الرشيد الاخرىٰ ميمونة !! مما يدل الىٰ تهافت الرواية وعدم صحتها[٣٣].

اما التهمة الثانية الضعيفة والموضوعة عن اسباب سقوط البـرامكة فهي ميلهم الىٰ العلويين حيث تشير روايات عديدة الىٰ صلتهم بعدد من العلويين. فترىٰ رواية[٣٤] ان يحيىٰ البرمكي أمر بتمويـل يحيىٰ بن عبدالله الحسني ففي الديلم لتعزيز مكانته، وتشير روايات اخرىٰ[٣٥] الىٰ وقوف الفضل البرمكي الىٰ جانب يحيىٰ الحسني بعد قبوله بالأمان واطلاقه سراح يحيىٰ الحسني مخـالفاً بـذلك اوامر الرشيد. وهذه الروايات التي يرويها الاصفهاني تتضارب فيما بينها ولا يؤيدها الجهشياري فيما يرويه عن هذه الاحداث. وتذكر روايـة اخرىٰ[٣٦] ان للفضـل البرمكي علاقات طيبة مع محمد بن ابراهيم المعروف باسم (ابن طباطبا). وفي اعتقادنا ان هذه الروايات ضعيفة وليس لها ما يبررها كما وان روايات اخرىٰ تظهر البرامكة وكأنهم اعداء للعلويين، بل ان بعضهـا تجعلهم المنفذين لمقتـل موسىٰ الكاظم[٣٧]. وعلىٰ ذلك لا يمكننا القول بأن البرامكة كانوا ميالين للقضية العلوية سياسياً وربما أظهر البرامكة في مناسبة او اخرىٰ تعاطفهم مـع بعض العلويين وتوسطوا لهم لدىٰ الخليفة وبذلك يكون البرامكة قد تبنوا سياسة توفيقية تحاول التخفيف من حدة الخلاف بين العباسيين والعلويين. ويتبـع ذلك ان البرامكـة سمحوا في مجالسهم بمناقشة آراء الشيعة العلوية[٣٨] مثلها مثل الآراء الاخرىٰ المطروحة. وليس لدينا روايات موثوقة تدل علىٰ اخلاصهم للقضية العلوية او ولائهم لشخصية علوية معينة.

ومثلما رفضنا اسطورة العباسة وتهمة التشيع للعلويين، فإننا نرفض كذلك اتهامهم بالزندقة ـ بمعنىٰ المانوية ـ او بالزرادشتية ونرىٰ تهمة قذفوا بها بعد زوال نفوذهم وليس ففي رواياتنا الموثوقة ما يؤيد ذلك[٣٩]. ويبدو لنا بأن البرامكة اتهموا بالزندقة بمعناها الواسع اي انحرافهم عن القيم والتقاليد المتعارف عليها في عصرهم حيث يشار بأن لهم حفلات سمر تعج بالمجون والشراب وأن مجالسهم تناقش فيها شتىٰ الآراء الدينية والسياسية دون تقييد او وازع ـ ومما يؤيد ذلك ان

المؤرخين الذين نسبوا اليهم الزندقة متأخرون في غالبيتهم العظمىٰ .

ولعل من الصواب الا نعزو سقوط البرامكة الىٰ عامل واحد بعينه ذلك ان مؤرخينا الرواد انفسهم يصدرون اكثر من سبب لسقوطهم . فالجهشياري يشير الىٰ عشر مسائل اعتبرها اسباباً للسقوط ويعدد ابن خلكان ثلاثة اسباب رئيسية أشرنا اليها سابقاً . اما ابن خلدون فيرىٰ ان الاخطاء المسؤولة عن سقوط البرامكة هي :

«استبدادهم علىٰ الدولة واحتجابهم اموال الجباية حتىٰ كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه علىٰ أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه»[٤٠] .

وقبل ان نشخّص العوامل الرئيسية التي كانت وراء سقوط البرامكة لابد ان نؤكد بأن سقوطهم الذي يبدو وكأنه مفاجيء لم يكن وليد انفعال مفاجيء من الخليفة كما تحاول الرواية الشعوبية اظهاره بل كان مخططاً له ولّدته احداث تراكت علىٰ بعضها . ولذلك نلاحظ بأن الخليفة الرشيد انتهز اول فرصة حقيقية اتيحت له فأظهر رغبته بالتخفيف من نفوذ البرامكة وابدىٰ ميلاً حقيقياً لمنافسهم الفضل بن الربيع بعد موت الخيزران مباشرة التي كانت تعارض تعيين ابن الربيع في منصب رئيسي .

هذا من جهة ومن جهة اخرىٰ لم يتمتع البرامكة بكل السلطة والنفوذ خلال الـ ١٧ عاماً ذلك ان الخيزران شاركتهم السلطة حتىٰ وفاتها وشاركهم فيها يوسف بن القاسم الذي يبدو وكأنه مستشار للرشيد في السنوات الاولىٰ . وكان يخطب باسم الخليفة بسبب بلاغته ويشرف كذلك علىٰ بعض الدواوين وخاصة الخاتم . هذا اضافة الىٰ الفضل بن الربيع حاجب الرشيد وعلي بن عيسىٰ بن ماهان والي خراسان وهرثمة بن اعين ومحمد بن الليث وغيرهم سنأتي علىٰ ذكرهم حين الكلام عن الكتلة المنافسة للبرامكة . ولابد لنا ان نقول بعد ذلك كله بأن سلطة البرامكة الفعلية الرسمية في عهد نفوذهم لم تكن كبيرة جداً فسلطة الفضل البرمكي علىٰ

المشرق وفي البلاط كانت قصيرة ، اما سلطة جعفر البرمكي فقد كانت اسمية على ولايات المغرب . ولهذا فإن نفوذهم كان غير مباشر وغير رسمي أكثر من كونه مباشراً ورسمياً في معظم هذه الفترة غير ان هذا لا يمنع من كونه قوياً ومؤثراً .

ومهما يكن من أمر فإن مؤرخينا الرواد يؤكدون بما لا يقبل الشك بأن خلافات الرشيد مع البرامكة كانت بالدرجة الاولى خلافات سياسية . إن نفوذ البرامكة نما بصورة تدريجية ؛ حتى ان يحيى البرمكي جمع في يده الوزارتين« الدواوين والخاتم ، وان جعفراً تصرف في بعض الامور وكأنه الخليفة ، وان الفضل سمي «بالوزير الصغير» حيث كان ابوه يُعدّه لكي يخلفه في الحكم والمسؤولية . ان هذا النفوذ أثار شكوك الرشيد وأذكى فيه تجاربه المريرة حين كان ولياً للعهد وهذا - على حد قول ابن الطقطقي - شيء لا تحتمله نفوس الملوك[41] . وعبّر الجهشياري عن موقف الرشيد هذا بقول الخليفة نفسه متهماً يحيى :

«استبد بالامور دوني وامضاها على غير رأيي وعمل بما أحبه دون محبتي»[42] .

ومما لا شك فيه فإن نفوذ البرامكة زاد من اهلهم واشياعهم ومواليهم المنتشرين في مراكز مهمة في الدولة مما أثار تخاوف الرشيد من عواقب هذا الوضع على عائلة الرشيد نفسه وكتلته في البلاط والادارة وعلى مصير الخلافة نفسها . ولعل أقرب رواية الى الصحة والتوثيق هي رواية جبريل طبيب الخليفة الخاص يشير بأن الرشيد كان مرتاحاً في ايامه الاولى من تسيير البرامكة للاعمال وكان يثني عليهم ، ولكن بعد ان زاد نفوذهم بحيث طغى على سلطته آثار قلقه من اهدافهم فعلق يوماً على يحيى البرمكي[43] :

«فعل الله به وفعل - يذمه ويسبه - استبد بالامور دوني وأمضاها على غير راي وعمل بما أحبه دون محبتي» .

واكد ذلك اكثر من رواية تاريخية نذكر منها على سبيل المثال ما رواه الاصفهاني :

«ان في دولة الرشيد دولة أخرىٰ ملوكها البرامكة»[٤٤].

وأشار اليه ابن الطقطقي :

«ان جعفراً والفضل ابني يحيىٰ ظهر منهما من الادلال ما لا تحتمله نفوس الملوك».

ويرىٰ ابن خلدون :

«انما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم علىٰ الدولة».

وفيما يتصل بالخلافات السياسية وموقف البرامكة المتسم بالمرونة والتوفيق تجاه العلويين وكذلك علاقاتهم الوطيدة بعبد الملك بن صالح الهاشمي العباسي الذي اتهمه الرشيد بأنه يطلب الخلافة لنفسه[٤٥] وهذا ما جعل البرامكة في موقف مرن او متساهل تجاه الشخصيات التي تشكل خطراً علىٰ سلطة الرشيد. حيث تشير رواية تاريخية بأن الرشيد حين قبض علىٰ عبد الملك بن صالح :

فشملهم [البرامكة] بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد[٤٦].

اما السبب الثاني في سقوط البرامكة فيعود الىٰ ثرائهم الفاحش وجمعهم الكبير للاموال. ولدينا العديد من الروايات التي تؤكد هذا الثراء. فعند سجن البرامكة قابل الرشيد يحيىٰ البرمكي[٤٧] وذكّره بالاسراف في الاموال من قبلهم مقابل حجبها عن الخليفة. وفي رواية أخرىٰ ان الخليفة قال عنهم : «نهبوا مالي وذهبوا بخزائني»[٤٨]. وكان الرشيد عند تجواله لا يمر من امام بساتين زاهية او املاك كبيرة الا وقالوا له هذا من املاك البرامكة، ويبدو ان املاك البرامكة وصلت ـ حتىٰ اذا أخذنا الحيطة والحذر في تعاملنا مع الروايات ـ حد الخيال!! وكانت قصورهم يشار اليها بالبنان من حيث الرونق والهندسة والبذخ ونحن نعلم ان جعفراً البرمكي بنىٰ قصراً فخماً تحول فيما بعد الى مقر للخلافة. وكان للبرامكة ممتلكات واراض كثيرة في البصرة وينقل الرواة ان البرامكة كانوا لا يتورعون في ابدال قنوات المياه لتنظيف بعض الاراضي السبخة العائدة لهم دون التفكير في الاذىٰ الذي يصيب الاراضي الاخرىٰ[٤٩]. ويبدو ان البرامكة كانوا قد حُذّروا من

قبل اصدقائهم بالا يتنافسوا مع الرشيد في الصرف والا يمنعوا عن الرشيد الاموال فقال جعفر البرمكي :

«ان الرشيد اعجز من ان يقوم بما يسيء الينا وانه والله ما اكل الخبز الا بنا وان دولته لم تقم الا على اكتافنا»[٣٠].

اما السبب الثالث الذي ساعد على سقوط البرامكة فيعود الى عدم تحرج البرامكة في مجالسهم في الخوض بمناقشات تتصل بكافة العقائد والمذاهب الدينية والسياسية والكلامية . وتشير روايات[٣١] تاريخية الى ان مجالسهم كانت تزخر بالشعراء والكتّاب والادباء وأصحاب الفرق والمتكلمين ، كل يدلي بدلوه ويبدي وجهة نظره . ومن هذا الباب اتهم البرامكة بالميل للعلويين او المعتزلة او بالشعوبية والزندقة وغيرها من التيارات الفكرية التي كانت معروفة في عصرهم . بينما كان راي الرشيد بأن الجدال في مثل هذه الامور دون ضوابط يؤدي الى الخلط والتشويه وخاصة على العامة من الناس ، كما وانه يسمح لمذاهب وتيارات معادية بالانتشار وهذا بدوره يشكل خطراً على سلامة الدولة وامنها لانه يؤدي الى ضعف عوامل التماسك وغلبة عوامل الانفصال .

وهكذا ففي الوقت الذي كان الرشيد مشغولاً بالتصدي للتيارات الدينية والسياسية المعارضة للخلافة العباسية لأسباب تتعلق بأمن الدولة ، كان البرامكة في مجالسهم يفسحون المجال لهذه التيارات المختلفة بالتعبير عن نفسها بمختلف الوسائل !!

ولابد لنا ونحن نناقش موقف البرامكة الفكري ان نتطرق الى مسألة مهمة وهي ميلهم الى الثقافة الفارسية والى تطبيق القيم والتقاليد والمراسيم الايرانية في الدولة العباسية . فاذا اهملنا اتهامات المؤرخين المتأخرين التي فيها نصيب كبير من التلفيق والمبالغة ، نلاحظ بأن ثقافة البرامكة كانت متنوعة تجمع بين التراث الفارسي والهندي ثم العربي بعد ان جاءوا الى العراق وسكنوا البصرة . وهنا نذكر ان الخليفة المؤسس ابا جعفر المنصور كان قد اتهم جدهم خالداً بالميل الى العجم

في مناقشة معه حول هدم ايوان كسرى[٥٢]. ولابد ان نلاحظ كذلك بأن البرامكة اتخذوا سلوكاً طيباً مع سكان الاقاليم الشرقية حين تولوها على عكس سلوكهم في الاقاليم الغربية . وفي مسألة ولاية العهد كان الرشيد يرى ان ابنه الامين موهوبٌ اكثر من ابنه الاكبر المأمون اضافة الى كونه من اب وام عربيين ولذلك رشحه للخلافة الا ان يحيى لم يكن على رأي الخليفة وعلى اقل تقدير لم يبد رأيه[٥٣]. ورغم وجود روايات اخرى[٥٤] ترى بأن البرامكة وخاصة الفضل البرمكي هم الذين رشحوا الامين لولاية العهد فالمرجح انهم غيَّروا رأيهم بعد فترة حين أدركوا بأن الامين وقع تحت تأثير امه زبيدة والفضل بن الربيع وساندوا المأمون بن مراجل الفارسية[٥٥]. وقد ادخل البرامكة تقاليد وعادات الارستقراطية الايرانية في مجالسهم وحفلات سمرهم ، كما وقربوا شعراء وكتّاب فرساً واعتمدوا عليهم نذكر منهم الرقاشي وأبا نؤاس وسهل بن هارون من شعوبيين تلك الفترة ، وكان للمغني الفارسي الاصل ابراهيم الموصلي مكانة خاصة عندهم . ولا ننسى انهم قدّموا الزرادشتي الفارسي الفضل بن سهل ، الذي لم يكن قد اعتنق الاسلام بعدُ ، الى البلاط العباسي ؛ كما قدموا غيره من الموالي من امثال منصور بن زياد ويوسف بن القاسم وثابت بن موسى ابي الوزير. اما بالنسبة للنظم الادارية العباسية فلعل البدعة الجديدة التي ادخلها البرامكة والتي يمكن نسبتها الى النظم الساسانية هي منصب (قاضي القضاة) التي كانت تعرف في عصر الساسانيين باسم (موباد موباذان)[٥٦]. واذا ما اضفنا الى ذلك كله ما عُرف عن البرامكة من اغداق الاموال على الشعراء والفنانين وغيرهم تبين لنا خطورة هذه التيارات الادبية والفكرية التي غذّاها البرامكة وساندوها بالمال دون وازع او رادع .

ولعل العامل الرابع والاخير لسقوط البرامكة يعود الى رد الفعل على نفوذهم وسياستهم التي تمثلت في العوامل الثلاثة آنفة الذكر . فقد ظهر تكتل معاد للبرامكة في البلاط والادارة العباسية . وربما كان ابرز من يمثل هذا التكتل هو الفضل بن الربيع[٥٧]. وكان الرشيد قد عينه بعد وفاة الخيزران مباشرة على ديوان النفقات

العام والخاص واستمر نفوذه يتصاعد حتىٰ أصبح حاجب الخليفة بعد ان عزل الرشيد البرامكة من هذا المنصب ، ثم اخذ الخليفة الخاتم من جعفر البـرمكي واعطاه لابن الربيع وبذلك استكمل هذا الاخير نفوذه في بلاط العباسيين .

وتشير الروايات التاريخية الىٰ جذور الخلاف والمنافسة بـين الفضل بن الربيع والبرامكة حتىٰ ان خلافاً دار مرة بحضرة الرشيد بين جعفر البرمكي وابن الربيع ونعت الاول الاخير باللقيط مشيراً الىٰ أصل ابيه غير المعروف[٥٨]!! ، علىٰ ان الفضل بن الربيع لم يكن وحده في الميدان بل كانت تسانده زبيدة زوجة الخليفة حيث تشير روايات تاريخية الىٰ معارضتها لنفوذ البرامكة وتسلطهم علىٰ الامور وزاد الامر تعقيداً عدم وقوفهم الىٰ جانب ابنها الامين في ولاية العهد . وكان كل من هرثمة بن امين وعلي بن عيسىٰ بن ماهان ويزيد بن مزيد الشيباني ومحمد بن الليث وآل قحطبة والعديد من الهاشميين ضدهم . وقد ذكّر محمد بن الليث الرشيد بمسؤولياته تجاه الامة[٥٩] . وكانت البرامكة تكره ابن الليث «لانه فيه ميلاً علىٰ العجم» . اما ابو يوسف[٦٠] القاضي فقد اشار الىٰ كثرة الظلم ايام البرامكة وطلب من الرشيد ان يجلس بنفسه للمظالم . واتهم علي بن عيسىٰ موسىٰ البرمكي بمحاولة حبك مؤامرة في خراسان ضد الدولة . وأصبح هرثمة بن أعين قائداً لحرس الخليفة الخاص بعد ان اخذ الرشيد قيادة الحرس من جعفر البرمكي .

لقد استطاعت هذه الكتلة بزعامة الفضل بن الربيع ان تحرك حفائظ الرشيد علىٰ البرامكة بتذكيره باستبدادهم وثرائهم وسوء سياستهم فيما يتعلق بولاية العهد بحيث ارادوا الايقاع بالاخوين حتىٰ انهم نبهوا الرشيد بأبيات من الشعر تقول[٦١] :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد — وشفت انفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة — انما العاجز من لا يستبد

واغلب الظن ان هذه العوامل الاربعة قررت مصير البرامكة سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م ، علىٰ ان سقوطهم ، وان حاولت الروايات الشعوبية ابرازه على انه

نزوة من نزوات الخليفة ، كان مدبراً له منذ مدة طويلة بسبب ردود فعل الخليفة وغيره علىٰ سياساتهم . وقد استوزر الرشيد الفضل بن الربيع بعد سقوط البرامكة وبقي كذلك حتىٰ آخر خلافته .

الخاتمــة :

ولابد لنا في خاتمة المطاف من التأكيد علىٰ بعض المظاهر التاريخية في هذا الحدث ، وربما كان اولها : ان سقوط البرامكة بالسهولة التي سقطوا فيها يدل علىٰ مدىٰ قوة الخلافة العباسية في تلك الفترة ومدىٰ المبالغة في الآراء الشعوبية التي تبرز دور الفرس في الحياة السياسية والادارية للدولة . فقد كان العرب ولمّا يزالوا أصحاب اليد الطولىٰ في الأمر . وثانيها ان سقوط البرامكة لم يكن ـ كما تدّعي الشعوبية ـ مذبحة فلم ينتقم منهم احد انتقاماً اهوج ولم تصلنا روايات موثوقة بأنّ احداً من البرامكة ـ باستثناء جعفر ـ او مواليهم قد قتل .

وأخيراً وليس آخراً فاذا كان البرامكة قد سقطوا بسبب سياساتهم التي أثارت حفيظة الرشيد وغير الرشيد عليهم . فإنّ الشعوبية من بعدهم قد تبنت قضيتهم وثأرت ـ دون تخويل منهم علىٰ اغلب الظن ـ من الخلافة العباسية والقيم العربية الاسلامية . فوصفت الرشيد بأبشع الصور منها : معاقرته الخمرة وحبه لمجالس الجواري واقباله علىٰ الغلمان وحدّة مزاجه . كما اختلقوا اسطورة العباسة وميمونة اختي الرشيد للنيل من الشرف العربي .

وصوّروا سقوط البرامكة بداية النهاية لعصر القوة في الخلافة العباسية . بل لفّقوا عن الرشيد اقوالاً تدل علىٰ ندمه علىٰ فعلته ولعل فيما أوردناه من تحليل وما سقناه من روايات تاريخية قد اوضح حقيقة الاسطورة وأبان مواطن الدس الشعوبي وردَّ عليها . ان سقوط البرامكة نموذج واحد من نماذج عديدة لعبت بها اليد الشعوبية فشوهت حقيقتها وبثتها بين الناس الذين تناقلوها عن قصد اودون قصد .

هوامش الفصل التاسع

(١) Bouvat, L. Les Barmecides d'apres lesautem..., Paris, 1909

(٢) جرجي زيدان، العباسة اخت الرشيد، رواية القاهرة.
جميل المدور، حضارة الاسلام في دار السلام، مصر ١٩٠٥.

(٣) عبدالعزيز الدوري، العصر العباسي الاول، بغداد ١٩٤٢.

(٤) راجع: دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الجديدة، (مادة البرامكة) ـ دائة المعارف البريطانية (مادة البرامكة).

(٥) الطبري، تاريخ، ج١ ص ٣٤ ـ ٣٥ الطبعة الحسينية.

(٦) راجع: دائرة المعارف الاسلامية (مادة هارون الرشيد) الطبعة الجديدة.

(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٠٧، ٢٣٣ ـ الطبري، تاريخ ج ١٠ ص ٨٠.

(٨) Sourdel, Le Vizirat Abbaside, Damas, 1959 Vol. 1. p. 175

(٩) الجهشياري، المصدر السابق، ص ١٧٧ ـ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٢ ص ٤٤٣.

(١٠) الطبري، المصدر السابق، ج١٠ ص ٥٠.

(١١) سورديل، المصدر السابق، ص ١٣٦ ـ ١٣٨.

(١٢) الجهشياري، ٢١٠ ـ ٢١٢ ـ سورديل، المصدر السابق، ١٤٠ ـ ١٤١.

(١٣) الطبري، تاريخ، القسم الثالث، الطبعة الاوربية ص ٥٩٩ ـ الجهشياري، ١٧٥ ـ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٢ ص ٣٣٤.

(١٤) الجهشياري، ص ١٩١ ـ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٩٨.

(١٥) الطبري، الطبعة الاوربية، القسم الثالث، ص ٦٣١، الطبعة الحسينية ج١٠ ص ٦٣، العيون والحدائق للمؤلف المجهول، ص ٢٩٢.

(١٦) العيون والحدائق، ص ٢٩٣ ـ الجهشياري، ص ١٩٣.

(١٧) الجهشياري، ص ٢٠٤، ١٨٩ ـ الطبري، ج١٠ ص٦ الطبعة الحسينية ـ ابن الطقطقي، الفخري، ص ٢٠٥.

(١٨) المقريزي شذور، ص ١١ ـ ١٢.

(١٩) الطبري، تاريخ، ج١٠ ص ١٢١ الطبعة الحسينية.

(٢٠) الطبري، القسم الثالث، ٦٧٥ الطبعة الاوربية ـ الجهشياري، ص ٢٣٤ ـ ابن خلكان، وفيات، ج١ ص ٣٠٠.

(٢١) الجهشياري، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦ ـ الاصفهاني، الاغاني، ج١١ ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢٢) المسعودي، مروج، ج٦ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٨ ـ ابن خلكان، ج١ ص ٣٠١.

(٢٣) راجع عن هذه الروايات Bauvat op. cit., p.p. 22-29.

(٢٤) دائرة المعارف الاسلامية الطبعة القديمة الجزء الاول ٦٨٢.

(٢٥) راجع دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة القديمة، الجزء الاول ص ١٠٢١.

(٢٦) Bouvat, op. cit., pp. 75-76

(٢٧) كرد علي، الاسلام والحضارة العربية، ج٢ ص ٢١٣ . ـ الدوري العصر العباسي الاول، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ . ـ حتى تاريخ العرب، ص ٢٦٤ .

(٢٨) الطبري، ج١٠ ص ٨٣ الحسينية . ـ العيون والحدائق، ص ٢٠٧ . ـ ابن خلكان، ج١٠ ص ٢٩٦ .

(٢٩) الجهشياري، ص ٢٠٤ .

(٣٠) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٦٤ .

(٣١) الطبري، ج١٠ ص ٥٤٦ . ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٢ ص ٨٤ .

(٣٢) سورديل، المصدر السابق، ص ١٦٧ .

(٣٣) د. عبدالمنعم ماجد، اضواء على البرامكة، الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٣ ص ١٠٦ .

(٣٤) الجهشياري، ص ٢٤٣ . ـ العيون والحدائق، ص ٣٠٧ .

(٣٥) الجهشياري، ص ١٩٠ . ـ الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ٤٦٨ ـ ٤٧٠ . الطبري، تاريخ، القسم الثالث، ٦١٢ ـ ٦١٤ الطبعة الاوربية .

(٣٦) الجهشياري، ص ١٩٥ ـ ١٩٧ .

(٣٧) الجهشياري، ص ٢٢٧ .

(٣٨) ابن حزم، الفصل في الملل، ج٢ ص ٩٣ . ـ ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٠ .

(٣٩) حول نماذج من الروايات الموضوعة في هذا الباب راجع مثلاً : الجاحظ، البيان والتبيين ج٣ ص ٢٠٩ . ـ ابن قتيبة عيون الاخبار ج١ ص ٥١، المعارف ص ١٩٤ . ـ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٧٠ . ـ الذهبي، العبر في خبر من غبر ج١ ص ٢٤٦ .

(٤٠) ابن خلدون، المقدمة، ج١ ص ١٤ .

(٤١) ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٨٨ .

(٤٢) الجهشياري، ص ٢٢٦ .

(٤٣) قارن بين الروايتين في الجهشياري، ٢٢٥ ـ ٢٢٦ . ـ الفخري ص ٢٨٧ .

(٤٤) الاصفهاني، الاغاني، ج٤ ص ٣٩ .

(٤٥) الطبري، تاريخ، ج١٠ ص ٨٩ ـ ٩١ الطبعة الحسينية .

(٤٦) المصدر السابق .

(٤٧) الجهشياري، ص ٢٤٤ . ـ الطبري، ج١٠ ص ٨٠ الطبعة الحسينية .

(٤٨) الجهشياري، ص ٢٤٢ .

(٤٩) راجع : سورديل، المصدر السابق، ج١ ص ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٥٠) المسعودي، مروج الذهب، ج٦ ص ٤٠٧ .

(٥١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص ٣٦٩ . ـ الفهرست ص ٢٥٠ . ـ راجع كذلك سورديل،

المصدر السابق ، ج١ ص ١٧٧ ـ ١٨١ .

(٥٢) الطبري ، تاريخ .

(٥٣) راجع سورديل ، المصدر السابق ، ج١ ص ١٥٢ فما بعد . ـ قارن عبدالمنعم ماجد المصدر السابق ، ص ١١١ ـ ص ١١٢ .

(٥٤) الطبري ، القسم الثالث ، ٦١٠ ـ ٦١١ الطبعة الاوربية . ـ العيون والحدائق ، ج١ ص ٢٩٣ .

(٥٥) عبدالمنعم ماجد ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٥٦) سورديل ، المصدر السابق ، ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٥٧) عن هذه الكتلة راجع : ابن خلكان ، ج٢ ص ٣٦٣ . ـ الفخري ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ الاغاني ، ج١١ ص ٩٠٨ . ـ المسعودي ، مروج ج٦ ص ٢٧٢ . ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦ .

(٥٨) الجهشياري ، ص ٢١٦ .

(٥٩) الطبري ، ج١٠ ص ٨٠ المطبعة الحسينية .

(٦٠) ابو يوسف ، الخراج ، القاهرة ١٩٥٢ ص ١١١ ـ ١١٢ . ـ هذا مع العلم ان جعفراً البرمكي كان قد تتلمذ على ابي يوسف وتعلم منه الفقه والقانون .

(٦١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٣ .

الفصل العاشر

وزارة الفضل بن الربيع



في كنف والده :

ليس هناك من شك بأن الفضل عاش حياة مرفهة تختلف عن تلك الحياة القاسية التي عاشها ابوه الربيع بن يونس بن محمد بن ابي فروة في سني حياته الاولى . فالروايات[1] التاريخية تجمع على ان أصله غامض ونسبه مختلف عليه . فمنها ما يذهب الى ان الربيع كان لقيطاً حيث قال له احدهم في مجلس المنصور جواباً على تعليق له : (انك معذور في ذلك لأنك لم تذق حلاوة الآباء)[2] . وقد ناداه عبدالله بن عياش المنتوف في احدى المناسبات قائلاً : (يا شبه عيسى بن مريم ....)[3] والراجح انه كان عبداً ليونس بن محمد من جارية بالمدينة ابتاعه زياد زياد بن عبدالله الحارثي ثم أهداه الى الخليفة ابي العباس .

وفي عهد المنصور العباسي استطاع الربيع ان يتقرب اكثر الى الخليفة ، فأصبح في معية ياسر صاحب وضوء الخليفة ثم انتقل للعمل مع ابي الخصيب الحاجب حتى تقلد هو منصب الحجابة للخليفة وهكذا وبعد حياة شاقة متدرجة استطاع الربيع أن يكون احدى الشخصيات الرئيسية في البلاط العباسي يظهر دوماً الى جانب الخليفة ويجيب على اسئلة المنصور واستفساراته وينفذ اوامره وتعليماته ولا شك فإن المنصور اعجب به لخفته وذكائه فأعتقه[4] .

ولم يقف طموح الربيع بن يونس عند هذا الحد[5] ، فبعد سقوط وزارة ابي ايوب المورياني حيث كان دور الربيع بارزاً في سقوط المورياني ، قلد المنصور الربيع مولاه (نفقاته والعرض عليه)[6] ، اضافة الى وظيفة الحاجب . ان رواية الجهشياري آنفة الذكر يؤيدها الطبري[7] لا تشير الى ان الربيع تقلد الوزارة للمنصور . ولكن الجهشياري نفسه يعود فيقول بأن المنصور قال للربيع :

«وقد وليتك الوزارة والعرض ووليت ابنك الفضل الحجابة»[8] .

وقد أيد رؤية الجهشياري هذه المسعودي والخطيب البغدادي وابن الطقطقي وابن خلكان[9] على اننا نرى بأن الصلاحيات الخاصة بنفقات البلاط كانت محدودة ، كما وان (العرض) كان يعني تقديم العرائض والالتماسات للخليفة

ومسؤولياتها محدودة ايضاً . ومما يضعف الرواية اكثر ورود اسم الفضل فيها والمعروف ان هذا الاخير لم يظهر دوره بارزاً في المناصب الرسمية الا في عهد المهدي وعلىٰ هذا فأغلب الظن ان لقب (وزير) لم يعط للربيع ، حتىٰ لو صدقنا رواية الجهشياري فإن لقب الوزير الذي منحه الخليفة لا يدل علىٰ منصب رسمي بقدر ما يدل علىٰ مرتبة فخرية خاصة بالبلاط اعلىٰ من مرتبة الحاجب ، فلم تكن صلاحيات الربيع لتتجاوز نفقات البلاط والعرض اضافة الىٰ مشورة الخليفة باعتباره (مولاه) وأحد صحابته المقربين .

ان هذا التفسير يتماشىٰ تماماً مع طبيعة المنصور التي قال عنها ابن الطقطقي[10] :

«لم تكن الوزارة في ايامه لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته مع انه كان يشاور في الامور دائماً . وانما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزارة» .

وقد قال الربيع عن المنصور انه :

«كان يرىٰ باطن الامور بمرآة من الراي كما يرىٰ ظاهرها»[11] .

فالمنصور ، في اعتقادنا لم يتخذ وزيراً بالمعنىٰ المتعارف عليه واذا كان قد لقب الربيع او غيره بهذا اللقب فإنه لم يعطه واجبات الوزير الادارية والسياسية المهمة انما باشر الامور بنفسه يساعده في ذلك كبار مستشاريه وصحابته .

وحين شب الفضل في كنف والده الربيع عمل هذا علىٰ تقريبه للبلاط العباسي فتشير رواية الجهشياري ان المنصور سأل الربيع عن حاجته فقال :

«حاجتي يا أمير المؤمنين ان تحب ابني الفضل . قال : ويحك ان المحبة لا تقع ابتداءاً وانما تقع بأسباب . قال الربيع قد اوجدك الله السبيل اليها قال وما ذاك؟ قال : تنعم عليه فاذا انعمت عليه احبك فاذا أحبك أحببته ...)[12] .

ومن الواضح ان المنصور وثق بالربيع بن يونس فاعتمد عليه بسبب كفاءته ،

تشير رواية ان الربيع (كان حازماً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والاعمال حاذقاً بأمور الملك)[١٣] فقد كان الربيع الىٰ جانب المنصور يوم تمرد الراوندية في هاشمية الكوفة ماسكاً بزمام دابة الخليفة لا يفارقها حتىٰ اخذها منه معن بن زائدة الشيباني بأمر الخليفة[١٤] . وكان الربيع احد الذين اختارهم الخليفة للاشراف علىٰ تخطيط العاصمة الجديدة بغداد وبنائها[١٥] . علىٰ ان اهم دور سياسي لعبه الربيع في هذه الفترة هو موقفه الحاسم في امر البيعة للمهدي فقد كان الطامعون يتربصون موت الخليفة في طريق الحج سنة ١٥٨هـ/ سنة ٧٧٥م ولكن الربيع اوهمهم بأن المنصور لايزال حياً يرزق وانه يطلب منهم توكيد البيعة لولي عهده المهدي فبايع الجميع للمهدي ثم اعلن الربيع موت المنصور وأشرف علىٰ دفنه[١٦] .

واستمر دور الربيع في خلافة المهدي حين عين حاجباً ، ولعب دوراً مهماً في تعيين الوزراء واسقاطهم فقد اسقط وزارة ابي عبيدالله معاوية بن يسار بسبب سوء علاقته به متهماً ابنه بالزندقة ، وقدم يعقوب بن داود الىٰ مرتبة الوزارة . ولعل منصب الوزارة بدا يأخذ شكلاً متبلوراً وتتضح معالمه حيث يمكن القول بأن يعقوب بن داود كان اول وزير تشير مصادرنا التاريخية الىٰ اتخاذه هذا اللقب بصورة رسمية[١٧] .

ان تعاظم اثر الربيع في السياسة والادارة في عهد المهدي ناجم ، في اعتقادنا ، من ازدياد أهمية الموالي في بلاط المهدي . وفي رواية تاريخية[١٨] ان عبدالصمد بن علي عم المهدي حذره من الافراط في تقريب الموالي قائلاً :

«.... انك قد صنعت من ذلك ما افرطت فيه ، قد وليتهم امورك كلها وخصصتهم في ليلك ونهارك ولابد من تغيير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان» .

فأجابه المهدي :

«ان الموالي يستحقون ذلك وليس احد يجتمع لي فيه ان أجلس للعامة فأدعو به فأرفعه حتىٰ تحك ركبته ركبتي ثم يقوم من ذلك المجلس فأستكفيه سياسة دابتي

فيكفيها لا يرفع نفسه عن ذلك الا موالي هؤلاء فإنهم لا يتعاظم ذلك . ولو اردت هذا من غيرهم لقال : ابن دولتك والمتقدم في دعوتك وابن من سبق الى بيعتك لا ادفعه عن ذلك » .

وكان المنصور قد اوصىٰ ابنه ان يقرب الموالي قائلاً :

«وقربهم واستكثر منهم فأنهم مادتك لشدة ان نزلت بك»[19] .

ولابد لنا ان نقول بأن موالي البلاط ككتلة اجتماعية لا تعني الفرس بل كانت خليطاً من العرب والفرس وغيرهم وكان بينهم نسبة كبيرة من العبيد المحررين من مختلف الاجناس ولعل ميزة هذه الكتلة المهمة هو ارتباطها بالولاء للخليفة العباسي والاخلاص للدولة العباسية الذي تضعه فوق كل اعتبار آخر عنصرياً كان ام اقليمياً ام غيرهما[20] . ان الثقة الكبيرة التي خصها المهدي بمواليه هي التي تفسر الاجراء المهم الذي اتخذه هذا الخليفة حين اناب مولاه وحاجبه والمسؤول عن (ديوان الرسائل) الربيع بن يونس في بغداد لما قرر السفر سنة ١٦٨هـ/ سنة ٧٨٥م الى جرجان لاقناع ابنه الهادي بالتنازل عن ولاية العهد الى هارون الرشيد[21] ان انابة الربيع عن الخليفة في بغداد كانت سابقة مهمة جداً ليس لها مثيل في تاريخ العباسيين قبل عهد المهدي وهي تدل علىٰ اهمية كتلة الموالي من جهة وتعاظم نفوذ الربيع من جهة اخرىٰ .

وحين علم الربيع بن يونس بموت المهدي بادر الىٰ اخذ البيعة للهادي وهذا الاجراء يدل علىٰ بعد نظر سياسي اضافة الىٰ انه اخمد تمرداً عسكرياً قام به الجند في بغداد بتحريض من الخيزران التي كانت تفضل ابنها هارون علىٰ الهادي . ولكن الاخبار التي وصلت الخليفة الجديد وهو لايزال يجد السير علىٰ (دواب البريد) الىٰ بغداد في غير صالح الربيع ولذلك نلاحظ بأن الهادي يرسل من يهدد الربيع ويقصيه عن وظيفته ويحل يحيىٰ البرنكي محله[22] .

ولكن الربيع استطاع ان يعيد ثقة الخليفة الجديد ، فقد أرسل ابنه الفضل لاستقباله مصحوباً بالهدايا الثمينة ولم يمض وقت طويل حتىٰ تقلد الربيع (وزارته

«وزارة الهادي» وتدبير اموره وما كان عمر بن بزيع يتولاه من دواوين الازمة)[23].

ولكن الهادي ما لبث ان (صرف الربيع عن الوزارة ... وأقره علىٰ ديوان الازمة)، وفي رواية للمسعودي[24] انه تقلد الخاتم كذلك. ورغم ان العديد من الاشخاص تمتعوا بنفوذ سياسي واداري خلال عهد الهادي الا انهم لم يكونوا، علىٰ ما يبدو، بنفوذ الربيع.

ولكن الهادي الذي وصف بأنه كان (متيقظاً غيوراً ... شديد البطش جريء القلب[25]) قرر التخلص من حيث تشير روايات عديدة[26] الىٰ دور هذه الأسباب في موت الربيع بن يونس المفاجيء والذي يشبه الغموض. ومهما كانت اسباب التي دفعت الىٰ قتل الربيع فإنها تعكس المؤامرات التي كانت تحاك في البلاط بين المتنافسين علىٰ النفوذ والسلطة. وقد وقع الربيع ضحية لاحدىٰ هذه المؤامرات التي كثيراً ما اشترك هو في حبكها وتدبيرها في عهد المهدي العباسي.

الفضل يخلف والده:

ان الهادي الذي تخلص من الربيع بن يونس، قلد ابنه الفضل الحجابة[27]. واستمر الفضل حاجباً لهارون الرشيد حتىٰ نكب البرامكة سنة ١٨٧هـ/ سنة ٨٠٣م. «فلما نكب البرامكة استوزره بعدهم ... ومازال الفضل بن الربيع علىٰ وزارته حتىٰ مات الرشيد بطوس»[28].

سلطة الفضل في عهد الرشيد:

يعد الفضل من الخصيات ذات النفس العربي والولاء العراقي المقربة للبلاط العباسي. وكان يعد من كتلة يزيد من مزيد الشيباني ومحمد بن فروخ الازدي وعبدالله بن خازم التميمي وعبدالملك بن صالح العباسي وعبدالله بن علاثة وابان بن صدقة وغيرهم[29]. ولم يكن الفضل علىٰ صلات ودية مع الخيزران ومن ورائها البرامكة. يقول الطبري ان الرشيد قال للفضل:

«يا فضل ، وحق المهدي ، اني لأهم لك يوم توليت الخلافة بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني امي رحمها الله فأطيع أمرها .. فخذ الخاتم من جعفر بن يحيىٰ»[٣٠] .

وفي رواية اخرىٰ[٣١] : ان الفضل عرض علىٰ يحيىٰ البرمكي عشر رقاع لبعض صحابته وطلب منه توقيعها فلم يفعل فنهض قائلاً :

متىٰ وعسىٰ يثني الزمان عنانه ... بتصريف حال والزمان عثور

فتقضى لبانات وتشفى حسائف ... وتحدث من بعد ووقع الامور امور

فسمعه يحيىٰ البرمكي وأرجعه ووقع عليها جميعاً .

وكان الفضل بن الربيع هو الذي اوصل الىٰ الرشيد نبأ اطلاق جعفر البرمكي ليحىٰ العلوي من السجن كما وان اشارة اسحق الموصلي حين سأله الرشيد بما يتحدث الناس ؟ قال : يتحدثون بأنك ستقبض علىٰ البرامكة وتولي الفضل بن الربيع[٣٢] .... كل هذه الروايات وغيرها تعكس المنافسة الحادة بين يحيىٰ البرمكي والفضل بن الربيع وتدل علىٰ دور الفضل في سقوط البرامكة ونكبتهم علىٰ يد الرشيد . وقد شغل الفضل المكانة الاولىٰ في البلاط . ولكن هل استطاع الفضل ان يحل لوحده محل البرامكة ؟ يبدو ان لقب وزير لم يمنح له ، كما وان المؤرخين لا يطلقون عليه هذا اللقب الا نادراً ، بل ان الطبري يشير بأن الرشيد امره بأخذ الخاتم من جعفر البرمكي وفي رواية اخرىٰ يقول :

«وولي الفضل نفقات العامة والخاصة وبادوريا والكوفة وهي خمسة طسايج فأقبلت حاله تنمي الىٰ سنة سبع وثمانين ومائة»[٣٣] .

اما وكيع فيرىٰ ان الفضل كان مكلفاً برعاية امور الرشيد (يقوم بأمره ويوكله) وفي رأي الجهشياري انه (اختص بخدمة الرشيد في بلاطه والاشراف علىٰ شؤونه الخاصة)[٣٤] .

ومن ذلك نلاحظ ان الرشيد لم يجعل من الفضل بن الربيع خلفاً للبرامكة في مسؤولياتهم الواسعة فقد كان يشاركه العديد من الشخصيات في الاشراف علىٰ

الادارة والدواوين يقول الجهشياري[٣٥]:

«ولما شخص الرشيد خراسان لانتفاضها برافع بن الليث خلف محمد (الامين) ببغداد وجعل معه يحيىٰ بن سليم الكاتب يكتب معه ويدبر اموره وشخص معه اسماعيل بن صبيح وكان يتقلد ديوان الرسائل وديوان الصوافي وديوان السر. وشخص معه ايوب بن ابي سمير يعرض عليه وكان الفضل بن الربيع يعرض عليه ايضاً. وكان يكتب للفضل عبدالله بن نعيم الكاتب. وأشخص معه المأمون وعلىٰ كتابته وأمره كله الفضل بن سهل».

ولذلك نلاحظ بأن المسعودي[٣٦] يضع اسماعيل بن صبيح الحراني في مرتبة الفضل بن الربيع في نفوذهما الاداري والسياسي في اواخر عهد الرشيد.

ولعل الملاحظة الجديرة بالذكر ان اختصاصات ما يسمىٰ الوزير عادت الىٰ سابق عهدها الذي كانت عليه قبل حكم البرامكة فاقتصرت صلاحياته علىٰ النفقات والعرض والىٰ ذلك يشير البروفسور سورديل حين يقول:

«ان الفضل لم تكن له وظائف رسمية اكثر اهمية من تلك التي كانت لوالده الربيع في نهاية خلافة المنصور، ولم يكن يملك سلطات واسعة كالتي تمتع بها قبل بضع سنوات، حاملاً نفس المرتبة، الوزير يحيىٰ بن خالد»[٣٧].

ويظهر ان مسؤولية الفضل بن الربيع انحصرت بالدرجة الاولىٰ فس تدبير امور الرشيد في البلاط ففي رواية تاريخية:

«لما انقضىٰ امر البرامكة .... اختلت الامور وقصد الفضل بن الربيع لحفظ بخدمة الرشيد في حضرته واضاع ما وراء ذلك»[٣٨].

وفي رواية اخرىٰ:

«وكان الرشيد حج بعد نكبة البرامكة والمدبر لأمره الفضل بن الربيع»[٣٩] ثم ان اسمه يظهر علىٰ قطع النسيج ولعل ذلك يدل علىٰ أنه كان مشرفاً علىٰ ديـوان

الطراز[40].

وهذا يؤكد ان منزلته عند الرشيد تشبه الى حد بعيد مرتبة والده عند المنصور فقد كان من خاصة الرشيد الذي كان يناديه بلقب (يا عباسي)[41] وقد وزع الخليفة الاعمال الادارية الاخرى على مجموعة من الموظفين الجدد الذين لم يخدموا في زمن البرامكة. ويظهر ان الرشيد عاد فأشرف بنفسه على السكة التي كانت من اختصاصات جعفر البرمكي ذلك ان السندي بن شاهك (صاحب الشرطة) الذي تقلد السكة اضافة الى وظيفته لم يظهر اسمه على العملة النقدية وهذا يعني، بطبيعة الحال، انه لم يتمتع بالامتيازات التي كانت لجعفر البرمكي[42].

لقد انتقد المؤرخون ادارة الفضل بن الربيع وقارنوا الانحلال الذي حل بالادارة بالحالة في عهد البرامكة فقال عنه الجهشياري «بأنه (الفضل) أضاع ما وراء بابه»، وفي رواية اخرى ان امور البريد والاخبار باتت في حالة من الفوضى حتى:

«ان الرشيد توفي وعندهم (أي ديوان البريد) اربعة آلاف خارطة لم تفض»[43] وفي اعتقادنا ان تدهور الادارة لا يعزى الى الفضل بن الربيع الذي لم يكن مسؤولاً عن كل الدواوين بل ان الرشيد ، كما أشرنا الى ذلك، وزع المناصب الادارية بين عدد من الموظفين الجدد الذين ليس لهم خبرة ادارية كخبرة موظفي البرامكة الذين مارسوا العمل لفترة طويلة. فقد كان مسرور الخادم وثابت الخادم هما المسؤولان عن أمور البريد والخرائط وليس الفضل بن الربيع. ويعزو البروفسور سورديل هذا الاضطراب الاداري الى تدخل الجيش في السياسة فيقول:

«ولا شك فأن هذا الاهمال يعزى الى التدخل العسكري الذي اشتد فيما بعد خلال القرن التالي»[44].

وقد لاحظنا سابقاً ان بوادر تدخل الجيش في السياسة بدأت حين تمرد جند

بغداد بعد وفاة المهدي بتحريض من الملكة الخيزران واخمد فتنتهم الربيع بن يونس ، كما تمرد الجند ثانية بعد وفاة الهادي وهدئت الحركة بعد ان دفعت لهم السلطة مزيداً من العطاء .

نفوذ الفضل في أوائل عهد الامين :

صحب الفضل بن الربيع الخليفة هارون الرشيد في سفرته الاخيرة لقمع حركة رافع بن الليث في خراسان سنة ١٩٠هـ/ سنة ٨٠٦م . وقد بقي الامين في بغداد يعينه في تدبير الامور يحيىٰ بن سليم . اما المأمون فقد ألح بطلب من الفضل بن سهل علىٰ مرافقة الرشيد في رحلته وقد أجابه الخليفة الىٰ ذلك بلا تردد . علىٰ ان الرشيد توفي فجأة في رحلته هذه في مدينة طوس ١٩٣هـ/ ٨٠٩م . وقام الفضل بنفس الدور الذي قام به والده من قبل حين توفي المنصور ، فقد اخذ الفضل البيعة من القادة ومن بني هاشم[٤٥] كان علىٰ الفضل ان يتخذ موقفاً حاسماً من الاحداث فقرر الاستجابة لتعليمات الخليفة الجديد الامين وكان هذا الاخير قد أرسل كتاباً سرياً الىٰ الفضل مع بكر بن المعتز وفيه يأمره بارجاع الجند الىٰ بغداد وقد جاء في الكتاب الذي يخاطب به صالح بن الرشيد :

> «واضمم الىٰ الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد امير المؤمنين رحمه الله وحرمه واهله وأمره بالمسير معهم فيمن معه من رابطته وجنده .

وفي فصل آخر منه : واياك ان تنفذ رأياً ، او تبن امراً الا برأي شيخك وثقة آبائك الفضل بن الربيع . واقر الخدم علىٰ ما في ايديهم من الاموال والخزائن والسلاح ولا تخرجن احداً منهم عن ضمن ما يلي : الىٰ ان تقدم علمي به . وان امرت لاهل عسكرك بعطاء او رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لاعطائهم علىٰ دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين فكان الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الامور»[٤٦] .

وبعد عودة الفضل بن الربيع الىٰ بغداد أصبح تأثيره كبيراً علىٰ الامين، ويتضح ذلك من روايات عديدة تلقبه بلقب (الوزير)[٤٧] واذا صدقنا رواية المسعودي[٤٨] فمن الواضح انه حصل رسمياً علىٰ هذا اللقب، علىٰ ان الجهشياري يقول بأن الفضل (تقلد العرض) ويظهر من قطعة من النسيج[٤٩] ان الفضل بن الربيع كان يتولىٰ ادارة ديوان الطراز ويتمتع اضافة الىٰ ذلك بشرف وضع اسمه علىٰ الطرز والانسجة والمعروف ان والده الربيع كان يتمتع بنفس الامتياز قبله كما أشرنا الىٰ ذلك . اما الوظائف الاخرىٰ فقد وزعها الخليفة بين عدد من الشخصيات الاخرىٰ . من بينهم : العباس بن الفضل بن الربيع الذي أصبح حاجباً له ومشرفاً علىٰ السكة دون ان يضرب اسمه عليها . وكان البرامكة كما أشرنا سابقاً ، الوحيدين من بين وزراء العباسيين الاوائل الذين حصلوا علىٰ شرف ضرب اسمهم علىٰ السكة . وقد احتفظ اسماعيل بن صبيح الذي كان في عهد الرشيد علىٰ «ديوان الرسائل وديوان السر وديوان الضياع وديوان الصوافي» بمركز القوي في عهد الامين حيث تشير رواية تاريخية الىٰ انه دخل علىٰ الامين قائلاً[٥٠] :

«يا أمير المؤمنين هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه ان تنظر في اعمال الخراج والضياع وجماعات العمال وقد اجتمعت الىٰ اعمال منذ سنة ولم تنظر في شيء منها ولم تأمر فيها وفي هذا دخول خلل في الاعمال» .

وبعد ان وافق الامين في النظر في اعمال الدولة «حضر كتاب الدواوين بأكثر ما في دواوينهم وأقبل اسماعيل يقرأ عليهم ومحمد الامين يأمر وينهي» . هذه الروايات ، دون شك تظهر اسماعيل بن صبيح المسؤول الحقيقي عن الادارة والامور المالية .

من كل ذلك يمكننا القول بأن ادارة الدولة في اواخر عهد الرشيد وفي عهد الامين اصبحت موزعة بين عدد من المسؤولين دون ان يعطي الخليفة هذا الواجب الىٰ شخص واحد بعينه . واذا كان الفضل بن الربيع قد ساعد علىٰ سقوط البرامكة بدافع من العداوة الشخصية والطموح الواسع فانه لم ينجح في ان يحل لوحده

محلهم كما وان الخليفة نفسه لم يكن راغباً في خلق شخصية جديدة تحتكر ادارة الدولة كما فعل البرامكة ولهذا نلاحظ العديد من الموظفين الكفوئين يساهمون في ادارة الدولة اضافة الى الفضل بن الربيع .

الفضل بن الربيع والحرب الأهلية :

تصف رواية في تاريخ بغداد الفضل بن الربيع بأنه «أتيه الناس وأشدهم تعاظماً» ، وقد أدرك الفضل ان من الايسر عليه ان يحكم ويتنفذ بوجود الامين في الخلافة فقرر الاستجابة لطلب الامين مخالفاً بذلك رغبة الخليفة المتوفي الرشيد ، فأمر بالعودة الى بغداد ، ورفض استقبال الرسل الذين أرسلهم ولي العهد الثاني المأمون ولسان حاله يقول «لا ادع ملكاً حاضراً لآخر لا ادري ما يكون من أمره» .

ويرى البروفسور كبريلي يشاركه في ذلك البروفسور سورديل بأن الفضل بن الربيع كان أشد الرجال تأثيرا على الامين اثناء هذه المحنة ، وهو الذي دفع الخليفة الى انتهاك الاجراءات التي اتخذها الرشيد بخصوص حقوق وامتيازات ابنه الثاني المأمون[٥١] .

على ان الفضل هذا لم يكن الشخصية الوحيدة ذات الاثر في الاحداث المتلاحقة وما يؤيد ما ذهبنا اليه ان المأمون بعد انتصاره عفى عنه ولم يعاقبه عقوبة صارمة . فإن من أبرز مؤيدي خطط الامين ومحرضيه علي بن عيسى بن ماهان «شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة» وبكر بن المعتمر . اما ابرز معارضيه فكان اسماعيل بن صبيح ويحيى بن سليم والسندي بن شاهك .

يقول الطبري «فلم يزل الفضل بن الربيع به (الامين) يصغر في عينيه شأن المأمون ويزين له خلعه» ويؤيد ذلك الجهشياري فيقول «فلما استوثق الامر لمحمد (الامين) زين له الفضل بن الربيع خلع المأمون وكان يخافه ان افضى الامر اليه» وفي رواية ان الفضل خاف من المأمون ان انتهت الخلافة اليه ان ينتقم منه لما بدر من تصرفه ... ويبدو ان الامين قد اعجبه هذا الرأي وبدأ يخطط لخلع المأمون ولما

حذره يحيىٰ بن سليمان نهره مشيرا الىٰ صواب رأي الفضل الذي نعته «الشيخ الموفق والوزير الناصح»[٣٠].

ولا يهمنا في هذا المجال التفصيل في احداث الحرب الاهلية ولكننا نقول بأن الفضل اندفع ينفذ الاجراءات التالية وصولاً الىٰ التخلص من المأمون وبطانته امثال الفضل بن سهل. فقد تم عزل القاسم بن الرشيد عن الجزيرة والثغور، ثم طلب الامين من المأمون المجيء الىٰ بغداد للمشورة والرأي ولكن المأمون ادرك الخدعة فلم يجب الطلب. وأراد الامين ان يضم الري وبعض كور خراسان التي كانت ضمن سلطة المأمون حسب وصية الرشيد الىٰ الاقاليم التابعة الىٰ بغداد فأنكر المأمون عليه ذلك. ولما طلب هذا الاخير زوجته ام عيسىٰ وولديه للمجيء الىٰ خراسان منعهم الامين من ذلك، كما منع عنه ١٠٠ الف دينار كان أبوه قد أوصىٰ بها من بيت المال.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة حين طلب الامين من المأمون ان يقدم موسىٰ بن الامين عليه في ولاية العهد فرفض المأمون وشجعه علىٰ الصمود الفضل بن سهل وحين حاول العباس بن موسىٰ بن عيسىٰ ان يقنعه انتهره الفضل بن سهل قائلاً ان المأمون «بين اخوانه وشيعته». وتأزمت الحالة حين خلع الامين المأمون عن ولاية العهد في صفر سنة ١٩٥هـ/ سنة ٨١٠م وولىٰ ابنه موسىٰ العهد وسماه «الناطق بالحق»[٣٢]. وكان لابد من الحرب لحسم الامور وقد وجه المأمون جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين. ولم يكن هذا الجيش فارسياً، كما ان نسبة الترك كبيرة في هذا الجيش حيث تشير الروايات الىٰ وجود فرق بخارية وخوارزمية ومن مناطق أخرىٰ من اقليم ما وراء النهر. اما جيش الامين فكان اول الامر بقيادة علي بن عيسىٰ بن ماهان وكانت نسبة العرب ظاهرة فيه. اما القوة الضاربة في هذا الجيش فكانت تتكون من (اهل بغداد) وهي كتلة عسكرية تضم جند اهل بغداد الذين يشار اليهم عادة باسم (الابناء) او ابناء الدعوة او ابناء الدولة وأبناء الشيعة او أبناء الجند الخراسانية او أبناء الشيعة الخراسانية. ولعل ذلك يدل علىٰ

انهم ابناء أهل خراسان انصار الدعوة العباسية الذين حققوا النصر لها ونقلوا الخلافة من الامويين الى العباسيين وهؤلاء دون شك خليط من عرب وعجم وكان قادتهم في عهد الامين عبدالله بن حميد الطائي العربي ومما يدل على ارتباطهم بحاضرتهم الجديدة بغداد وولائهم للخلافة العباسية وتأثرهم بالبيئة العربية والثقافة العربية الغالبة على بغداد قول احد قادتهم علي بن عيسى الانباري يستحثهم على قتال جيش طاهر بن الحسين[٥٤].

«يا معشر الابناء يا أبناء الملوك والفاف السيوف انهم العجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر فاصبروا لهم فداكم ابي وأمي».

وقد انضم الى الامين فيما بعد ٢٠ الفاً من البدو بقيادة احمد بن مزيد، كما حاول عبدالملك بن صالح ان يزج اهل الشام في هذه الحرب وانخرط معه سنة ١٩٦هـ العديد من اجناد الشام ولكن أهل الشام سرعان ما خذلوا الامين وولوا الادبار حيث لم يورطوا انفسهم في حرب «ليس لهم فيها ناقة ولا جمل» وعلى حد قول احدهم[٥٥]:

«انكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم .. اعتزلوا الشر قبل ان يعظم ....».

وقد توالت الهزائم التي منيت بها جيوش الامين كما ثار عليه الحسين بن علي بن ماهان واعتقله وأخذ البيعة للمأمون ببغداد (سنة ١٩٦هـ رجب / سنة ٨١٢م) الا ان جند أهل بغداد تمكنوا من القضاء على التمرد واعادة الامين الى الخلافة بعد مرور اقل من يومين. وأعلنت الحجاز خلع الامين والبيعة للمأمون في رجب من نفس السنة.

ان تأزم الموقف وتدهوره دفع الفضل بن الربيع الى الاختفاء من الانظار عن نفس الشهر (رجب)[٥٦]، في الوقت الذي سارع طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين من تقدمهما حتى حاصرا بغداد وقد حاول الامين الهرب ثم عرض على هرثمة التسليم ولكنه قتل في حراقة بنهر دجلة.

علىٰ ان أهل بغداد لم يستكينوا للاحداث ولم يرضوا عن سياسة المأمون التي يوجهها آل سهل ولم يقنعوا بالحسن بن سهل والياً عليهم . فخذلوا المأمون واعلنوا بيعة ابراهيم بن المهدي . وهنا يظهر الفضل بن الربيع من مكمنه فيعينه ابراهيم حاجباً له . ولكن خلافة ابراهيم كانت قصيرة وبزوالها اختفىٰ الفضل مرة ثانية وانسحب من المسرح السياسي . يقول الجهشياري :

«وتم استتارة (الفضل) الىٰ ان غلب علىٰ بغداد محمد بن ابي خالد وحارب الحسن بن سهل وغلبه ما بينها وبين واسط فاستأمنه الفضل وظهر ولم يزل ظاهراً الىٰ ان غلب ابراهيم بن المهدي علىٰ الامر .... فرسمه لحجابته فكان فتيان آل الربيع يقومون بها ليرفع الفضل عنها . ثم اختل أمر ابراهيم واتصلت الاخبار باجماع المأمون ورود العراق فعاد الفضل الىٰ استتاره»[٥٧] .

ثم ظهر الفضل بن الربيع بعد استقرار المأمون في بغداد وهدوء الحالة وطلب العفو من الخليفة الجديد الذي اجابه الىٰ ذلك ورد اليه داره التي كانت في شارع الميدان . علىٰ ان المأمون لم يعين الفضل في منصب رسمي في بلاطه[٥٨] ، وكانت وفاته سنة ٢٠٨هـ/ سنة ٨٢٣م بعد حياة حافلة .

الخاتمـــة :

ان تطور الاحداث السياسية والظروف القلقة في نهاية عهد الرشيد دفعت بالفضل بن الربيع الىٰ اتخاذ جانب الامين ولعل ذلك يعود الىٰ ثقة الامين الكبيرة به كما تدل علىٰ ذلك الرسائل السرية التي أرسلها الامين اليه قبل موت الرشيد بقليل ولهذا ظن الفضل ان نفوذه وسلطانه سيكون أكبر في معية الامين منه مع المأمون كما وانه أدرك بأن وجود الفضل بن سهل ، صنيعة البرامكة سيحول دون تقربه الىٰ المأمون وتأثيره عليه .

وفي أثناء الحرب الاهلية وحتىٰ قبلها حاول بعض المؤرخين[٥٩] ان يظهروه بمظهر المناصر للعنصر العربي ضد النزعة الفارسية . علىٰ اننا لا نعتقد بأن الحرب

الاهلية بين الامين والمأمون كانت بين الفرس والعرب . فالمعسكران المتنازعان يضمان شخصيات عربية وفارسية وغيرها . ويمكن ان نفسر هذه الحرب بأنها نزاع بين العراق وخراسان حول الاستحواذ على المركز الاول بين اقاليم الدولة العباسية غذتها نزعات شخصية وطموحات تخص العائلة العباسية وحاشيتها . ثم اننا لا يمكن ان نبريء الرشيد فإن سوء تدبيره وتقسيمه الدولة الى مناطق نفوذ بين الامين والمأمون ادى الى هذه النتائج الوخيمة[٦٠] . بعد ان اذكت نفوس البعض طموحات شخصية وأذمت في نفوس آخرين نزعات انفصالية وأقليمية .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن موقف الفضل بن الربيع والاجراءات التي اتخذها لم تكن مدفوعة بدوافع عنصرية ولعل موقفه المعادي للبرامكة منذ عهد الرشيد حيث يقول ابن خلكان :

«كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ولم يكن له من مقدرة ما يدرك به اللحاق بهم فكان في نفسه أحن وشهناء فسعى بهم»[٦١] .

هذا الموقف هو الذي دفع بعض المؤرخين الى اعتباره مناصراً العرب ضد النزعة الفارسية وهو تخريج ليس له ما يسنده في مصادرنا التاريخية .

لقد نجح الفضل بن الربيع في الادارة ، كما استطاع ان يحصل على لقب «وزير» بصورة رسمية ، ولكنه كان بجانب خليفه ضعيفاً قال هو (الربيع) عنه :

«الله أعدل من ان يرضى ان يكون مدبراً امور امة نبيّه محمد صلى الله عليه مَن هذه افعاله»[٦٢] .

واذا كان اختياره في صف الامين سوء تقدير منه دفعته اليه عوامل مختلفة ، فأن الصدف السيئة هي التي جعلته يتولى الادارة بعد البرامكة ويكون الرجل الأول بين أقرانه في خلافة الرشيد والهادي مما جعل العديد من المؤرخين المعاصرين[٦٣] يعزون التدهور الاداري الى قلة كفاءته . وهذا غير صحيح لأن المناصب الادارية ، كما ذكرنا سابقاً ، وزعت بين العديد من الاشخاص اولاً

ولتدهور الاوضاع السياسية قبل الحرب الاهلية وأثنائها ثانياً . ورغم ان الفضل بن الربيع اختفى مرتين من المسرح السياسي أثناء تدهور الحالة لكي ينجو من مؤامرات اعدائه ومنافسيه ولكنه كان له انصاره واعوانه على الدوام مثل زهير بن المسيب[٦٤] الذي حفظ داره ورعى حرمه أثناء غيابه . ولعل أحسن دليل على استمرار نفوذه وتأثيره انه تقلد حالاً (منصب الحاجب) لابراهيم بن المهدي في فترة خلافته القصيرة . وبعد ان عاد من اختفائه الثاني لم يمسه المأمون بسوء بل أمر بتسليمه داره واسكانه فيها . ويعلق البروفسور سورديل على وزارة الفضل بن الربيع فيقول :

«وهذه الوزارة التي خلت من الانجازات وضعت نهاية للمحاولات التي يقوم بها الحجاب لكي يتولوا منصباً ليسوا أهلاً له» .

ومهما يكن من أمر فإن نهاية حياة الفضل السياسية كانت احسن بكثير من نهاية حياة والده الربيع .

هوامش الفصل العاشر

(١) راجع : انساب الاشراف (مخطوط) ورقة ٣١٧ ... الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ١٢٥ فما بعد . الطبري ، تاريخ ، ٣ ، ص ١١٢ . الاصفهاني ، الاغاني ، ص٦ ، قارن الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج٢ ص ٢٦١ حيث يظهر بانه لقيط.

(٢) ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ١٤٢ .

(٣) الطبري . تاريخ ، ج٣ ص ٤١٣ . اما طبعة دار المعارف ج٨ ص ٧٩ .

(٤) الاصفهاني ، الاغاني ، طبعة سياسي ج٦ ص ٨٢ .

(٥) البلاذري ، انساب ورقة ٣٢١ب . ـ قارن ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص ٤٦٦ .

(٦) الجهشياري ، الوزراء ... ص ٨٩ (طبعة بغداد ١٩٣٨) .

(٧) الطبري ، القسم ٣ ، ص ٣٨ الطبعة الاوربية .

(٨) الجهشياري ، ص ٨٩ (طبعة بغداد) . ـ راجع كذلك ابن الطقطقي ، الفخري ص ١٧٣ .

(٩) المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٤٢ . الخطيب تاريخ بغداد ، ج٨ ص ٤١٤ . ابن خلكان ، وفيات ج٢ ص ٥٥ ـ ٥٩ .

(١٠) الفخري ، ص ١٤٠ .

(١١) الجومرد ، ابو جعفر المنصور ، بيروت، ١٩٦٣ ، ص٥ .
(١٢) الجهشياري ، ص ١٣٥ .
(١٣) الفخري ، ص ١٤٣ .
(١٤) الطبري ، ٣ ص ١٣١ .
(١٥) راجع فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج٢ ص ٢٣ ..
(١٦) المصدر السابق ، القسم الثالث ، ص ٣٨٨ ـ ٣٠٦ .
(١٧) راجع مقالنا يعقوب بن داود في مجلة كلية الآداب .
(١٨) الطبري ، طبعة دار المعارف ج٨ ص ١٧٥ .
(١٩) المصدر السابق ، (دار المعارف) ج٨ ص ١٠٣ (الطبعة الاوربية ج٣ ص ٤٤٤) .
(٢٠) عن كتلة الموالي راجع العباسين الاوائل ج٢ ص ٥٢ .
(٢١) البلاذري ، انساب ورقة ١٣٣٥، الطبري ، القسم الثالث ، ص ٥٤٥ ، ٥٢٠ .
(٢٢) المصدر السابق ، ٥٤٧ ـ انظر كذلك .
S. Moscati, Le Califat d'al Hadi, S.O., 1946.
(٢٣) الجهشياري ، ص ١٢٥ . الطبري ، ٣ ، ٥٤٨ . المسعودي مروج ج٦ ص ٢٦٥ .
(٢٤) المسعودي ، تنبيه ص ٣٤٤ .
(٢٥) الفخري ، ص ١٥٣ .
(٢٦) الطبري ٣ ، ٥٤٨ . المسعودي ، ص ٢٦٥ .
Moscati, op. cit., 17.
(٢٧) الخطيب ، تاريخ بغداد ، ج١١ ص ١٤ .
(٢٨) الفخري ، ص ١٧٣ .
(٢٩) الجومرد ، هارون الرشيد بيروت ١٩٥٦ ص ١١١ .
(٣٠) الطبري ، ٣ ، ص ٦٠٩ .
(٣١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج١ ص ٥٨٧ .
(٣٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ص ج٥ ص ١١٤ .
(٣٣) الطبري ، ٣ ، ص ٦٠٩ .
(٣٤) وكيع ، اخبار القضاة ، ج٢ ص ١٥٠ . الجهشياري ، ص ٢٠٠ فما بعده . ص ٢١٤ .
(٣٥) الجهشياري ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .
(٣٦) المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٤٦ .
(٣٧) D. Sourdel, Le Vizirat Abbaside, 1959, I, P. 186.
(٣٨) الجهشياري ، ص ٢١٤ .
(٣٩) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
(٤٠) راجع Sourdel, op. cit., p. 187 (footnote 6)

(٤١) الجهشياري ، ص ٢١٨ .
(٤٢) راجع : سورديل ، المصدر السابق ، ص ٨١٦ ـ ١٨٧ .
(٤٣) الجهشياري ، ص ٢١٤ .
(٤٤) سورديل ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ .
(٤٥) الطبري ، ٣ ، ٧٦٤ فما بعد .
(٤٦) المصدر السابق ، ص ٧٦٨ ـ ٧٧٠ .
(٤٧) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٣١ . اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ص ٢٣٧ .
(٤٨) المسعودي ، التنبيه ص ٣٤٩ .
(٤٩) سورديل ، المصدر السابق ، ص ١٩١ (حاشية ٢) .
(٥٠) الجهشياري ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ٢ ـ ٢٤٦ . عن أصل اسماعيل بن صبيح راجع المصدر السابق ، ص ٢٤٧ (طبعة بغداد ١٩٣٨) .
(٥١) F. Gabrieli, La successione di Harun ar-Rashid e la guerra R.S.O., XI, 1926, 345
سورديل ، المصدر السابق ، ص ١٩١ .
(٥٢) الطبري ، ٧٧٦ ـ ٧٧٧ فما بعد . الجهشياري ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ .
(٥٣) عن هذه الاحداث راجع الطبري ، ٣ ص ٧٧٦ ـ ٧٩٦ . عن هذه الاوضاع اشار الشاعر يوسف بن محمد قائلاً (طبري ص ٧٩٦ ـ جهشياري ٢٣٩) اضاع الخلافة غش الوزير وفسق الامير وجهل المشير وعلق ابو نؤاس في شعر له على الاوضاع فقال :
مثل ما ذلت وضاعت بعد هارون الخلافة (الطبري ، ص ١٩٧٣) .
(٥٤) الطبري ، ٣ ، ص ٨٧٢٩ .
(٥٥) المصدر السابق ، ٨٤٤٢ ـ ٢٤٥ .
(٥٦) الجهشياري ، ص ٢٤٧ .
(٥٧) الاصفهاني ، الاغاني ، ج٣ ص ١٥٢ (طبعة ساسي) ـ الجهشياري ، ص ٢٤٨ .
(٥٨) عبدالجبار الجومرد ، هارون الرشيد ج١ ص ١١١ . راجع كذلك E.I. (2), al-Fadlb. al Rabi, (by Zetterstern)
(٥٩) E. I. (2), Harun al-Rashid (by F. Omar
(٦٠) ابن خلكان ، وفيات ، ج١ ص ٤١٢ ـ ٤١٣ . كذلك جهشياري ص ٢١٦ . الاغاني ، ج١٧ ص ٢٥ ـ ٢٦ .
(٦١) راجع سورديل ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ . احمد شلبي ، التاريخ الاسلامي ج٣ ص ٢٩٦ القاهرة .
(٦٢) الجهشياري ، ص ٢٤٦ .
(٦٣) الجهشياري ، ص ٢٤٨ .
(٦٤) سورديل ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

الفصل الحادي عشر

وزارة الفضل بن سهل



مقدمـــة :

ليس من شك في أن المأمون يعتبر من أبرز خلفاء بني العباس في مطالع عصرهم . فقد شهد عهده فترة ازدهار علمي واتسم بحركة تأليف وترجمة واسعة . ثم انم المأمون كان اول خليفة عباسي يتخذ الاعتزال مذهباً رسمياً باعتباره حلاً وسطاً بين مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الشيعـة العلوية مـؤملاً ان ذلك سيؤدي الى ترضية المعارضة والتخفيف من الحركات السياسية . ثم ان المأمون تميز باتخاذ موقف ودّي يتسم بالمرونة والتوفيق مع العلويين بل ذهب اكثر من ذلك حين بايع لعلي بن موسىٰ الرضا سنة ٢٠١هـ/ سنة ٨١٧م بولاية العهد .

ولا ننسىٰ ان المأمون خاض صراعاً مريراً ضد أخيه الخليفة محمد الامين من أجل الحفاظ علىٰ حقوقه بولاية العهد وقد تطور هذا الصراع الىٰ حرب أهلية مسلحة ظهرت خلالها بعـد ان انكشفت الاقنعة ، اطمـاع الشعوبيـة ودسائس العناصر الفارسية التخريبية التي استغلت تلك الفترة الحرجة لتضـرب الكيان العربي وما يمثله من قيم ومثل اسلامية وتحل محله قيماً فارسية وتقاليد مجوسية كلما امكنها ذلك .

وفي ظروف كهذه وتحت وطأة التيارات المتباينة برز الفضل بن سهل الىٰ جانب المأمون واستطاع بما أوتي من مقدرة وذكاء .. ان يكون الرجل الاول والوزير القوي الذي يدير الامور بيديه . واستغل الفضل بن سهل تأثيره علىٰ المأمون فعزله عن بقية صحابته وخاصة العرب منهم وأخذ يحرك الامور من وراء الستار باسم المأمون .

سيرة الفضل بن سهل الاولى :

الفضل بن سهل فارسي مجوسي . كان ابوه زرادشتياً من قرية بضواحي الكوفة ، أسلم في أيام الرشيد واتصل بالبرامكة وعمل وكيلاً ليحيىٰ البرمكي . ثم قدّم ولديه الفضل والحسن للبرامكة[1] .

وقد عرف الفضل بن سهل بذكائه وطموحه وقوة ارادته وكان يتقن الفارسية اضافة الى العربية . وقد أثار الفضل بن سهل انتباه يحيى البرمكي حين ترجم كتاباً من الفارسية الى العربية فأعجب بعقله وأسلوبه وطلب اليه ان يدخل الاسلام حيث كان لايزال على المجوسية فقبل ، وعندئذ ادخله جعفر البرمكي على المأمون الذي كان تحت وصاية جعفر البرمكي فأسلم على يديه سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م[٢] . وعلى ذلك فإن الفضل بن سهل كان حديث العهد جداً بالاسلام!!

ومنذ ذلك التاريخ ظل آل سهل ملازمين للبرامكة . الفضل بن سهل مع جعفر البرمكي والحسين بن سهل في خدمة الفضل البرمكي . وقد ورث آل سهل آراء البرامكة وتقاليدهم كما ورثوا طموحاتهم وبراعتهم في تحريك الامور عن طريق التأثير على الخليفة . وفي رواية للجهشياري ان يحيى البرمكي أثار طموحات الفضل بن سهل حين قال له :

«في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دوله وأنت عندي منهم»[٣] .

وسواء صحت هذه الرواية تاريخياً ام لم تصح فإنها تدل على مدى تأثير البرامكة في نشأة الفضل بن سهل بحيث أصبح صنيعتهم والمؤتمر بأمرهم ، وانهم علقوا آمالاً على تعاون آل سهل معهم . والجدير بالذكر هنا ان الفضل بن سهل أخذ مكان جعفر البرمكي بالنسبة للمأمون فأصبح وصياً عليه ومرافقاً له ومستشاره بعد مقتل جعفر البرمكي[٤] .

وتظهر خطط الفضل بن سهل المستقبلية وبُعد نظره حين الحّ على المأمون بالسفر مع الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩٢هـ/ سنة ٨٠٨م الى خراسان لقمع تمرد رافع بن الليث . فقد نصحه بالطلب من أبيه الرشيد ان يسمح له بالذهاب الى خراسان[٥] وهي الولاية التي عينه أميراً عليها حسب وصيته الاخيرة ، وقد حذّر الفضل بن سهل المأمون بأن بقاءه في بغداد الى جانب الامين سيحرمه ان عاجلاً أم آجلاً من حقوقه في ولاية العهد .

لقد كان للقرار الذي اتخذه المأمون ـ بتوجيه من الفضل بن سهل ـ بالسفر الى خراسان في حياة أبيه الرشيد أثره الكبير على الاحداث القادمة ، ذلك لأن الرشيد لم يلبث ان توفي فجأة سنة ١٩٣هـ/ سنة ٨٠٩م في طوس فانقسم قواد الجيش الذين معه الى قسمين : قسم بزعامة الفضل بن الربيع الذي أمر الناس بالعودة الى بغداد ، وقسم بقي في معية المأمون حيث كانت اوامر الرشيد تدعو لذلك .. وقد أغضب هذا الفعل المأمون وأشار عليه مجموعة من قواده بقتالهم وردّهم اليه ولكن الفضل بن سهل أشار على المأمون بأن لا يجنح للقوة بل يرسل مندوبين الى وزير الامين الفضل بن الربيع طالباً منه احترام العهود والمواثيق . ولما رفض المنشقون طلب المأمون جزع هذا الاخير الا ان مستشاره الفضل بن سهل هدّأ من روعه مستعرضاً له دروس التاريخ وعبرها مؤكداً له بأن موقفه أقوى من مواقف الخلفاء الذين سبقوه قائلاً :

«وكيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في اعناقهم»[1]

ثم تعهد الفضل بن سهل للمأمون في ختام كلامه قائلاً :

«اصبر وأنا أضمن لك الخلافة»[2] .

وهنا توضح رواياتنا التاريخية قائلة بأن أم المأمون كانت أم ولد فارسية اسمها (مراجل) ولذلك تعلق الفرس به وقالوا : ابن اختنا وابن عم رسول الله» .

ومنذ تلك اللحظة أصبح الفضل بن سهل قائماً بأعمال المأمون ومستشاراً له ووزيراً لشؤونه السياسية والادارية .

نفوذ ابن سهل على المأمون :

بقي الفضل بن سهل في بداية الامر يحرك الامور من وراء الستار باعتباره من صحابة المأمون ومستشاريه حيث لم يشغل منصباً رسمياً عالياً . فقد كان وزير المأمون منذ وفاة الرشيد ايوب بن ابي سمير ، كما وان الفضل بن سهل أشار على المأمون ان يوزع السلطات الادارية الى عدد من الرجالات البارزين وأصحاب

الخبرة ولكن هؤلاء رفضوا وأبدوا تحرجهم من التدخل بين أمير المؤمنين [الامين] وأخيه [المأمون]. وهكذا انتقلت كل السلطات الىٰ الفضل بن سهل. ولا نستبعد بأن ذلك كان حركة سياسية بارعة أشار بها الفضل بن سهل للمأمون وهو يعلم مواقف هؤلاء الرجال مسبقاً من أجل ان يجعل المأمون أكثر اعتماداً عليه ولغرض حصر السلطة بين يديه[٨]. وهذا ما تم فعلاً!! ولعل أكبر دليل علىٰ قوة نفوذ الفضل بن سهل في هذه الفترة المبكرة من امارة المأمون علىٰ خراسان هو ظهور اسم الفضل علىٰ النقود[٩] مما يشير الىٰ انه المسيِّر للامور والحاكم بأمره.

لقد رسم الفضل بن سهل الخطوط الرئيسة والمنهج العام لسياسة المأمون في خراسان حيث نصحه بالتودد الىٰ رجال الدين وتقريب القادة العسكريين واتباع سياسة مرنة متسامحة مع ملوك المقاطعات من الفرس والترك في بلاد ما وراء النهر. ويشمل هذا المخطط كذلك عقد اجتماعات لتوضيح سياسته المبنية علىٰ احترام مباديء الكتاب والسنة وتطبيقها وفتح ابوابه للمظالم والامر بتخفيض الضرائب عن الرعية[١٠]. وقد كان الفضل بن سهل قد كتب وصية للمأمون فيها عدد من النصائح السياسية أعلنها المأمون في مسجد مرو امام الناس فقال:

«أيها الناس اني جعلت الله علىٰ نفسي ان استرعاني اموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ولا آخذ مالاً ولا أثاثاً ولا نحلة تحرم عليّ، ولا أحكم بهواي من غضبي ولا رضاي الا ما كان في الله له. جعلت ذلك عهداً مؤكداً وميثاقاً مشدداً، اني في رغبة في زيارته اياي في نصحي ورهبة في مسألته اياي عن حقه وخلقه. فإن غيرت او بدلت كنت للعبر مستأهلاً وللنكال متعرضاً واعوذ بالله من سخطه وأرغب اليه في المعونة علىٰ طاعته وأن يحول بين وبين معصيته»[١١].

ولابد من القول بأن الفضل بن سهل وأخيه الحسن يعتبران المسؤولين عن الاجراءات العسكرية الموجهة ضد بغداد والخليفة محمد الامين. فقد عارضا بقية

صحابة المأمون ومستشاريه وحملاه على رفض كل مطالب الامين باعتبار ان قبوله شرطاً واحداً سيؤدي به في النهاية الى الاذعان للشروط الباقية!! وقد نظم الفضل بن سهل الجيش كما أرسل بعض اعوانه عيوناً الى بغداد تراقب تحركات جيش الخليفة والخُطط التي ستتبع ضد المامون في خراسان[١٢]!! كما وان الفضل بن سهل كلف طاهر بن الحسين الفارسي لقيادة الجيش لملاقاة علي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الامين. وكان هذا الموقف من أحرج المواقف السياسية التي مر بها المأمون فقد كان يدرك تفوق جيش العراق كما وان بعض عناصر الجيش في خراسان بدأت تضطرب[١٣]. على ان النتيجة ـ كما سنرى ـ كانت الى جانب المأمون حيث أعلن نفسه خليفة على المشرق وتولى الفضل بن سهل في رجب سنة ١٩٦هـ/ سنة ٨١٢م الادارة المدنية والعسكرية لكل الاقاليم من همدان الى التبت ومن الخليج العربي الى بحر الخزر ومنحه المأمون لقب «ذو الرئاستين» رئاسة التدبير ورئاسة الحرب او الادارة المدنية والعسكرية[١٤]. ومنذ هذا التاريخ أصبح الفضل بن سهل رسمياً وزيراً للخليفة المأمون الذي اعطاه لقب الامير كما يؤكد الجهشياري ذلك. وقد أشار المأمون في توقيع له للفضل بن سهل قائلاً:

«اغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك اياي على طاعة الله واقامة سلطاني فرأيت ان أغنيك .... وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به من العمل لله ولنبيه والقيام بصلاح دولة انت ولي قيامها»[١٥].

ونستطيع ان نتبين من السكة التي ضربت على نقود الاقاليم الشرقية[١٦] والتي ظهر عليها اسم الفضل بن سهل والقابه مدى نفوذ الفضل الذي امتد، بعد سقوط بغداد وتعيين اخيه الحسن بن سهل، والياً عليها، ليشمل النقود المضروبة في بلاد الشام ومصر. وهذا يدل على ان الفضل بن سهل كان وزيراً ذو سلطات واسعة تقارن سلطات البرامكة حيث ظهر اسمه على النقود الى جانب الخليفة. وتؤيد نصوص اخرى[١٧] ان الفضل بن سهل حمل القاباً أخرى تدل على اضطلاعه

بمسؤوليات أخرىٰ مثل رئيس حرس الخليفة وصاحب دولته وهي ادلة اخرىٰ علىٰ ما يتمتع به الفضل بن سهل من نفوذ كبير من أجل «القيام بصلاح الدولة» علىٰ حد قول المأمون نفسه .

وقد نظم الفضل بن سهل حملات عسكرية الىٰ الاقاليم الشرقية مثل الصفد وأشروسنة وفرغانة . وتشير روايات تاريخية بأنه انتصر علىٰ ملك كابل الذي دخل الاسلام كما اخضع مناطق اخرىٰ التي أرسلت هدايا الىٰ الخليفة او الىٰ مكة عرضت في الكعبة للدلالة علىٰ انتصارات الفضل بن سهل وجهوده لاضافة اقاليم جديدة الىٰ الدولة العباسية (دار الاسلام) .

الفضل بن سهل والحرب الاهلية :

حدث الصدام المتوقع بين الخليفة الامين وأخيه المأمون وقد لعبت حاشية الخليفة الامين وعلىٰ رأسها الفضل بن الربيع وحاشية المأمون وعلىٰ رأسها الفضل بن سهل دوراً بارزاً في وقع ذلك الصدام المسلح .

تحرك جيش الامين بقيادة علي بن عيسىٰ بن ماهان في اواخر سنة ١٩٥هـ والتقىٰ بجيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين . وكانت المفاجأة ان ينتصر طاهر بن الحسين علىٰ علي بن عيسىٰ بن ماهان الذي قتل في المعركة[١٨] . وقد زاد هذا الانتاصار من معنوية جيش المأمون فألحق انتصاره بانتصارين آخرين رغم ان قواد الامين بذلوا جهداً مضاعفاً في تقوية معنويات جندهم حيث أشار احدهم الىٰ جند المأمون قائلاً :

«إنهم العجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر» .

علىٰ ان الامين تابع ارسال الجيوش لصد طاهر بن الحسين ، فقد أرسل احمد بن يزيد بن مزيد الشيباني مع جيش جديد ثم أتبعه بجيش آخر يقوده عبدالله بن حميد الطائي . ثم حاول اعداد جيش آخر من القبائل العربية في بلاد الشام معتمداً في ذلك علىٰ عبدالملك بن صالح العباسي . وذهبت كل هذه المحاولات

سدىٰ ، ولم يواجه طاهر بن الحسين وهو يتقدم نحو العراق مقاومة تذكر . وفي سنة ١٩٧هـ/ سنة ٨١٢م حاصر طاهر بن الحسين بمعونة القائد هرثمة بن أعين بغداد وضيق علىٰ أهلها الذين صمدوا لأشهر عديدة مع الامين وقد صوّر لنا شعراء بغداد تلك الفترة الحرجة من تاريخها أروع تصوير . وتعتبر قصائدهم لوحات نضالية معبرة عن ذكريات اهل بغداد وهم يقاومون محاولة طاهر بن الحسين ومن ورائه الفضل بن سهل احتلال بغداد . وسقطت بغداد بيد طاهر وجيشه المكوّن في غالبيته من العجم ، وقتل طاهر الخليفة الامين رغم اوامر المأمون الصريحة بأسره[١٩] . ولذلك استغرب الفضل بن سهل في صنيع طاهر فقال :

«ما فعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس وألسنتهم . أمرنا أن يبعث به أسيراً فبعث به عقيراً»[٢٠] .

وإذا كان الفضل بن سهل قد استطاع ان يقضي علىٰ الامين ويسيطر علىٰ المأمون سيطرة تامة حتىٰ حجب عنه صحابته وأهل بيته وقطع عنه الاخبار وبدأ يستبد بالرأي دونه وأبقاه في مرو دون ان يحثه علىٰ الرجوع الىٰ بغداد .... اذا كان الفضل بن سهل قد استطاع ذلك فإنه من ناحية اخرىٰ اصطدم بمعارضة شديدة من العراق عامة وأهل بغداد بصفة خاصة . فقد عين الفضل بن سهل أخاه الحسن والياً علىٰ العراق بينما أبعد طاهر بن الحسين الىٰ الجزيرة الفراتية لقمع ثورة فيها . وقد أثارت هذه السياسة الهاشميين في العراق من عباسيين وعلويين وسهلت حركات عديدة اخرىٰ . فقد خرج نصر بن شبث العقيلي علىٰ الخلافة في الجزيرة الفراتية وانضمت اليه القبائل العربية وأعلن عن سبب ثورته قائلاً :

«انما حاربتهم [اي المأمون ونظامه] محاماة عن العرب لانهم يقدّمون عليهم العجم»[٢١] !!

فكان طبيعياً والحالة هذه ان تكون اولىٰ الثورات ضد المأمون ثورة عربية ضد تسلط الفرس ونفوذهم كما فهمه نصر العقيلي . ثم اشتعلت ثورات اخرىٰ في العراق قادها علويون وغير علويين ولكن القائد هرثمة بن أعين استطاع ان يعيد

الاستقرار الىٰ العراق . وكما فعل الفضل بن سهل مع طاهر حين ابعده الىٰ الجزيرة الفراتية فعل مع هرثمة بن أعين حيث ولّاه الشام والحجاز من أجل ابعاده . واذا كان طاهر بن الحسين قد أُبعد بعد وقت قصير من انتصاره علىٰ الامين ، فإن هرثمة بن أعين استطاع ، بالرغم من كل الصعوبات التي وضعت في طريقه ، ان يصل الىٰ مرو وان يقابل المأمون ليطلعه علىٰ حقيقة الوضع السياسي في العراق وسائر اجزاء الخلافة . وقد واجه الخليفة صراحة بقوله :

«قدّمت هذا المجوسي علىٰ اوليائك وانصارك» .

ثم أشار الىٰ الفضل قائلاً :

«الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ رأيت هذا المجوسي في هذا المجلس علىٰ كرسي» !!

ويبدو ان الفضل بن سهل قلّد الساسانيين في اختياره كرسياً مجنحاً كان يُحمل عليه اذا دخل علىٰ المأمون حيث يقول الجهشياري :

«وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك منصب الاكاسرة فأن وزيراً من وزرائها كان يحمل في مثل هذا الكرسي»[٢٣] .

ومهما يكن من أمر فإن المأمون لم يستمع لهرثمة بن أعين بسبب تأثير الفضل بن سهل الذي أوغر صدر الخليفة وصور هرثمة في صورة المتمرد الذي رفض اطاعة اوامر الخليفة بتولي الشام ولذلك أمر المأمون بسجنه ثم ما لبث الفضل بن سهل ان قتله في السجن . لقد دفع هرثمة بن أعين حياته دفاعاً عن العروبة ضد الهجمة الفارسية التي مثلتها سياسة الفضل بن سهل .

الفضل بن سهل وولاية العهد :

اعتقد المأمون ومن ورائه الفضل بن سهل ان الوضع قد استقر بعد الحرب الاهلية ولكن الامور علىٰ العكس تعقدت اكثر بسبب مبادرة جديدة سياسية يبدو ان الفضل بن سهل يتحمل مسؤولية كبيرة فيها . وهذه المبادرة هي البيعة بولاية العهد لعلي الرضا[٢٥] .

ان استمرار المأمون علىٰ اتخاذ مرو عاصمة له واستمرار توزيره للفضل بن سهل الفارسي ثم اختياره لعلوي بدلاً من عباسي لولاية العهد .... كل هذه الاجراءات نظر اليها أهل بغداد بأنها دلائل تحول المأمون عن العراق نحو خراسان وإشارة ميوله الفارسية فاندلعت ثورة أهل بغداد ضد الحسين بن سهل رافعةً شعار:

«لا نرضىٰ بالمجوسي بن المجوسي الحسن بن سهل»

حيث عُيّن الحسن والياً علىٰ بغداد. كما اعتقد أهل بغداد ان البيعة لعلي الرضا كانت من تخطيط الفضل بن سهل فقالوا:

«هذا دسيس من الفضل بن سهل».

وفي رواية تاريخية أخرىٰ حول البيعة: «كان الفضل بن سهل هو القائم بهذا الامر والمحسن له». كما اتهم أحد زعماء العرب المعارضين للبيعة الفضل بن سهل بأنه يحتال «ليصير الملك كسروياً». ويميل الىٰ الرأي الدكتور عبدالعزيز الدوري[٢٥] حيث يرىٰ بأن تأثير الفضل كان كبيراً بسبب كثرة الروايات التي تؤكد ذلك اولاً وبسبب رغبة الفضل في ارجاع سلطة الفرس لان نقل الخلافة الىٰ علوي معناه ابقاء مركزها في مرو لعدم رغبة أهل بغداد وبمبايعة علوي ثانياً.

وأكثر من ذلك فان الفضل بن سهل، اعتقاداً بقدرته علىٰ تحطيم المعارضة بسهولة وسرعة، لم يخبر الخليفة بردود الفعل في العراق وبيعة أهل العراق لابراهيم بن المهدي بل أظهره وكأنه أمير علىٰ العراق او ممثل للمأمون هناك. علىٰ ان الذي اربك خطط الفضل بن سهل هو علي الرضا نفسه فإن تقاه وعدم طموحه جعله علىٰ طرفي نقيض مع الفضل بن سهل. ولم تكن علاقة الرضا بالفضل ودية بل ان الرضا أظهر امتعاضه من تدابير الفضل بن سهل وانه هو الذي أخبر المأمون في نهاية المطاف بحقيقة الوضع في العراق. وقد فوجىء المأمون واستفسر من صحابته ورجالات بلاطه فأكدوا للمأمون ما ذكره علي الرضا من سوء الحالة وتفاقم الاضطرابات ونددوا بسياسة الفضل بن سهل وأشاروا الىٰ اغتيال هرثمة

بن أعين الذي لم يرتكب ذنباً سوىٰ محاولته حماية الدولة والخليفة من سوء تدبير ابن سهل . وانتقدوا نفي طاهر بن الحسين الىٰ الرقة بينما كان بالامكان الاستفادة من خبرته في تهدئة الاحوال وحرضوا المأمون بصورة غير مباشرة بضرورة التخلص من الفضل بن سهل[٢٦] . وحينذاك قرر المأمون العودة الىٰ بغداد كما ويبدو انه توصل الىٰ قناعة بضرورة التخلص من الفضل بن سهل وعلي الرضا اللذين عقدا الموقف السياسي .

ميول الفضل بن سهل الفارسية :

يتفق غالبية المؤرخين حول رغبة الفضل بن سهل الجامحة للانفراد بالسلطة ودكتاتورية الحكم مشفوعة بأحياء الشعائر الملكية الساسانية التي طواها الزمان . ان هاتين الصفتين وظروف الحرب الاهلية وما أعقبها من أحداث دفعت الفضل بن سهل الىٰ ارتكاب اخطاء او اتخاذ اجراءات خلقت له اعداء كثيرين في البلاط العباسي وخارجه . وبدلاً من ان يعدل سياسته فإنه أمعن في اجراءاته السياسية فاتبع سياسة غير حكيمة لم يقرر عواقبها كان من نتائجها المعارضة الشديدة للعراق عامة وأهل بغداد خاصة له فوصفوه بشتىٰ النعوت واتهموه بأنواع التهم . كما وان عداء العراقيين العرب له وكذلك عداء العباسيين الموجودين في العراق دفعه الىٰ الرغبة في ابقاء الادارة في مرو عاصمة خراسان وابقاء الخليفة هناك وهذا الاجراء أكدّ نزعته الفارسية ورغبته في احياء التقاليد الساسانية في الحكم .

ان النزعة الفارسية في سياسة الفضل بن سهل كانت بارزة حيناً ومستترة حيناً آخر . ولعل بوادرها ظهرت في تمسكه بالمجوسية واسلامه المتأخر ثم في ارتباطه بالبرامكة ثم في وقوفه الىٰ جانب المأمون في الخلاف حول ولاية العهد بينه وبين الامين حين قال للمأمون معززاً ثقته بنفسه : «وكيف بك وانت نازل في أخوالك [الفرس] وبيعتك في اعناقهم!!

وحين أصبح الفضل بن سهل في مرتبة لا تتقدمها مرتبة أحد ونال الرياستين جلس علىٰ كرسي مجنح يحمله شخصان ذوا مرتبة كبيرة «وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الاكاسرة» وهذا يدل علىٰ ادخاله التقاليد الفارسية الىٰ البلاط العباسي ونزعته الىٰ التشبه بالفرس . وأكثر من ذلك فقد حجب الفضل بن سهل الحقائق عن الخليفة وشوه الاخبار حول تمرد العراق وتنصيبه خليفة جديد . علىٰ ان اهل بغداد أدركوا حقيقة سياسة الفضل بن سهل الفارسية وسعيه لأحياء الارث الساساني المباد وأبدوا تخوفهم قائلين :

«وقد خشينا ان تذهب هذه الدولة بما حدث من تدبير المجوس»[٣٧] .

وقد أشرنا سابقاً كيف ضحّىٰ هرثمة بن أعين بنفسه حين صرح للمأمون بنوايا الفضل بن سهل الفارسية المجوسية قائلاً :

«قدّمت هذا المجوسي علىٰ اوليائك وانصارك»[٣٨] .

بل أن أحد صحابة المأمون من العرب صرخ في وجه الخليفة قائلاً : «يا أمير الكافرين»[٣٩] بسبب وقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل ولكن المأمون قتله في الحال وهو يحيىٰ بن عامر بن اسماعيل . وكان أحد شيوخ العرب من ذوي المراتب الكبيرة عبد الله بن مالك الخزاعي من أشد اعداء آل سهل الذين كادوا له عند الخليفة فأمر بإهانته والتشهير به علانيةً[٤٠] !! وربما كان نعيم بن خازم التميمي أكثر الشخصيات العربية وضوحاً في الكشف عن النزعة الفارسية المجوسية لدىٰ الفضل بن سهل حين قال مخاطباً الفضل في مجلس المأمون[٤١] :

«انك انما تريد ان تزيل الملك عن بني العباس الىٰ ولد علي ثم تحتال عليهم فتغير الملك كسروياً ولولا انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض الىٰ الخضيرة وهي لباس كسرىٰ والمجوس»!!

ثم خاطب الخليفة قائلاً :

الله الله يا أمير المؤمنين لا يخدعنك عن دينك وملكك»!!

لقد أدرك نعيم بن خازم التميمي خطة الفضل بن سهل للبيعة للرضا حيث

اراد ان يجعل من الرضا العوبة بيديه في الوقت الذي ينفذ هو مؤامرته في اعادة المجد الفارسي البائد والابقاء علىٰ مركز الدولة ففي مرو بخراسان . ولكن الرضا لم يقبل ان يكون بهذا الوضع فصارح المأمون كما أشرنا الىٰ ذلك سابقاً . ومما يؤكد ادراك الجماهير لهذه المؤامرة موقف اهل بغداد حين أبدوا وجهة نظرهم في أمر البيعة فقالوا :

«انما هذا دسيس من الفضل بن سهل»[٣٢]!!

نهاية الفضل بن سهل :

أصبح الفضل بن سهل بين ١٩٦هـ ـ سنة ٢٠٢هـ الوزير القوي في الدولة العباسية وتمتع بسلطات دكتاتورية واسعة ، حيث حصل علىٰ شرف الوزارة والامارة فأعطىٰ للوزارة بريقاً خاصاً طوال تلك الفترة[٣٣] . وكان الفضل بن سهل ذا طبيعة تحب الحكم والنفوذ ولم يتورع عن اتخاذ أي اجراء من أجل الابقاء علىٰ ذلك النفوذ وعلىٰ حد قوله :

«مادام ما انا فيه فالدنيا كلّها صنيعتي وعقدي»[٣٤] .

وفي حديث مع مؤدب المأمون قال :

«والله ما صحبته [اي المأمون] لأكتسب مالاً قل او جل ولكن صحبته لكي يمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب»[٣٥] .

واذا صحت الرواية التي تشير بأن الفضل بن سهل كان يردد الابيات التالية[٣٦] :

لئن نجوت او نجت ركائبي | من غالب ومن لفيف غالب
إني لنجّاء من الكرائب

نقول اذا صحت هذه الرواية فإنها توضح سياسته الفارسية التي تخالف مصلحة الدولة العباسية ونزعتها الميالة الى العروبة وعقيدتها الاسلامية .

أن قرار المأمون بالعودة الىٰ بغداد عاصمة الخلافة العباسية بعد ان

استوثق من حقيقة الوضع المتدهور في العراق والاقاليم الاخرى وبعد ان أكد له صحابته بأن «الارض تفتقت بالشرور والفتن من أخطارها»[٣٧]، ان هذا القرار يعتبر منعطفاً مهماً في سياسة المأمون حيث اراد أن يواجه التحدي السياسي بنفسه «بدلاً من اخفاء رأسه في أكاذيب الفضل بن سهل التي أراد ان ينسج منها مجد الفرس لا مجد العرب» على حد قول الدكتورة هدارة[٣٨].

ولعل أول بادرة للتغير السياسي او للسياسة الجديدة هي مقتل الفضل بن سهل في سنة ٢٠٢هـ/ سنة ٨١٨م في مدينة سرخس في طريق العودة الى بغداد. وقد قتل الفضل بن سهل في الحمام وشارك في قتله عدد من خدم الخليفة المأمون برئاسة غالب صاحب ركاب الخليفة. وقد حاول الفضل بن سهل رشوته انقاذاً لحياته فقال له غالب: «ليس بأوان تملق ولا رشوة». وبعد ان نفذ هؤلاء الرجال الاوامر بقتل الفضل بن سهل قتلهم المأمون جميعاً وقتل معهم من اشتبه به بالاشتراك في عملية القتل.

ورغم ان المأمون حاول ان يدرأ عن نفسه اي علم بالاغتيال الا ان الروايات التاريخية[٣٩] تؤيد دوره الرئيس في العملية، حيث ان سياسته الجديدة لا تسمح بوجود الفضل بن سهل على دفة الوزارة. وبمقتل الفضل بن سهل استطاع الخليفة ايقاف المد الفارسي في الادارة والبلاط، ورغم انه استوزر الحسن بن سهل لفترة قصيرة وتزوج بابنته بوران الا ان ذلك كان للتمويه. فقد باشر المأمون الاعمال بنفسه واستكتب كتّاباً عديدين بدل الوزير[٤٠].

لقد كان مقتل الوزير القوي الفضل بن سهل بداية لاجراءات اخرى سياسية وادارية في نظام الحكم العباسي منها ما يتعلق باتجاهات السياسة العباسية ومنها ما يخص سلطة الخليفة او منصب الوزير حتى ان الوزير الجديد احمد بن ابي خالد الاحول طالب الخليفة ان يعفيه من التسمي بالوزير وان يطالبه بالواجب فيها[٤١]. ولعل الاهم من ذلك كله أن وزارة الفضل بن سهل عكست المدى الذي يمكن ان يصل اليه التخريب الفارسي في سياسة الخلافة العباسية وذلك لأن

سياسة الفضل بن سهل كانت تمثل انقلاباً جذرياً علىٰ السياسة العباسية التقليدية التي اتسمت بالتوفيق والموازنة بين فئات المجتمع المتنوعة مع الحفاظ علىٰ مركز العرب في الصدارة وتشجيع الثقافة العربية والارث الاسلامي بالدرجة الاولىٰ. ومن هذا المنطلق فإن سقوط الفضل بن سهل يعتبر في نظرنا اجراءاً لايقاف النزعة الفارسية المتنامية وصداً للمد المجوسي. ولهذا السبب بالذات فإن العديد من شعراء الفرس نظموا القصائد[٤٢] في رثاء الفضل بن سهل لانه أُعتبر ممثلاً بل رمزاً لآمالهم وتطلعاتهم وطموحاتهم المستقبلية.

وزراء المامون بعد الفضل بن سهل:

بالرغم من دور المأمون في مقتل الفضل بن سهل فإنه لم يقطع صلته تماماً بآل سهل. فبعد قدومه الىٰ بغداد سنة ٢٠٤هـ استوزر الحسن بن سهل أخا الفضل بن سهل كما تزوج من ابنته بوران حيث شهدت قصور الخلافة احتفالات كبيرة. ويسمي ابن طباطبا فترة آل سهل بالدولة علىٰ نمط دولة البرامكة ويقول: «وكانت دولتهم في جبهة الدهر غرة وفي مفرق العصر درّه وكانت مختصرة الدولة البرمكية وهم من صنائع البرامكة».

ولكن وزارة الحسن بن سهل لم تدم حيث صرفه واستوزر بعده أحمد بن أبي خالد الاحول وكان كاتباً فصيحاً بصيراً بالامور ولكن أحمد بن أبي خالد تنصل عن التسمية وقال:

«يا أمير المؤمنين اعفني من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها واجعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني لها عدوي».

والواقع ان غالبية الذين وزروا للمأمون كانوا من الموالي الكتّاب الحاذقين بصنعتهم وان المأمون لم يسلم اليهم مقاليد السلطة كما فعل مع الفضل بن سهل. فقد استوزر[٤٣] المأمون بعد أحمد بن أبي خالد احمد بن يوسف وأبا عباد ثابت بن

يحيىٰ ومحمد بن يزداد وعمرو بن مسعدة ويحيىٰ بن اكثم علىٰ التوالي في فتـرة الاربع عشرة سنة الاخيرة . ومع ان بعض الروايات تشير الىٰ ان المأمون فوض الىٰ بعضهم «الامور كلها» الا ان الواقع يظهر انهم كانوا كتّاباً بارزين ومن المقدمين الىٰ الخليفة ومن كبار اعوانه ليس الا ولم تكن لديهم سلطات كبيرة كما ويبدو انهم استوعبوا دروس التاريخ وعبره في آل برمك وآل سهل فلم يحـاولوا ان يتخطوا حدودهم مع الخليفة[16] .

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ . ـ الخطيب ، تاريخ ، بغداد ،ج١٢ ص ٢٩ . عن هؤلاء الوزراء راجع سورديل ، الوزارة العباسية ، الجزء الاول ، ص ٢١٥ ـ ٢٣٨ . راجع كذلك دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، (الفضل بن سهل) .

(٢) الجهشياري ، ٢٣١ . ـ الطبري ، تاريخ الطبعة الاوربية ، القسم الثالث ، ص ٧٠٨ ـ ٧٠٩ .

(٣) الجهشياري .

(٤) الطبري ، القسم الثالث ، ص ٧٠٨ ـ ٧٠٩ .

(٥) الجهشياري ، ص ٢٧٨ . ـ الطبري ، القسم الثالث ، ٧٣٠ فما بعد .

(٦) الجهشياري ، ص ٢٧٨ . ـ الطبري ، القسم الثالث ، ٧٧٣ ـ ٧٧٤ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) راجع سورديل ، الوزارة العباسية الجزء الاول ص ١٩٨ (بالفرنسية) .

(٩) راجع Miles, The Numimatic History of Ray, 98

كذلك سورديل ، المصدر السابق ، ٢٠٣

(١٠) راجع الطبري ، القسم الثالث ، ص ٧٧٤ .

والجهشياري ، ص ٢٧٩ .

(١١) سورديل ، الوزارة العباسية ، الجزء الاول ص ٢٠٠ .

(١٢) الجهشياري ، ص ٢٩٣ . ـ

(١٣) الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٤١ . ـ الجهشياري ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ التنوخي الفرج بعد الشدة ج١ ص ١٠٥

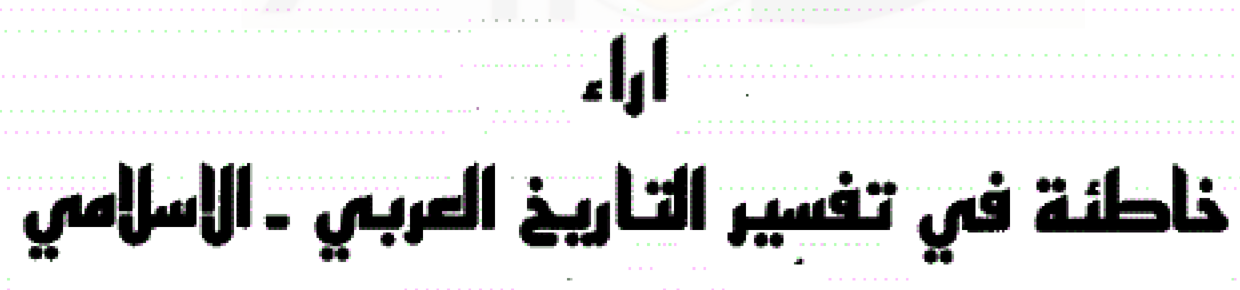
(١٤) ويسمىٰ هـذا الكتاب (كتـاب الشرط والحيـاء) راجع اليعقـوبي ج٣ ص ١٧٩ . ـ كذلك الجهشياري ، ص ٣٠٦ . الدكتور عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الاول ص ٢١١ .

(١٥) راجع : Miles, op. cit., 98 Sourdel, op. cit, p. 203

(١٦) الجهشياري ، ص ٣٠٦ . ـ سورديل ، المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

(١٧) حول الحرب الاهلية راجع الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٤٥ فما بعد .
(١٨) راجع محمد مصطفى هدارة ، المأمون ، الدار المصرية ، ١٩٦٦ ص ٥٧ فما بعد .
(١٩) الطبري ، القسم الثالث ، ص ٩٤٩ . ـ الجهشياري ، ٣٠٤ . ـ
(٢٠) راجع فاروق عمر ، ثائر من اجل العرب ، مجلة العرب ، العدد ٧ ، ١٩٧١ .
(٢٢) الجهشياري ، ٣١٣ ـ ٣١٧ . ـ اليعقوبي ، ج٣ ص ١٧٨ .
(٢٣) الجهشياري ، ص ٣١٦ .
(٢٤) حول هذا الموضوع راجع فاروق عمر . بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٣٤ فما بعد .
(٢٥) الدوري ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ فما بعد .
(٢٦) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٣ ص ١٨٠ فما بعد .
(٢٧) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج٣ ص ١٧٩ .
(٢٨) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٧٩ .
(٢٩) راجع : محمد مصطفى هدارة ، المصدر السابق ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .
(٣٠) المصدر السابق ، ص ٧٠ .
(٣١) الجهشياري ، ص ٣١٣ .
(٣٢) الطبري ، القسم الثالث ، تاريخ ص ١٠١٣ .
(٣٣) راجع : سورديل ، المصدر السابق ، ج١ ص ٢١١ .
(٣٤) هدارة ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(٣٥) المصدر السابق ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٣٦) اليعقوبي ، ج٣ ص ١٨١ .
(٣٧) ويشير كتاب الفخري ان بعض قادة المأمون حذروه بان «يستدرك الامر والا خرجت الخلافة من يدك» ص ١٦٤ فما بعد .
(٣٨) هدارة المصدر السابق ، ص ٧٦ .
(٣٩) اليعقوبي ، ج٢ ص ٥٤٩ (الطبعة الاوربية) . ـ الطبري ، القسم الثالث ، ١٠٢٧ . ـ الاصفهاني ، الاغاني ، ج٩ ص ٣١ . ـ الخطيب ، تاريخ بغداد ، ج١٢ ص ٣٦٣ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٣ ص ٢١٢ .
(٤٠) سورديل ، الوزارة العباسية ج١ ص ٢١٣ فما بعد .
(٤١) الفخري ، ص ١٦٨ . ـ المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٠٤ .
(٤٢) هدارة ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

المبحث الثاني



اراء

خاطئة في تفسير التاريخ العربي - الاسلامي



ينفرد موضوع التاريخ بأهمية خاصة سواء في تقديمه على شكل دراسات مختارة منتقاة في المدارس او تدريسه بصورة علمية عميقة في الجامعات ، ذلك لأن التاريخ لا يعرّفنا بجذور ومسببات المشاكل التي تواجهنا ونحاول حلها فحسب بل انه عملية توجيه وتوعية وتعبئة متكاملة للجيل الجديد .

ان دراسة التاريخ العربي يفترض فيها ان تؤكد وحدة وترابط واستمرار هذا التاريخ عبرالعصور وفي كل اقطار الوطن العربي ، وابراز أصالة التراث الحضاري العربي الاسلامي بقيمه العلمية والانسانية وبكل مظاهره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية وتأكيد صفته الانسانية التي أفادت شعوباً اخرى خارج نطاق هذا الوطن .

ان العملية التاريخية التي يكشفها علم التاريخ تبين الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الامة . ان هدفنا هو أن نعد المواطن لا ليعيش في حاضر دائم بل في حاضر متطور نحو مستقبل يجب ان يكون خيراً من الحاضر ... هذه هي الوظيفة القومية للتاريخ وهي وظيفة لا يمكن ان يؤديها غير التاريخ من العلوم الانسانية ، فالمؤرخ أي مؤرخ ينتمي الى امة وعليه ان يكون مخلصاً موالياً لها مثل ولائه للحقيقة وللانسانية . وعلى المؤرخ تقع مسؤولية تبصير مواطنيه بقضاياهم المصيرية والازمات المرتقبة ، وان يقف الى جانب امته ومبشراً ومشجعا .

الشخصية الايجابية في التاريخ :

ان التاريخ يخلق الشخصية الايجابية ذات الاثر الفعال في مجرى الحياة الوطنية والقومية ، والمقصود بالشخصية الايجابية هي الشخصية التي تقوم على الولاء للوطن والاخلاص لاهداف الامة والعلم بطرق تحقيق تلك الاهداف والعزيمة القومية التي تدفع للاسهام في هذا التحقيق ، ان خلق هذه الشخصية الايجابية لا يتم بالطرق التقليدية بل بدراسة مستنيرة موجهة لا تقف عند الاحداث والتواريخ تتعداها الى توضيح المغزى الحقيقي لكل حادثة في تاريخ العرب والانسانية .

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فنحن نريد من جيلنا الصاعد ان يتذوق تراث العرب الحضاري ويعتز به، والمعروف ان هذا التذوق وذلك التقويم لا يتفقان دون معايير ومقاييس التاريخ هو سجل الخبرات البشرية وهو مصدر تلك المعايير، فتاريخ العرب الوسيط مثلاً يبين لنا ان الوحدة عامل قوة سياسية واقتصادية، وان الحرية أساس رقي الجماعة وتطورها لمستقبل افضل وان التكامل الاجتماعي كان يهدف اولا وقبل كل شيء الى عدالة التوزيع وهو مبدأ ينزع دون شك منزع الاشتراكية، بمثل هذه المعايير يمكن قياس الحاضر والحكم عليه.

التاريخ العربي وتفسيره:

ان تحقيق هذه الاهداف الوطنية والقومية والانسانية يتوقف الى حد كبير على التفسير الذي نتبناه، فهل نمتلك نظرة في تفسير التاريخ؟

ولابد للاجابة على السؤال ان نستطرد ونقول بأن وقائع التاريخ العربي بكافة خضعت الى معالجات استندت على تفاسير مختلفة ... ولا يضير هذه الوقائع ان تفسر بهذا التفسير او ذاك فربما كشفت لنا التفاسير المختلفة جوانب مختلفة من الحقائق فأغنت معلوماتنا وزادت فائدتنا. على ان الشرط الاساس هو ان تعتمد هذه التفاسير الطريقة المنهجية في البحث التاريخي فتستند الى وقائع ثابتة ولا تعتمد النظرة المسبقة التي تخضع الاحداث الى تفسير محدود لتخرج بنتائج مقصودة ربما تصل الى مستوى التزوير الواعي او اللاواعي للظاهرة التاريخية.

النظرة المسبقة:

وقد شهد القرن العشرون ظهور ابحاث استشراقية جديدة تتسم «بالنظرة المسبقة» رغم ادعائها الموضوعية وركونها الى هذا المذهب او ذاك في التفسير. فلقد تأثر بعض مؤرخي اوربا بفكرة كوبينو العنصرية وأكدوا عليها في كتاباتهم عن التاريخ العربي فصوّروا احداثه في صورة نزاع حاد بين العرب «الاسياد» وبين «شعوب محكومة» كأن لم يكن في هذا الشرق العربي الا تطاحن على السلطة

والسيادة فكانت كتب ولهاوزن وفان فلوتن وغيرهما امثلة في هذا الاتجاه العنصري الذي شوه حقيقة دور العرب الحضاري .

وفيما عدا النظرة المسبقة التي اتصفت بها بعض الدراسات الاستشراقية نلاحظ وجود «نزعة التميز» حيث يعترف احد المستشرقين بذلك حين يقول : «ان الاسس المتبعة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في ازالة الخرافة التي تعتبر اوربا في كل العصور ، تمثل تلك الاهمية العالمية سياسياً وحضارياً كالتي تتمتع بها الآن .

لقد اعتادت اوربا بعد عصر النهضة على مستوى حضاري امتاز بتفوقه المادي والثقافي وقد نسي الكتّاب الاوربيون او تناسوا المستوى الحضاري الواطىء الذي عاشته مجتمعاتهم في العصور الوسطى ... بل ان هؤلاء الكتاب لم يتحملوا حتى التفكير في مجتمعات ، كالمجتمع العربي ، كانت ارقى منهم درجات عديدة .

ان هذه النظرة الاستعلائية المتميزة نظرت الى المجتمع الاوربي في كل العصور على انه مجتمع عقلاني متطور . انساني وراق ، ونظرت الى المجتمع الشرقي في كل العصور على انه مجتمع متخلف حضارياً وغير متطور سياسياً!! ولاتزال هذه النظرة الاستشراقية «تقليدية» تظهر في بعض كتابات المستشرقين في النصف الثاني من القرن العشرين !! وقد عمل بعض مؤرخينا على نقل تفاسير المستشرقين فترجموها الى العربية وشاعت في اوساط المثقفين ودخلت في كتبنا المدرسية ومحاضراتنا الجامعية .

ان العديد من التفاسير الشائعة بيننا في التاريخ العربي لاتزال تفتقر الى التفسير الذاتي وتعوزها وجهة نظر عربية وهي لا تتعدى ان تكون عيالاً على تفاسير جاءتنا من الخارج ورددناها عن قصد او دون قصد فشوهت تاريخنا وزيفت تراثنا . لقد استطاع اجدادنا في عصور رقيهم الحضاري ان يردوا على دعوات التشكيك ومحاولات التزييف التي انتقصت من دور العرب التاريخي وعملت على طمس فضائلهم الحضارية ومساهماتهم في بناء التراث الانساني . اما نحن فقد

اقتبسنا دون وعي تفاسير لا تختلف في مضامينها عن تفاسير الشعوبية في هجمتها على تاريخ العرب ورسالتهم الحضارية .

آراء خاطئة :

وفيما يلي بعض الآراء الخاطئة حول تاريخنا والتي لاتزال شائعة في اوساطنا :

في التاريخ العربي الجاهلي : أكد بعض المستشرقين على المظاهر السلبية في الحياة العربية قبل الاسلام فأبرزوا المجتمع العربي الذي تسوده العلاقات البدوية وتتحكم بين قبائله روح العداء والحرب والغزو فكان عماد اقتصاده السلب والنهب فليس هناك نظام اقتصادي منتج !!

وكأن المجتمع العربي كان تلك القبائل البدوية الرحالة ليس الا وان ليس هناك مجتمعات عربية مستقرة في الحجاز واليمن والعراق والشام .

وقد حاولت هذه النزعة المتحيزة طمس عوامل الوحدة والارتباط وابراز عوامل التفكك والانفصال في المجتمع العربي ... فأهملوا الدور الذي قامت به دولة كندة في وسط الجزيرة العربية لتوحيد القبائل العربية المتنافرة في دولة عربية واحدة تكون نواة لدولة أكبر .. كان ذلك في القرن الخامس والسادس الميلاديين ، وقد نتج عن هذه الوحدة الاغارة على القوتين الاجنبيتين المسيطرتين على العراق والشام وهما الساسانيون والبيزنطيون . وأهملت النزعة المتحيزة رابطة «العروبة» التي كانت تربط أهل العراق وأهل الشام بالقبائل في الجزيرة العربية ذلك ان رؤساء العرب في العراق مثلاً رفضوا اوامر الساسانيين بغزو الحجاز . تقول احدى رواياتنا التاريخية :

«لقد رفض الحارث الكندي اوامر الملك الفارسي قباذ بأن ينهض الى مكة ويهدم البيت وينحر عبد مناف ويزيل رئاسة قصي» .

رفض الحارث هذه الاوامر «وداخلته حمية للعرب فأعرض عنهم» ما اعمق

هذا المعنى في كلام الحارث . انه لا يمكن ان يضرب العرب ويحتل الحجاز بتحريض الاجانب !!

وأهملت النظرة المتحيزة دور مملكة تدمر في تاريخ العرب فأكدت على كونها امارة تدور في فلك الروم وتنفذ سياستهم في الشرق . والواقع ان أذينة سجل انتصارات مهمة على الروم وحقق «الذاتية العربية ولم يذعن للروم فاغتالوه بعملية جبانة وكأنهم شعروا بأنه يمثل البوادر الاولى لنزعة التحرر من الاجنبي الدخيل» .

وتؤكد النزعة المتحيزة على الفصل بين الهجرات العربية الاولى الى اطراف الجزيرة العربية كالهجرات الاكدية والبابلية والامورية والكنعانية وغيرها وبين الهجرة العربية الاخيرة التي جاءت بعد الاسلام ، فيسمي بعض المؤرخين تلك الهجرات بالهجرات السامية تمييزاً لها عن الهجرة العربية . ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو اذا كان الموطن الاصلي لكل هذه الهجرات هو الجزيرة العربية ، فلماذا نتبع علماء اللغات المستشرقين في تفاسيرهم ولماذا لا نطلق عليها الهجرات العربية ؟؟

فتوحات أم حروب تحرير :

ينظر بعض المستشرقين ومن اتبعهم من المؤرخين الى الهجرة العربية الكبرى بعد الاسلام على انها فتوحات من نمط «الاحتلال» للحصول على خيرات البلدان المفتوحة ، ولم تكن العمليات العسكرية التي قام بها العرب المسلمون في العراق والشام وشمالي افريقيا احتلالاً بل هي حروب تحرير هدفها تحرير الارض العربية المغتصبة في أطراف الجزيرة العربية من المحتلين الاجانب الساسانيين والروم» .

لم تعر النظرة التحيزية الى الاسلام الاهمية التي مثلها في تاريخ العرب وقد ألفت كتب عديدة تحت عنوان «تاريخ العرب والاسلام» وهي لا تخصص لهذا الاسلام أكثر من صفحة واحدة !! ونحن هنا لا ننكر على المستشرقين هذه النظرة

لأن البيئة التي نشأوا فيها والثقافة التي تلقوها تجعل الدين منفصلاً عن مفاهيم الحياة الاخرىٰ ومظاهرها ولكننا ننكر هذا التفسير علىٰ «المقلدين» من مؤرخينا، ذلك ان العروبة والاسلام صنوان لا ينفصلان في تلك الفترة (وخاصة في القرنين الاولين من تاريخ العرب الاسلامي).

العروبة في نظر المستشرقين:

اكبر عملية دمج حضارية في التاريخ:

وتحاول النظرة المتحيزة ان تظهر الحكم العربي الاسلامي للمجتمع المتعدد الشعوب بمظهر الصراع بين العرب من جهة والشعوب «المغلوبة» من جهة أخرىٰ وتنعت السلطة بكل صفات التعسف والاستغلال وتنسىٰ هذه النظرة او تتناسىٰ بأن فكرة الجهاد في الاصل كانت تعني بذل الجهد في مدافعة الشر واستجلاب الخير وهي دون شك فكرة انسانية من حيث المبدأ. فدعوة العرب ـ مادة الاسلام ـ الىٰ العقيدة الجديدة في المناطق الجديدة اتخذت مبدأ اليسر والتسامح والمرونة وسيلة لها. ولم يجبر العرب ـ كما يقال بحد السيف ـ احداً الىٰ الدخول في العقيدة الجديدة بل كان الفرد من سكان البلاد المفتوحة يستطيع البقاء علىٰ دينه وأن يدفع الضريبة التي كانت تدفع سابقاً.

وينسىٰ هؤلاء المغرضون ان العربي بمروءته وسهولة اندماجه ونظرته الانسانية الىٰ الشعوب استطاع هذا العربي عن طريق حروب التحرير ثم الفتح ان يحقق اكبر عملية دمج حضارية في التاريخ أدت الىٰ التقاء قيم وثقافات مختلفة. كما وان اختلاط العرب مع سكان البلاد المفتوحة اوجد أسساً جديدة لا تقوم علىٰ عصبية الدم او العنصر فنشأ جيل جديد لا تتحكم فيه العصبيات القديمة الضيقة عموماً.

هل للاسلام ابعاد عربية :

ولا ترى النظرة المتحيزة من الاسلام الا الاحداث الحولية المتسلسلة والمعارك وحروب الردة . اما محاولات الربط والتفسير والتحليل فليس لها مكان في كتب هؤلاء المؤرخين .

ان المتمعن في أجراءات الرسول (ص) يلحظ مدى الارتباط بالعروبة . فمنذ بداية الدعوة ناصب الرسول (ص) العداء للشرك والاستغلال وأراد ان يخضع قريش ولكنه لم يهدف الى تدمير مكة . واكد القرآن ان البيت الحرام قبلة المسلمين فجعل العرب يشعرون بأن الرسول (ص) كالعرب يولي مكة احتراماً كبيراً وان خصومه هم مشركو قريش لا قريش كلها .

وللهجرة من مكة الى المدينة معناها القومي والسياسي اضافة الى معانيها النضالية والخلقية ذلك ان الرسول (ص) استطاع توحيد قبائل الاوس والخزرج في كيان سياسي واحد وأصدر الصحيفة التي اعتبرت المسلمين امة متكافلة واحدة والرسول (ص) هو الحكم في الخصومات فأبطل عادة الثأر التي بموجبها يتحتم على العربي أن يأخذ حقه بنفسه !!

واذا جاز لنا اطلاق اصطلاح (البعد العربي) على هذا الاجراء الذي وحد القبائل العربية فإن علينا ان نستدرك ونقول بأن جذور هذا الشعور العربي بضرورة الوحدة ونبذ التشتت قبل الاسلام حين تعاهد الاوس والخزرج على جعل عبدالله بن آبي زعيماً لهم ، وحين اتحدت تميم وقيس في صمودهما ضد الساسانيين وحين نجحت كندة في تأسيس كيان عربي موحد ، وحين حاولت قريش نفسها توحيد القبائل العربية بشرط ان يكون هذا التوحيد خلف مكة وبشرط الا يمس هذا التوحيد أسس النظام الاقتصادي والاجتماعي آنذاك ولكن روح العصر ما كانت لترضى ان يتم التوحيد في ظل نظام مستغل مترد .

ثم كان «حلف الفضول» بين قبائل الحجاز بأن «لا يروا جائعاً الا أطعموه ، ولا يروا مظلوماً الا نصروه على ظالمه» دعوة لاتحاد كلمة العرب على مبدأ» .

وأخيراً جاء نظام المؤاخاة رمزاً لوحدة قبائل عربية مختلفة تحت راية الاسلام وبداية شعور العرب برابطة جديدة فوق القبلية تربطهم في ظل الاسلام .

ان النتائج الايجابية اعمال الرسول (ص) ، كما يشير اليها الدكتور صالح العلي ، يمكن تلخيصها بثمرة مهمة هي توحيد العرب تحت سلطة مركزية واحدة وربطهم برابطة جديدة فوق القبلية هي رابطة العروبة وعقيدتها الاسلام .

وبعد ان استطاع ابو بكر القضاء على الردة والمرتدين ثبت نواة التوحيد الروحي والثقافي فأصبح الاسلام عقيدة كل سكان الجزيرة العربية تقريباً وبذلك حصل تطابق العروبة والاسلام أي ان العرب اغلبهم مسلمون وأن الاسلام شمل غالبية العرب هذا مع ادراكنا عالمية الدعوة الاسلامية من حيث المبدأ .

لقد خرجنا من تجربة الاسلام بوحدة روحية ووحدة سياسية .. فتعدد الألهة عند العرب كان يشير الى تعدد الهويات وتشتتها والى انعدام الوحدة الوجدانية فجاء الاسلام بوحدة الهوية لكل العرب وأصبح الولاء للفكر الجديد الواحد للجماعة العربية هو المعيار الذي يقاس به الاخلاص للدولة العربية الاسلامية الجديدة . ومن هذا المنطلق اعتبرنا حروب العراق والشام ومصر حروب تحرير لأراضٍ عربية مغتصبة ولسكان عرب رازحين تحت نفوذ أجنبي غاصب .

حول سياسة التمييز بين العرب والموالي

حين اتسعت رقعة الدولة العربية وانتشرت عقيدتها الاسلامية حيث اعتنقتها الشعوب غير العربية في الاقاليم الجديدة ... كان لابد لهؤلاء «الموالي» ان يلعبوا دوراً في التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يمر بها المجتمع .

الا ان دورهم هذا لم يظهر فجأة بل بدأ ينمو بشكل تدريجي في مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية ثم تغلغل الى الادارة والقضاء والجيش . وهذا في نظرنا أمر طبيعي ذلك لأن العرب «مادة الاسلام» وأصحاب السلطة في الدولة الجديدة ،

فكان لابد ان يمر بعض الوقت لكي يندمج الموالي في التركيب الاجتماعي الجديدة . والواقع أن العرب هم الذين نظموا الموالي وشجعوهم علىٰ التفاعل والاندماج لضرورات اقتصادية وسياسية وربما أحياناً لأسباب شخصية وطموحات فردية .

لقد غالىٰ فان فلوتن وولهاوزن وبروكلمان ومن اتبع رأيهم من المؤرخين في تصوير التمايز الاجتماعي بين العرب والموالي ووقعوا في تفاسير عنصرية ليست من مفاهيم الاسلام ولا العصر الذي ظهر فيه الاسلام . ولم يدرك هؤلاء المؤرخون بأن التمايز والاضطهاد الذي طبقه بعض الخلفاء وولاتهم والذي لا يقره الاسلام كمبدأ شمل العرب والموالي معاً الذي تسميهم مصادرنا «الضعفاء» . واذا كان اصحاب الرأي يوردون الامثلة للدلالة علىٰ سوء حالة الموالي واحتقار العرب لهم فإن هنالك العديد من الامثلة التي تدل علىٰ التعاون والامتزاج والاشراك في السلطة . وقد دعى برنارد لويس وهاملتون جب الىٰ عدم جدوىٰ فرضية الصراع بين العرب والموالي في تفسير احداث القرن الاول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري والبحث عن أسباب في ظواهر اجتماعية واقتصادية وقد تبعهما مؤرخون محدثون أثبتوا ان العوامل المحركة للاحداث كانت أبعد من أن تكون عوامل عنصرية .

لقد جمع أصحاب الرأي العنصري والمؤيدون لفرضية التمييز الاجتماعي كل التهم ساقها بعض المستشرقين القدامىٰ وهم يرون ان التمييز الذي قاسىٰ منه الموالي كان سبباً لانضمامهم الىٰ الحركات الثورية ويضيف هؤلاء بأن عدداً قليلاً جداً من الموالي احتلوا مناصب مهمة وبقوا فيها فترة قصيرة حيث لاقوا معارضة قوية من العرب .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو : هل ان الموالي وحدهم لاقوا هذه المنافسة ، أم ان العرب من القبائل المختلفة كان ينافس بعضها بعضاً ؟ وان الخلفاء الاكفاء وحدهم استطاعوا أن يحققوا نوعاً من التوازن بين هذه القبائل . ثم أليس من الطبيعي ان يسيطر العرب صانعو الدولة الجديدة علىٰ زمام الامور فيها ثم يأتي

اشراك الآخرين في السلطة مع مرور الزمن ؟ وأما بعد ذلك نتصور صورة خيالية نحكم من خلالها على الامور دون آخذ الظروف المتواجدة آنذاك بعين الاعتبار؟ فمثلما كانت الشعوبية والزندقة ظاهرة تميز فئة المجتمع متعصبة على العرب كذلك فإن التعصب للعرب كانت ظاهرة تتصف بها جماعة محدودة ربما كان من بينها بعض الخلفاء والولاة ولكنها لم تكن سياسية عامة للدولة وليس ادل على ذلك من أن ابن عبد ربه يضعها في باب خاص بها «باب المتعصبين للعرب» !!

ان الثورات التي حاولت أن تستعين بالموالي كعنصر جديد في المجتمع لم تنظر اليهم كفرس او ترك بل كفئة يقع قسم منها ضمن القطاع المحروم في المجتمع ذلك القطاع الذي يضم قسماً من العرب ايضاً . ان اشتراك الموالي في الثورات وتنظيم العرب لهم يدل على انفتاح العربي ومرونة المجتمع الاسلامي الذي ضم الموالي الى القبائل العربية !! «فالولاء لحمة كلحمة النسب» .

حول سياسة التعريب :

وعلى نفس الاساس اخطأت النظرة المتحيزة في فهم سياسة التعريب حيث رأت انها تعني «الاعتماد على العرب وابعاد الموالي» ولم تكن سياسية التعريب تعني جعل اللغة العربية لغة للدواوين والادارة والثقافة وكل من يتقن العربية أهلاً لتبؤ المناصب المختلفة . ومعنى ذلك انها لم تكن ذات مغزى عنصري على الاطلاق وشواهد التاريخ تؤكد ذلك .

حول معنى العروبة :

ان المظاهر التي تحاول النظرة المتحيزة ان تؤكد عليها لا تمت الى تاريخنا بصلة بل انها انعكاسات من الفكر الاوربي يحاول من خلالها بعض المستشرقين ان يصموا بها تاريخنا . ذلك لأن معنى العروبة في المجتمع الاسلامي لم يكن عنصرياً ضيقاً كما حاولوا تصويره بل كان معنى شاملاً يعتمد اللغة والثقافة

والفكر أساساً .

فقد قال الرسول (ص) عن العروبة : «انما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي» .

وقد استمرت هذه النظرة وتبلورت في عصر الازدهار الحضاري في العهد العباسي فأكد عليها الجاحظ وابن قتيبة والتوحيدي ومن ثم ابن خلدون فكل هؤلاء يرفضون النظرة الاستعلائية وفكرة العنصر كمعيار لتصنيف المجتمع ويعتبرون الثقافة واللغة والفكر والبيئة معايير رئيسية يقاس بها الفرد .

وتشير رواية تاريخية الى هذا المعنى الجديد للعروبة ، فقد سأل الخليفة أحد مواليه عن نسبه من العرب فأجاب ذلك الموالى : «ان كانت العربية لساناً فقد نطقنا بها ، وان كان ديناً فقد دخلنا فيه» .

لقد أكدت كتابات المدافعين عن العروبة وتراثها في العصر العباسي ضد المشككين بأن فكرنا القومي ـ اذا جاز لنا استعمال هذا الاصطلاح ـ كان منذ البدء انسانياً لا عنصرياً .

ماذا عن العصر الاموي ؟

لقد شوه المستشرقون الالمان بصورة خاصة التاريخ الاموي فكتب ولهاوزن عن «النظرة الاستعلائية» التي ميزت «الدولة العربية» ويقصد بها الخلافة الاموية وركز فان فلوتن على «السيادة العربية» في العصر الاموي . وكان هؤلاء المؤرخون الالمان يكتبون عن صراع القوميات في أوربا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ثم جاء مؤرخونا المحدثون فنقلوا عن قصد ودون قصد من كتب المستشرقين معتبرين «الحقائق» التي توصلوا اليها «نظريات تاريخية» لا يرقى اليها الشك !!

وهكذا اهملت الانجازات الكبيرة التي تحققت في العصر الاموي وطويت النظم والادارة . ولعلنا نشير هنا الى ان عملية التعريب كانت عملية جبارة شملت المصطلحات الادارية والمالية ولم تنحصر في المركز بل تعدت ذلك الى الاقاليم . ورافق

تعريب الدواوين تعريب السكة (النقود) وهي دون شك خطوة مهمة في تأكيد الكيان العربي للدولة ودعم استقلالها الاقتصادي . فقد أصبح هناك وزن خاص جديد للدينار العربي بينما كان المجتمع يتعامل قبل ذلك بـالدينار البيـزنطي والدرهم الساساني !!

ونتج عن ذلك تحرر العملة العربية من الارتباط بالخارج حيث أصبح لها شأن دولي في التعامل التجاري والمالي .

ولابد ان نشير الى النظم الادارية التي ابتدعتها عبقرية هشام بن عبدالملك والتي استمر العباسيون يعتمدون عليها ثم الاصلاحات المالية للعديد من خلفاء بني أمية وولاتهم في محاولة منهم لانتشال الدولة من الازمة المالية التي خنقتها .

حول تفسير الثورة العباسية :

واستناداً الى نفس المنطلق العنصري قدم لنا المستشرقون تفسيراً مشوهاً للثورة العباسية . فحرفوا النصوص التاريخية وأساؤوا تفسيرها محاولين تطبيق فكرة مسبقة في أذهانهم .

والواقع ان قراءة جديدة للنصوص التاريخية القديمة وما استجد لدينا من نصوص تاريخية مكتشفة حديثاً يؤكد لنا بأن الثورة العباسية ثورة عربية قامت بها القبائل المتذمرة في خراسان فهي قضية عربية بالدرجة الاولى اشتـرك فيها الموالي في كلا الجانبين الاموي والعباسي !!

وماذا عن العصر العباس الاول :

ومثلما آن لنا ان نستبدل التفسير القديم حول الثورة العباسية فقد آن لنا ان نستبدل النظرة التي تؤكد بأن العصر العباسي الأول كان عصر نفوذ الفرس من الوجهة السياسية والادارية . فقد ظل العرب طوال هـذا العصر في السلطة وقد

ساعدت العائلة العباسية في الادارة العديد من العوائل العربية منها آل المهلب الازديون وغيرها من الشخصيات اليمانية والربعية . كمن أكد الخلفاء العباسيون علىٰ المظاهر التي تؤكد عروبة الثقافة واللغة والفكر والادارة .

وقد حاولت النظرة المتحيزة ان تؤكد علىٰ بعض الشخصيات او العوائل غير العربية وطمست دور الشخصيات العربية عن عمد وقصد وليس في وسعنا الاطالة ولكننا نرد عليهم بقول ابن خلدون : «وكذا صور من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها برجالات العرب» اما الحركة العلمية والثقافية ، فقد حاولت النظرة المتحيزة ان تشكك في فضل العرب ومشاركتهم في هذه الحركة واعتبرت الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي عيالاً علىٰ حضارات اليونان والفرس والهنود واعتبرت ان أكثر علماء الاسلام في تلك الفترة من غير العرب . وللتدليل علىٰ خطأ هذه النظرة نشير الىٰ ثلاثة أمور رئيسية :

الاول : النزعة الانسانية للعروبة فقد أشرنا سابقاً بأن المعيار الذي أكدت عليه العروبة لم يكن العنصر او الدم (النسب) بل الفكر والثقافة واللغة والبيئة ومن هذا المنطلق المرن المتسامح اندمج العرب بغير العرب في المجتمع الاسلامي .

الثاني : وهو مكمل للامر الاول حيث أصبحت العروبة والاسلام صنوين متلازمين وأصبح المعيار الذي يقاس به العالم العربي او غير العربي في المجتمع الاسلامي هو بما يكتبه من افكار وما يبثه من ثقافات موالية للمجتمع بما فيه من تراث حضاري وقيم خلقية .

الثالث : لقد أخطأ المتحيزون والمشككون حين اعتمدوا علىٰ القاب العلماء في تقرير جنسيتهم ذلك ان الشخص كان ينسب الىٰ الاقليم الذي يعيش فيه او المدينة التي ولد فيها بينما كان أصله يعود الىٰ موطن آخر او قبيلة أخرىٰ مغايرة . وهكذا فإن العديد من العلماء العرب نسبوا الىٰ مدن أعجمية لانهم عاشوا فيها .

حول تمجيد بعض الحركات المشبوهة :

تحاول النظرة المتحيزة ان تمجد بعض الحركات المشبوهة في المجتمع الاسلامي الوسيط مثل البابكية والشعوبية وغيرها .

فالبابكية انتفاضة الشعب الاذربيجاني ضد التسلط العربي والتحكم الاقطاعي !! والشعوبية حركة «تقدمية جماهيرية» ضد سياسة التمييز العنصري والطبقي في العصر العباسي ! وهكذا بالنسبة للباطنية والحشاشة وغيرها ...

ان البابكية جردتها النظرة المتحيزة من سياقها التاريخي الشامل وحددتها بشعب معين هو الشعب (الاذربيجاني) وأقليم معين هو (اقليم أذربيجان) وهذا لا يتفق مع طبيعة الحركة لا بشرياً ولا اقليمياً . اما الشعوبية فهي دون شك نزعة عنصرية شوفينية لانها اعتبرت العرب ادنى منزلة من الاعاجم ونظرت الى ارثهم الحضاري الذي قاد الانسانية يوماً ما نظرة ازدراء واستخفاف . فبماذا نصف النزعة التي حاولت ان تفرق بين العرب وغير العرب في المجتمع الواحد .... أليست هذه النزعة نزعة عنصرية تسير عكس حركة التاريخ ؟ !!

اشعاعات مضيئة في التاريخ العربي :

وهكذا فإن هذه النظرة المشككة حاولت التأكيد على التفكك والهدم والانفصال في تاريخنا العربي وأهملت مظاهر الوحدة والتماسك في هذا التاريخ .

فلم تبرز روح الاسلام وأثره على الحياة العربية باعتباره منعطفاً مهماً في تاريخ العرب وخطوة بالاتجاه الصحيح في التأكيد على عوامل التماسك والوحدة . وأكدت على المظاهر السلبية في القرن الاول الهجري (العصر الراشدي والاموي) فشوهت مغزى (حروب التحرير) وأهملت انجازات الامويين في الفتوح والادارة وتثبيت مفهوم الامة من خلال عملية التعريب . وحين جاءت الى الثورة العباسية (أظهرتها بمظهر الحركة العنصرية) وأهملت شعاراتها الانسانية الخالدة التي تؤكد على الثورة ضد الظلم :

«اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير» وتعتمد على الجماهير العربية وغير العربية في حركتها من أجل التغيير والتبديل الجذري في المجتمع : «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» فقد اتجهت قيادة الثورة العباسية نحو المستضعفين والكادحين من جماهير الشعب لتجعل منهم القوة الضاربة في حركتها الثورية .

وعدا عن هذا فإن هؤلاء المستشرقين المنحازين اتهموا مؤرخينا الرواد امثال الطبري واليعقوبي والازدي والبلاذري وغيرهم بأنهم «كانوا يكتبون ما يلائم اذواق الحكام والامراء» وانهم كانوا يخافون السلطة ويدونون ما ترغب بتدوينه ويحذفون ما لا تريد اظهاره !! ولا شك ان هذا الكلام هو مغالطة تاريخية كبيرة . فأين تملق الطبري للسلطة وهو يكتب الاخبار عن عقائد الحركات المعارضة لها ويستعرض الروايات المتباينة حول كل حركة من الحركات وهل كان خليفة بن خياط مجابهاً للخلفاء وهو يورد رسائل الخوارج التي تهاجم سياسة الخلافة . وأين ميول الازري او الازكوي الموالية للسلطة المركزية وهم ينقدون سياستها في إقليم الجزيرة الفراتية او عمان !! وهكذا بالنسبة للعديد من أمثال هؤلاء المؤرخين العرب الرواد .

حول عروبة المغرب :

يحاول بعض المستشرقين ان يروجوا للفكرة القائلة بأن البربر ثاروا على الحكم العربي باسم القومية البربرية او المغربية «وكأن وجه المغرب العربي ليس واضحاً بشرياً وثقافياً ، ان العديد من القبائل العربية هاجرت الى المغرب قبل الاسلام وزادت الهجرة بعد الاسلام وخاصة اثناء الفتوحات بعد تأسيس دولة الادارسة حيث استقبلت المغرب العديد من الموجات العربية من قبائل الازد والخزرج وقيس ويحصب وغيرها .

وتأسس جامع القرويين في فاس في هذه الفترة المبكرة وتطور الى جامعة حفظت

اللغة العربية والتراث العربي في المغرب . خاصة وان المغرب لم تواجه فيها الثقافة العربية في العصر الوسيط الازمة التي واجهتها الثقافة العربية في المشرق بفعل حملات المغول والصليبيين !!

وليعلم العنصريون أصحاب النظرة المتحيزة بأن البربر حين ثاروا كانت ثورتهم ضد والٍ بالذات ولم يثوروا علىٰ الحكم العربي الاسلامي بدليل انهم ظلوا مرتبطين بالاسلام ولكنهم تبنوا آراء جديدة مثل (المذهب الخارجي) الذي يختلف عن مذهب السلطة المركزية . وعن طريق المذهب الخارجي حاولوا تحقيق تطبيق أحسن للاسلام .

ان المؤرخين العرب المحدثين الذين يقلدون المستشرقين في تفسيرهم لثورات البربر تفسيراً عنصرياً يقعون في خطأ تاريخي كبير . فلو كان الحكم العربي ظالماً لما دخل البربر الاسلام ولما تسموا بأسماء عربية ولما انخرطوا في الجيش العربي الذي استمر في الفتوح في الاندلس وجنوبي فرنسا ... ذلك لأن الاسلام والعروبة كانا شيئاً واحداً في تلك الفترة وكان الحكم العربي مرتبطاً بالاسلام . وعلينا هنا الا نعمم الحالات الاستثنائية والحوادث الفردية فظلم والٍ لا يعني ان الحكم كله وفي كل الفترات كان متعسفاً . لقد كان الوالي مرتبطاً بالسلطة المركزية فأخطأت السلطة المركزية وجعلت الامارة وراثية فحصلت التجاوزات والثورات ضد الولاة وليس ضد النظام الاسلامي . ولابد ان نسأل ذوي النظرة المتحيزة هل كان الادارسة والاغالبة والفاطميون من البربر؟ بل هل كان قادة الثورات من الخوارج وغيرهم بربراً ام عرباً ؟؟ وهل كان فكر الثورة الخارجية في المغرب وعقيدتها محلياً بربرياً أم كان فكراً عربياً تغلغل عن طريق منظمة سرية عربية من العراق حتىٰ وصل المغرب ووجد تربة خصبة فيها ؟

فرضية استشراقية تخدم الاستعمار :

ابتدع بعض المستشرقين اسطورة تاريخية فحواها ان شارلمان امبراطور الفرنك أصبح حامياً للأراضي المقدسة في فلسطين وأميراً علىٰ القدس بموافقة

الخليفة هارون الرشيد ومعنى ذلك ان الخلافة العباسية اعطت امتيازات للامبراطورية الكارولنجية في فلسطين. ان المصادر العربية لا تشير الى ذلك من قريب او بعيد ولم يشر اليها الا مؤرخ البلاط الكارولنجي ثم نقلها عنه مؤرخون آخرون.

وواضح ان هدف مؤرخي البلاط الكارولنجي حين بالغوا في حقيقة الصلات بين العباسيين والكارولنجيين هو تضخيم اسم شارلمان عن طريق ربطه بأعظم ملوك العالم آنذاك هارون الرشيد وبالاماكن المسيحية المقدسة في فلسطين. اما مؤرخو القرن التاسع عشر الاوربيون فقد صوروا هذه العلاقات بشكل مبالغ فيه جداً حيث جعلوا من شارلمان حامياً للاماكن المقدسة في فلسطين ومالكاً لمفتاح بيت المقدس وراعياً لمسيحيي الشرق. ولم تكن فرضيتهم خيالية فحسب بل انها فرضية مخطط لها لكي تخدم اغراض دول اوربا الاستعمارية التي كانت تحاول اقتحام «الرجل المريض» الدولة العثمانية .. فاذا كانت اوربا في القرون الوسطى قد حصلت على امتيازات مهمة في الشرق من الدولة العباسية فإن أوربا العصر الحديث تستطيع الحصول على امتيازات جديدة في هذا الشرق من الدولة العثمانية. وبمعنى آخر فإن هذه القضية الموضوعة اعتبرت بمثابة «سابقة» مهمة يمكن الاقتداء بها. انّ هذه الفرضية ليس لها أساس تاريخي وهي تشبه الشعارات التي رفعها الاستعمار والصهيونية لتبرير تواجدهم في الشرق العربي. ألمْ يرفع الاستعمار «عبء الرجل الابيض» مؤكداً ان من واجبه ان يتواجد في الشرق لكي يرفع من مستوى شعبه ويساعد على تمدينه وتحسين احواله؟ الم تدعي الصهيونية انها جاءت الى الشرق الجاهل المتخلف لكل تبني كياناً اوربياً متحضرا يحتذى به في هذه المنطقة؟

قراءة جديدة للنصوص وكتابة جديدة للتاريخ :

وأخيراً وليس آخراً فإنني أدعو الى قراءة جديدة للنصوص التاريخية دون

الاعتماد على ما كتبه المستشرقون الذين يسيئون أحياناً تفسير النص عن قصد او دون قصد وعندئذٍ سنحدث تغييراً جذرياً في كتابة التاريخ العربي ننهج فيه نهجاً جديداً مستمداً من نظرتنا العربية للاحداث ومن بيئتنا وثقافتنا وأسلوب تفكيرنا . وأكثر من ذلك علينا ان نمتلك نظرة مميزة للتاريخ العالمي فنحن حين نكتب تاريخ العالم علينا ان نبرز منه المظاهر التي تهمنا في مرحلتنا الحاضرة كعرب ففي التاريخ الاوربي مثلاً تهمنا الحركات القومية والحركات الوحدوية وحركات التحرر والحركة الاستعمارية اسبابها ونتائجها وانهيارها ثم النهضة الاوربية وأثر التراث العربي فيها . كل ذلك نطرحه من خلال تفسير ذاتي موضوعي نتبناه لا من تفاسير اوربية يريدها مؤرخون او مستشرقون ربما جانبوا الحقيقة في طرحهم لهذه المظاهر السياسية والحضارية .

المبحث الثالث

منعطفات مهمة في التاريخ العباسي



(١) لم تكن الثورة العباسية انقلاباً يهدف الىٰ احلال اسرة محل أسرة في السلطة بل كانت ثورة جذرية ومنعطفاً مهما في تاريخ الاسلام وذلك بسبب التغيرات الكبيرة التي حدثت في اعقابها في مجالات السياسة والادارة والفكر. وقد اعتمدت هذه الثورة علىٰ التنظيم الدقيق والسرية في بث مبادئها وكسب الانصار. وكان عصبها الرئيس القبائل العربية الخراسانية وخاصة اليمانية والربعية كما انها جذبت اليها الموالي من الفرس. وكان الخلفاء العباسيون عرباً من بني هاشم وحفل بلاطهم بالمفاخرات والاشعار والايام، وبقيت اللغة العربية اللغة الرسمية في الدواوين والمجتمع والفكر.

ومهما قيل في تفسير طبيعة الثورة العباسية فلابد من التأكيد علىٰ ثلاثة نقاط رئيسة:

الاولىٰ: ان القوة الضاربة فيها كانت تتكون من القبائل العربية الخراسانية.

الثانية: انها عباسية أصيلة أي انها كانت تهدف الىٰ تأسيس دولة عباسية مكان الدولة الاموية، رغم ان هذه الثورة كأي حركة ثورية أخرىٰ ضمت اليها الكثير من العناصر ذات الاتجاهات والمصالح المختلفة ولكنها تتفق في شيء واحد هو اسقاط الامويين. الّا هل ان هذا التحالف كان لابد ان ينفض بمجرد نجاح الثورة. وهذا ما حدث في اعقاب الثورة العباسية.

الثالثة: انها ثورة عميقة فس محتواها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري والديني. ولعل اول ما نلحظه ان فهم الثورة للاسلام كان اعمق من الفهم الاعمق له فلقد كان الحكم في العهد الاموي يقضي بتمتع الارستقراطية العربية الحاكمة بالامتيازات السياسية والعسكرية والمالية، ورغم ان الامويين لم يقصروا الوظائف علىٰ العرب بل استخدموا الموالي في الادارة وكان هناك فرق عسكرية من الاعاجم المسلمين في بعض الجيوش الاموية فإن حصة الاسد كانت دوماً من نصيب الكتلة العربية الحاكمة الموالية للخليفة الاموي بينما كان الضعفاء من العرب وغير

الذي حدا بالمستشرق كلود كاهين الى رفض الفرضيات التي تقول بالجذور المتطرفة للشيعة العباسية والتأكيد على جذورها الاسلامية الخالصة .

ان استمرار نفوذ العرب وسلطتهم في العصر العباسي الاول هو الذي حدا ببعض الموالي غير العرب الى الادعاء بالنسب العربي لكي يصلوا الى المراكز ويشبعوا طموحهم . ولم يفقد العرب مراكزهم الا في فترة متأخرة من العصر العباسي الأول حين اسقطوا من الديوان واستبدلوا بالجند الاتراك في عهد المعتصم .

ولقد كان مجيء العباسيين الى الحكم نقطة تحول في نظام الخلافة فقد بنى العباسيون ادعاءهم بالحكم على حق القرابة من الرسول باعتبار ان العباس عم الرسول (ص) وعلى حق الحرمة باعتبار ان العباس كان يتولى سقاية الحجيج وولاية زمزم في الحرم المكي . وقد قرب العباسيون الفقاء ليظهروا ان حكمهم يستند الى الشريعة على عكس الامويين الذين أخذوا بالعرف والتقاليد العربية .

وظهرت الصيغة الثيوقراطية في مراسيم الخلافة والقاب الخلفاء . وتحول الخليفة من شيخ عربي يعتبر الأول بين اقرانه الذين يحكم بمشورتهم الى شخصية مقدسة تستند سلطتها الى الحق الألهي المقدس .

وابتدع العباسيون منصب الوزير، ولا شك في أن ادعاء العباسيين بأنهم أصحاب الحق الشرعي وممثلي السنة والجماعة دفعهم الى اختيار هذا الاصطلاح القرآني للدلالة على الساعد الايمن للخليفة كما وان التقاليد الثيوقراطية التي تبنتها الخلافة العباسية لعبت دورها في بلورة هذا المنصب الذي تطور من مشاور اول للخليفة الى وسيط بين الخليفة الذي عزل نفسه في بلاطه وبين الرعية .

وكان مجيء العباسيين فاتحة عهد جديد في النظم العسكرية ونقطة تحول في تاريخ الجيش الاسلامي حيث يعتبر الجيش العباسي اول جيش منظم في الاسلام . فكان الجند المقاتلة ينتظمون فيه ومهمتهم الرئيسية الحرب والدفاع عن الدولة ضد الخطر الخارجي والثورة الداخلية . ومقابل ذلك تعني الدولة بتدريبهم

وتخصيص الرواتب والارزاق لهم . وقد بقي (أهل خراسان) وحدة عسكرية واحدة يرتبطون برابطة الاقليم بغض النظر عن قبائلهم ويتمسكون بالولاء للدولة .

اما في الادارة وخاصة الدواوين فكان من سياسة العباسيين خلق طبقة من الموظفين «الكتاب» وكان غالبيتهم من الموالي الذين يدينون بالاخلاص للدولة الجديدة . وقد أدرك العباسيون ازدياد النفوذ الاعجمي في الدولة وقاموا بمحاولات جدية لتأكيد الطابع العربي لها . كما طبق العباسيون المركزية الادارية كعلاج للانحلال الاداري الموروث عن الامويين . وقد تحسن العمل في الدواوين بفضل التخصص واستقرت الاعمال الادارية بفضل استحداث عاصمة دائمية . ولكن هذه البدايات لم تؤد الى القوة الادارية لفترة طويلة بسبب سعة الدولة وقوة الميول الانفصالية العميقة الجذور في الاقاليم .

وقد اوجدت الثورة العباسية وعياً جديداً وادراكاً لدى الناس فظهرت تيارات فكرية جديدة ذات اتجاهات مختلفة منها التيار الذي يدعو الى ادخال مظاهر الحضارة الفارسية الى المجتمع الاسلامي الى التشكيك بالقيم والتقاليد العربية وبدور العرب التاريخي وهي بأنسابهم وحضارتهم وفضائلهم . وتعرف هذه الحركة بالشعوبية التي كانت موازية لحركة الزندقة ولها ارتباط وثيق بها . وقد صمدت التقاليد والافكار العربية وربحت معركتها ضد الشعوبية والزندقة واستمرت حركة التعريب بسرعة واذعن الاعاجم الى العروبة والاسلام وساهموا ايجابياً في الحضارة بما كتبوه وانتجوه باللغة العربية .

وكان هدف المنصور من بناء بغداد هو جعلها مركزاً عسكرياً وادارياً ولكن انتقال العباسيين الى العراق كان يرمز الى انتصار أهل العراق على أهل الشام ويشير الى ازدياد أهمية الاقاليم الشرقية سياسياً واقتصادياً .

اما من الناحية الفكرية فقد أصبحت بغداد في عصرها الذهبي مجمعاً للعلوم والفنون والآداب ومركزاً للترف المادي . وقد أوجد الرفاه الاقتصادي من المثقفين الذين يمتلكون الوقت والذوق وحب الاستطلاع والرغبة في التتبع فكانت اليقظة

الفكرية التي ابتدأت بالترجمة .

كما ان الازدهار الاجتماعي والاقتصادي أدىٰ الىٰ تغيرات مهمة . وقد حل محل طبقة المحاربين العربية طبقة متنفذة جديدة تتكون من أصحاب الاراضي والموظفين والتجار والكتاب . وتحولت الامصار من مراكز عسكرية هجومية الىٰ مراكز حضرية مزدهرة .

(٢) اما المنعطف الثاني الذي شهدهد العصر العباسي : فقد وقع في خلافة هارون الرشيد ١٧٠هـ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٨م . الذي نعتبره نقطة تحل في تاريخ العصر العباسي الاول به انتهت فترة وبدأت اخرىٰ . ان عصر الرشيد «الذهبي» بكل ما فيه من مظاهر القوة السياسية والحضارية يمثل بدايات التدهور الاداري والتفكك السياسي والتحلل الحضاري .

ان روايات الف ليلة وليلة ، اذا صحت نسبتها الىٰ عهد الرشيد ، قد جعلت من شخصية الرشيد اسطورة أخفت الكثير من الحقائق عن شخصيته التاريخية ، فقد عاش هارون في بلاط ابيه المهدي الذي بدت فيه مظاهر الترف والاسراف والتحلل ، حياة نعيم ، بعيداً عن المسؤولية ومحاطاً بالخدم والموالي والخصيان . ثم رفعته امه الخيزران والبرامكة الىٰ ولاية العهد والخلافة بعد المؤامرة التي دبرت علىٰ الهادي وقد فوض الرشيد الادارة بيد البرامكة من ١٧٠هـ ـ ١٨٧هـ حيث نكبهم فجأة . وتعتبر هذه النكبة نقطة تحول في الكفاءة الادارية للدولة التي بدأت تسير في طريق التدهور .

ثم ان اتجاه العباسيين نحو الشرق والاهتمام به كان لابد ان يحدث حركة انفصالية في الاقاليم الغربية بصورة مبكرة . كما وان ازدياد الاضطرابات في الشرق الاسلامي تفاقمت دون ان يستطيع الرشيد ايجاد حل لها . ثم ان تكتلات البلاط عقدت المشكلة بحيث ضاعت المسؤولية بين الآراء المتضاربة . وازاء هذا الوضع اضطر الرشيد ان يعترف بالاغالبة في افريقيا سنة ٨٠٠م مقابل دفع مقدار معين من المال للخزينة المركزية . وهكذا فقد اعترفت الخلافة العباسية رسمياً

بالتفكك السياسي في الدولة تلك العملية التي بدأت منذ سنة ١٣٨هـ في الاندلس ثم ١٧٢هـ في المغرب (الادارسة).

ويعتبر الرشيد مسؤولاً عن التفكك السياسي حين قرر تقسيم الدولة بين ابنائه الثلاثة الامين والمأمون والمؤمن ذلك القرار الذي أدى الى الحرب الاهلية بين الامين والمأمون. وربما كان الرشيد في تقسيمه الدولة بين ابنائه مدفوعاً برغبته في ان يحكم ابناؤه من بعده ويسيطروا على كل الاقاليم سيطرة تامة حيث تتأكد السلطة العباسية على كل الولايات ولكن من الصعوبة القول بأن هذا الحل الذي ابتدعه الرشيد كان حلاً صحيحاً.

ان الرشيد يظهر بعض النقص في الكفاءة الادارية والسياسية كخليفة في بعض ما اتخذه من قرارات ومواقف سياسية اوقعته في اخطاء وجعلته مسؤولاً بصورة غير مباشرة عن الحرب الاهلية التي اعقبت عهده وأدت الى تفكك الدولة. ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار عهده نهاية فترة وبداية منعطف جديد في التاريخ العباسي.

لقد اندلعت الحرب الاهلية بعد وفاة الرشيد وكانت قوة الامين تتركز بالدرجة الاولى في بغداد والعراق اما قوة المأمون فانحصرت في ايران. ولقد فسرت الحرب تفسيراً عنصرياً اي انها نزاع بين الفرس والعرب انتهى بانتصار الفرس. ولكن الحرب الاهلية كانت في الغالب استمراراً للكفاح الاجتماعي الذي ميز الفترة السابقة وازداد تعقيداً بدخول نزعات اقليمية وليست عنصرية بين ايران والعراق. ولما كان المأمون معتمداً على العون من الاقاليم الشرقية فإنه حاول نقل العاصمة من بغداد الى مرو ولكنه واجه تحدياً صارخاً وعنيفاً من بغداد بل كل العراق فعاد الى عاصمة الخلافة. ومنذ ذلك الحين وجدت النزاعات الارستقراطية الفارسية والاقليمية منفذا في الدويلات الفارسية الشرقية. لقد كانت الارستقراطية الفارسية قد تحالفت مع العباسيين الحاكمين ولكن هذا التحالف تصدع نتيجة نكبة البرامكة. وزاد الشقاق بعد عودة المأمون الى بغداد

واستطاع طاهر بن الحسين سنة ٨٢٠م ان يؤسس أول دويلة في خراسان والمشرق حيث تبعتها دويلات أخرىٰ من صفارية وسامانية وغزنوية . ان ظاهرة الانفصال هذه لها جذورها التي تعود كذلك الىٰ الثورة العباسية نفسها ، فإن هذه الثورة عملت علىٰ ايقاظ الآمال في نفوس العامة من الناس وبعثت فيهم آمال التطلع نحو مستقبل افضل فانفسح المجال لانطلاق الكثير من الآراء الايرانية التي تبلورت أكثر كلما تقادم الزمن بالدولة العباسية .

ان المشاكل الداخلية التي جابهت الخلافة جعلتها في شغل شاغل عن الجهاد ولم تعد ستراتيجية الدولة تعتمد علىٰ الهجوم بل علىٰ الدفاع ولعل آخر مرة شنت الدولة العباسية هجوماً قوياً علىٰ البيزنطيين كان في عهد المهدي ثالث الخلفاء العباسيين سنة ٧٨٢م . ولم تعد الحملات العسكرية الا مناوشات علىٰ الحدود لم تغير الوضع في صالح أي من الطرفين .

(٣) اما المنعطف الثالث الذي مرت به الخلافة العباسية فكان مقتل المتوكل عاشر الخلفاء العباسيين علىٰ يد القادة العسكريين الاتراك سنة ٢٤٧هـ/ سنة ٨٦١م . وقد دخل الاتراك البلاط والجيش العباسي منذ عهد المنصور الخليفة الرابع ولكن نفوذهم بدأ يستفحل منذ عهد المعتصم الذي اعتمد علىٰ الاتراك وجلبهم من الآفاق وزاد من الفرق العسكرية التركية . وأصبح من الاتراك قادة يأمرون وينهون في العاصمة الجديدة سامراء التي بناها المعتصم لهم سنة ٢٢٠هـ/ سنة ٨٣٥ والواقع ان المتوكل جاء الىٰ السلطة بتأييد من القادة الاتراك أمثال يعال النوابي ووصيف وغيرهما . وحاول ان يمنّي الاتراك بالامتيازات والمناصب ولكنه ادرك بعد حين ان الامر قد افلت من يده ويجب ان يتدارك الوضع بالحد من نفوذ الاتراك ولكنهم استطاعوا كسب ابناء المنتصر الىٰ جانبهم ، واستطاع المنتصر ان يجمع حوله المعارضين للمتوكل منّ اتراك وعلوية وانتهت المعارضة بمقتل الخليفة .

وبدأ وضع جديد أصبح فيه الخلفاء العوبة بيد القادة الاتراك يعينونهم

ويذلونهم متى شاءوا ولم ينته حتى سنة ٣٣٤هـ/ سنة ٩٤٦م واعتلى الخلافة فيه ١٢ خليفة لم يكن لهم من الامر شيء وهم :

المنتصر ـ المستعين ـ المهدي ـ المعتمد ـ المعتضد ـ المكتفي ـ المقتدر ـ القاهر ـ الراضي ـ المتقي ـ المستكفي والمطيع .

لقد ظهر بين القادة الاتراك من احتل مناصب رفيعة في الدولة ، بل ان بعضاً منهم استطاع ان يؤسس دويلات في بعض الاقاليم . ففي سنة ٨٦٨م استطاع والي مصر احمد بن طولون ان يستقل بمصر استقلالاً ذاتياً ووسع نفوذه الى بلاد الشام . وقد اعقبت الدولة الطولونية في حكم مصر الدولة الاخشيدية (٣٢٣/ ٩٣٥ ـ ٣٥٧/ ٩٦١) والواقع ان بغداد لم تستطع استعادة سيطرتها على مصر مرة ثانية بعد ذلك التاريخ . ان وجود سلطة مستقلة في مصر وتوسع نفوذها غالباً ليشمل الشام اعطى مجالاً للقبائل البدوية في صحراء الشام وبادية الجزيرة للتمرد على الحكومة المركزية العباسية والتمتع بالحرية التي تتمناها والتي فقدتها بعد سقوط الامويين . والاكثر من ذلك ان هذه القبائل استطاعت ان تكوّن دويلات في الجزيرة وسوريا في فترات الضعف العسكري السياسي ، ومن هذه الدويلات الدولة الحمدانية (٣١٧/ ٩٢٩ ـ ٣٨٠/ ٩٩١) في الموصل .

ولم يعد سلطان الخليفة العباسي يتعدى اعطاء شارات الحكم للولاة الذين نصبوا انفسهم حكاماً على الاقاليم فقد استطاع الصفارون تأسيس دولتهم في ايران الجنوبية والشرقية (٢٥٤/ ٨٦٧ ـ ٢٩٠/ ٩٠٣) ثم اعقبهم السامانيون (٢٦١/ ٨٧٤ ـ ٣٨٩/ ٩٩٩) .

وفي افريقيا استطاع الفاطميون القضاء على الاغالبة وتثبيت سلطتهم هناك ٢٩٧/ ٩٠٩م . اما في العراق فإن من أوضح علامات الانحطاط السياسي لمركز الخليفة هو ظهور منصب أمير الأمراء سنة ٩٣٥م وقد كان هذا اللقب الذي اتخذه القائد العسكري ابن رائق يهدف الى تأكيد سلطة قائد بغداد العسكري على أقرانه في المناطق الاخرى ، ولكن المنصب أصبح وجود سلطة دنيوية عليا ذات

اختصاصات سياسية وعسكرية سالبة السلطة الحقيقية من الخليفة معترفة به رئيساً رسمياً للدولة فقط، وممثلاً للوحدة الدينية الاسلامية.

ان هذه الفترة شهدت حركة قام بها الزنج وهم رقيق في السواد وكانت قد هددت الدولة العباسية ووضحت مدى الانهيار الذي أصاب القوة العسكرية والادارية في الخلافة العباسية ولم تستطع الدولة القضاء عليها الا بعد جهد جهيد حيث دامت من ٢٥٥هـ/ ٢٧٠. كما ان الضعف السياسي وسوء الحالة الاقتصادية وخاصة بين «الضعفاء» من الناس فسح المجال لانتشار الآراء الاسماعيلية والقرمطية واستطاعت هذه الحركات ان تنجح في بعض الاقاليم.

(٤) والمنعطف الرابع: الذي ميز الدولة العباسية وقع في سنة ٣٣٤هـ/ سنة ٩٤٦ حين استطاع الشيعة البويهيون أن يحتلوا بغداد بعد أن نجحوا في إقامة دويلة مستقلة في غربي فارس. ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط بغداد ـ ما عدا فترة قصيرة ـ لم يستطع الخلفاء استعادة سلطتهم الحقيقية بل بقوا تحت رحمة الأمراء الاجانب ذوي السلطة الحقيقية. ولعل اعتبار هذه الفترة منعطفاً جديداً في التاريخ العباسي يتأتى من ناحيتين:

الاولى ـ لقد أطلقت الثورة العباسية العنان للعواطف العنيفة والآمال المكبوتة واخذنا نسمع عن ثورات وحركات عنيفة في ايران مثل حركة قام بها فريد وسنج المجوسي واستاذسيس والمقنع وبابك الخرمي. ولعل الصورة التي لدينا عن هذه الحركات غير متكاملة، تعكس رأي الكتّاب والمؤرخين المسلمين عنها ولذلك فإن بعض الحقائق عن معتقدات هذه الفرقة ربما شوهت او بولغ فيها. وكانت هذه الحركات في الظاهر دينية ارادت استمالة الناس الى المعتقدات المجوسية ولكنها في الباطن كانت تهدف الى اعمق من ذلك بكثير وأنها بطبيعتها معقدة وذات واجهات متعددة.

على ان الحركات الفارسية اخذت تتصف بالصفة الدنيوية السياسية منذ بداية القرن التاسع الميلادي وكان من مظاهرها انفصال الطاهرين (٨٢١ ـ ٨٧٣)

وتلاهم الصفاريون ثم جاء السامانيون الذين أنعشوا الثقافة الايرانية من عاصمتهم في بخارىٰ كما وانهم نشروا المذهب السني في رقعتهم . ولعل المؤرخ يلاحظ لأول مرة أدباً فارسياً ولكنه مكتوب بحروف عربية ومتأثر الىٰ حد كبير بالاسلام . ثم تلاهم البويهيون (٩٣٢ ـ ١٠٥٥) الذين لم يكتفوا بسلطتهم في شمال وغربي ايران بل تقدموا الىٰ بغداد واحتلوها . كما ظهرت دويلات ايرانية اخرىٰ وخاصة في شمالي ايران لم يستطع العرب السيطرة كلياً علىٰ المنطقة في عهد الفتوحات وقد استطاع العلويون الزيدية في جيلان والمناطق القريبة منها أن يؤسسوا سلطاناً مستقلاً عن الخلافة العباسية حوالي سنة ٨٦٤م . ان هذه الفترة بين تدهور السيادة العربية في ايران في القرن التاسع الميلادي وبين قيام السيطرة التركية في القرن الحادي عشر الميلادي هي في حقيقتها فترة البعث الايرانية التي يسميها البروفسور منيورسكي «الانترمتزو الايرانية» .

الثانية : لقد شهدت هذه الفترة انتعاشاً في الدعوة الشيعية العلوية ، ولعل ذلك ظاهر من استعراض الدويلات التي تأسست في هذه الفترة حيث كانت شيعية في غالبيتها . وهذا ربما يعطينا احد الاسباب لامتناع البويهيين عن اسقاط الخلافة العباسية السنية . فلم يرغب البويهيون بإقامة خليفة او امام علوي يشاركهم سلطتهم المطلقة من جهة ، ومن جهة أخرىٰ فإن عزل الخليفة العباسي ربما سبب ثورة سنية في العراق واضطراب في الادارة خاصة وان طبقة الموظفين والعمال والامراء كانت في غالبيتها سنية .

ان انتقال المجتمع في الدولة العباسية من مجتمع زراعي عسكري الىٰ مجتمع اممي ذي خصائص تجارية وصناعية بارزة ، أثر علىٰ التركيب الاجتماعي في الدولة وكان سبباً في موجة عارمة من التذمر والاضطراب الاجتماعي . كما ان التطور الثقافي وانتعاش الآراء المختلفة القديمة والحديثة وتصادمها أدّىٰ الىٰ ظهور حركات غالية ومنحرفة عن الدين الاسلامي . ولا شك فإن هذه الحركات الهرطقية . اذا صح لنا استعمال هذا التعبير . كان الوسيلة الوحيدة للتعبير عن التذمر في

مجتمع ديني في العصور الوسطىٰ .

ولعل من أبرز مظاهر هذا التذمر في هذه الفترة حركات القرامطة الضيقة في البحرين وسورا والجزيرة الفراتية وجنوبي الجزيرة العربية . كما وان هذا التذمر ظهر بشكل حركة سلمية تتمثل بحلقات المتصوفة في بغداد نفسها . واذا كانت الخلافة قد استطاعت القضاء علىٰ قرامطة البحرين والشام فإنها لم تستطع القضاء علىٰ الحركة الاسماعيلية في اليمن التي انتشرت من هناك الىٰ شمال أفريقيا وأسسوا دولهم سنة ٩٠٨م ، ثم فتحوا مصر علىٰ عهد المعز سنة ٩٦٩م .

وبتأسيس الدولة الفاطمية في مصر وأفريقيا ظهرت لأول مرة دولة مستقلة تحدت الدولة العباسية ولم تعترف بأية سيادة للعباسيين بل أكثر من ذلك نافست الخلافة العباسية في النفوذ علىٰ الاقاليم الاسلامية وحاولت اضعاف العباسيين اقتصادياً بتحويل طرق التجارة مع جنوبي شرق آسيا من الخليج العربي الىٰ البحر الاحمر . وبمعنىٰ آخر تقوية مصر واضعاف العراق . وقد نجح الفاطميون وخاصة في عهد المستنصر (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) في السيطرة علىٰ شمال أفريقيا وصقلية ومصر والشام وغربي الجزيرة العربية . ولكن الفاطميين لم يستطيعوا احراز النصر النهائي علىٰ العباسيين حيث بدأت دولتهم تتدهور بعد خلافة المستنصر .

(٥) لقد بدأ المنعطف الخامس في تاريخ الدولة العباسية مع بداية القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري حين ظهرت بوادر الانحطاط في الدولة والمجتمع ، ولم يفقد الخليفة مركزه السياسي الىٰ الامراء والقادة العسكريين الاجانب بل ان مركزه الديني كرئيس أعلىٰ للاسلام أصبح مهدداً خاصة وان الكثير من الناس نقلت ولاءها الىٰ فرق دينية سياسية معادية للعباسيين .

لقد شهد هذا القرن سلسلة من التهديدات الخطيرة من اعداء الدولة العباسية في الداخل والخارج . فقد استطاع مسيحيو اوربا السيطرة علىٰ اجزاء كبيرة من الاندلس وصقلية . واستطاع برابرة شمال أفريقيا ان يكوّنوا دويلات

مستقلة لهم فكانت هناك دولة المرابطين (٤٤٨/١٠٥٦ ـ ٥٤١/١١٤٧) ثم دولة الموحدين (٥٢٤/١١٣٠ ـ ٦٦٧/١٢٦٩).

على أن أهم مظاهر المنعطف الجديد هو ظهور الترك على مسرح السياسية العباسية. ولسنا هنا بصدد تتبع الجذور التاريخية لوجود الترك في الدولة الاسلامية الا اننا نقول بأن الاتراك الهياطلة في بلاد ما وراء النهر وتركستان كانوا على اتصال حربي وسلمي بالعرب الفاتحين في بلاد ايران وانهم دخلوا الدولة الاسلامية واستخدموا كمماليك فيها. ولكن في سنة ٩٦٠م دخل الاتراك القرخندية مع خانهم الى الاسلام ففتحوا عهداً جديداً لعلاقتهم بالدولة الاسلامية.

وفي بداية القرن الحادي عشر كانت الدولة الفاطمية لاتزال تسيطر من مصر على بلاد الشام وغربي الجزيرة العربية ولكن سلطتها على الجزيرة الفراتية تزعزعت وحل محلها دويلات بدوية بديلة. اما البويهيون فكانوا لايزالون يسيطرون على العراق وغربي ايران. وقد تقاسم نفوذ السامانيين في الشرق دويلتان تركيتان هما الغزنوية والقرخندية. وكانت الاولى دويلة اسلامية يرأسها امير عسكري تركي معتمداً على جنده من المماليك الاتراك. أما الثانية فكانت دويلة تركية يرأسها خان معتمداً على قبيلته.

لقد استطاعت قبيلة القبجاق ان تزيح الغُز التركية من مواطنها ودخل الغُز بلاد الاسلام. وكان هناك عدد من الهجرات على ان أهمها السلاجقة الذي استطاعوا ان يقضوا على الغزنويين في خراسان ويتقاسموا مناطقهم. وفي سنة ١٠٣٧م أصبح اسم السلاجقة يذكر في مسجد مرو ونيسابور. ولم تمض فترة طويلة حتى سيطروا على فارس ثم أحتل طغرلبك بغداد ١٠٥٥م وانتزعها من البويهيين. وفي حوالي سنة ١٠٧٩م كان السلاجقة قد سيطروا على سوريا وفلسطين وانتزعوهما من الفاطميين الذين كانوا يمرون بدور الانحطاط. كما وان السلاجقة نجحوا حيث فشل العرب والفرس فقد احتلوا بلاد الاناضول من البيزنطيين وكنّوا فيها إمارات مستقلة. وقد حكم السلاجقة امبراطورية كبيرة

متحدة فأعادوا الوحدة الى أقاليم الخلافة العباسية المفككة وبقي الحال كذلك حتى سنة ١٠٩٢ م حين نشبت الحرب الأهلية بعد وفاة ملكشاه وعاد التفكك السياسي سيرته الاولى وتأسست إمارات ترأسها امراء او اتابكة من السلاجقة في العراق وكرمان والشام والاناضول .

لقد كان السلاجقة الاتراك من المسلمين السنة ولذلك فقد قرروا من مركز الخليفة العباسي ووسعوا سلطته السياسية الاقليمية . ولكن مع ذلك فقد كانوا هم السادة الحقيقيين . ولكن هؤلاء الاتراك السلاجقة كان عليهم الاعتماد في الادارة على الموظفين الفرس . ولعل من أبرز مظاهر هذه الفترة حركة الاحياء السنية التي اتخذت اشكالاً مختلفة منها العسكرية وقامت حركات الحشاشين وهم الفرقة الاسماعيلية المتطرفة التي انشقت عن الاسماعيلية الفاطمية ولم تعترف بخلافة المستعلي بل ظلت على ولائها لنزار الابن الاكبر للمستنصر وقد برز من بين الحشاشين اسم الحسن الصباح زعيم حشاشي ايران . والقضاء على الدويلات المنتشرة هنا وهناك واعادة الاقاليم التي تحت نفوذها الى سلطة الخليفة العباسي وبالتالي سلطة السلاجقة . وأما الفكرية حيث أسست المدارس المختلفة لتدريس مذاهب السنة والرد على معارضيهم الفكريين وخاصة المتطرفين منهم .

ومن مظاهر هذا المنعطف الرئيسية التحدي الذي جابهه المسلمون من مسيحيي اوربا والذي نطلق عليه اسم (الحروب الصليبية في فترة الضعف والانقسام الاسلامية استطاع الصليبيون التغلغل الى بلاد الشام وفلسطين منذ سنة ١٠٩٦ وقد تمكن زنكي من إقامة دولة قوية في سوريا وشمالي الجزيرة بعد ان سيطر على الموصل سنة ١٢٧ . وقد أكمل ابنه نورالدين عمله حيث أحتل دمشق سنة ١١٥٤ وبذلك توحدت بلاد الشام تحت قيادة واحدة ، ثم ضم اليها مصر ، وقد استطاع صلاح الدين الايوبي ان يقضي على الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١ م وان يعيد سيطرة العباسيين على مصر . ثم تمكن من توحيد سوريا ومصر في دولة واحدة وبعد ذلك استطاع ان يعيد القدس الى المسلمين سنة ١١٨٧ م ويحرر بقية

الأراضي التي احتلها الصليبيون. وحين وفاته سنة ١٠٩٣م لم يبق للصليبيين الدخلاء الا خيط ساحلي ضيق على البحر المتوسط. على ان هذا النفوذ الاجنبي الغازي لم ينته الا حين عادت دولة الوحدة بين مصر وسوريا والجزيرة على يد المماليك البحرية (٦٤٨/١٢٥٠ ـ ٧٩٢/١٣٩٠) والمماليك البرجية (٧٨٤/١٣٨٢ ـ ٩٢٢/ ١٥١٧) فقد استطاع الظاهر بيبرس من دحر القديس لويس والصليبيين الذين هاجموا مصر في (موقعة المنصورة) سنة ١٢٤٩م. واستطاع بيبرس كذلك سنة ١٢٦٠م ان يهزم التحالف الصليبي ـ المغولي في (موقعة عين جالوت) التي كان من نتائجها سحق الصليبيين في الشام والقضاء على الحشاشين في جبل لبنان وانسحاب المغول من الشام وبات من الواضح في مصر سوف لن تقع في قبضة المغول. وقد وصف بيبرس من قبل أعدائه بأنه «لم يكن وهو جندي ليقل عن يوليوس قيصر ولا عن نيرون شراً وأذىً».

(٦) المنعطف الاخير الذي مرت به الخلافة العباسية فهو المنعطف الذي يعتبر بداية لنهايتها. ففي اواخر النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي وفي سنة ١١٤١م اندحر السلطان سنجار السلجوقي في معركته ضد الاتراك من القرهخطاي والمغول في (سهل قيوان) وبات خطر هذه الموجة التركية الجديدة يهدد الخلافة العباسية على ان تأسيس دولة خوارزم التي بدت وكأنها قادرة على صد الترك واعادة مجد السلاجقة العظام وكانت الدولة الخوارزمية كذلك بمثابة حاجز يحمي الخلافة العباسية من الخطر المغولي الجديد. وقد ابتدأت تحرشات المغول بالدولة الخوارزمية منذ اوائل سنة ٦٠٠هـ حيث انتصروا على الجيش الخوارزمي في (موقعة اترار) سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٨م ثم سرت روح التخاذل والاستسلام بسرعة وأخذت المدن تخضع للمغول وتفدي نفسها بالمال. وقد كان جنكيز خان سريعاً وعنيفاً بين ١٢١٨ ـ ١٢٢٧م وهي سنة وفاته. ولكن سرعان ما عاد المغول الى توسعهم نحو الغرب وقد أنيط الى هولاكو حفيد جنكيز خان امر الفتوحات في ايران وآسيا الغربية حتى مصر. وقد دمر المغول قلاع الحشاشين في ايران.

وأخيراً في كانون الثاني سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م حاصـرت قوات المغـول بغداد وحاول الخليفة المستعصم ردهم دون جدوىٰ فـطلب الصلح واستسلمت المدينة فنهبت وأحـرقت وفي العشرين من شبـاط من نفس السنة قتـل الخليفة العباسي مه أهل بيته وصحابته وهكذا انتهىٰ حكم العباسيـين الذي دام حوالي الخمسة قرون .

ولم يكن سقوط الخلافة العباسية مفاجئاً . فرغم محاولات بعض الخلفاء المتأخرين من أمثال المسترشد والناصر اعادة قوة الدولة وتجديدها فإن الازمـة كانت مستعصية وكان الانحطاط قد أخذ شوطاً بعيدا . وقد اختلف المؤرخون في تفسيرهم لسقوط بغداد فمنهم من يتهم الخليفة المستعصم ومنهم من يتهم رجال دولته الكبار أمثال الوزير ابن العلقمي ومجاهد الدين ايبك علىٰ ان النكبة التي حلت ببغداد لاتزال يحوطها الغموض وليس من السهل القـاء المسؤوليـة علىٰ عـاتق شخص واحد بعينه .

خصائص حكم الخليفة المنصور

كما تعكسه وصيته السياسية

لولي عهده

محمد المهدي

قال المنصور للمهدي «يا أبا عبدالله ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ولكنه الذي يحتال للأمر الذي خشيه حتى لا يقع فيه»*

● «الطبري ـ تاريخ الرسل ..... ٤٠٤»



المقدمـــة :

لم يعر الباحثون من مستشرقين او عرب للوصية السياسية أهمية تـذكر أثناء بحثهم لتاريخ الاسلام السياسي او الحضاري . والواقع ان الوصية على أنواع منها تلك التي ذكرها القرآن في سورة النساء «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثين فإن كن نساء فوق أثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحـدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك .....»[1] ، ومنها الوصية الاخيرة للشخص المتوفى وكانت معروفة في الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده ، ولها حرمة كبيرة حيث ان افراد العائلة مسؤولون بالتضامن عن تنفيذها[2] . وهناك نوع آخر من الوصايا تحفل بها كتب الأدب ويمكن أن نسميها بالوصية الأدبية حيث أن أسلوبها سواء كان شعراً أم نثراً أسلوب بليغ كما وان غرضها العبرة والاتعاظ ورغبة الرئيس او شيخ القبيلة او أحد أفرادها البارزين أن يجنب جماعته أو أهل بيته المزالق . وهذا النوع من الوصايا الأدبية كانت أيضاً معروفة في الجزيـرة العربية منذ العهد الجاهلي ومن هذا النمط قول الشاعر[3] :

اوصـيكـم بـتـقـى الاله فـإنـه	يعطي الرئب من يشاء ويمنـع
وبـر ولدكـم وطاعـة أمـره	إن الأبـرَّ مـن البـنـين الأطوع
ان الكـبـير اذا عـصـاه أهـلـه	ضـاقت يـداه بـامـره مـا يصنـع
ودعوا الضغينة لا تكن من شانكم	ان الضغـائن للقرابـة تـوضـع
واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم	متنصحـاً ، ذاك السمـام المنقـع
يـزجي عقـاربـه ليبعث بينكـم	حرباً كما تبعث العروق الأجذع

الى أن يـقـول :

ان الذين تـرونهـم اخـوانكـم	يشفي غليل صدورهم ان تصرعوا

ان الأنواع الآنفة الذكر من الوصايا كانت عبارة عن مجموعة من نصائح مستندة على تجارب عاناها الشخص الموصي وهي واقعية عملية بطبيعتها ، وتتعلق

بمسائل خاصة أكثر من مسائل عامة .

أما الوصية السياسية ـ اذا صح استعمال هذا التعبير ـ فقد ظهرت اول ما ظهرت في العصر الاسلامي وقد أشار المؤرخون المسلمون الى عدد من الوصايا السياسية من العهدين الراشدي والاموي[4] . ولكننا نلاحظ الاختلاف في نص الوصية الواحدة بين رواية وأخرى ، ويرجع السبب في ذلك الى ان هذه الوصايا كانت قد تنوقلت شفوياً قبل ان يقدر لها ان تكتب في بداية العصر العباسي حين دوّن الاخباريون التاريخ ، كما لا ينكر ان قسماً من هذه الوصايا قد تعرض الى عملية تحريف مقصودة لأسباب سياسية او دينية او غيرها .

ولقد تميزت الوصية السياسية في فترة صدر الاسلام بنفس الخصائص الرئيسية للوصية في الفترة الجاهلية من حيث الطبيعة الواقعية والاهتمام بالقضايا الخاصة والشخصية ، كما وانها شابهتها في الأفكار التي تطرقت اليها وفي الاسلوب الأدبي الذي اتبعته . إلا ان الحالة تغيرت في العصر العباسي .

خصائص الوصية السياسية في العصر العباسي :

ما ان تقلد العباسيون زمام الأمر ١٣٢هـ/ ٧٥٠م حتى حدث تغير كبير في طبيعة الوصية السياسية عما كانت عليه في العصر الراشدي والأموي ، ذلك لأنها بدأت تكتسب خصائص كتب النصائح والارشادات والعبر الخاصة بالأمراء والملوك وخاصة الفرس منهم.

كما وان الصبغة الدينية بدأت واضحة عليها تماماً . وربما يعود السبب في ذلك الى :

(١) ان العباسيين ادّعوا لأنفسهم منزلة دينية خاصة على أساس قرابتهم القريبة من الرسول (ص) وهذا أدّى بدوره الى اعادة ظهور الطابع الاسلامي على الوصية وعلى الكثير من مظاهر الحياة الخاصة بالخليفة .

(٢) لا ينكر أن العصر العباسي شهد تياراً يدعو الى إشاعة الثقافة الفارسية في

الدولة الاسلامية ذلك التيار الذي تبناه أدباء كبار من أمثـال عبدالله بن المقفع وحلقته ممن كانوا يسمون «بالمجان» و «الزنادقة» الذين امتدحـوا سياسة الملوك الساسانيين وآدابهم، ودعوا الى اتخاذها شعاراً للخلافـة والمجتمع الاسلامي.

ان هاتين الظاهرتين كان لهما الأثـر الفعال عـلى صياغـة الوصية السياسية بإدخال بعض المثل الدينية من جهة والفارسية من جهة أخرى في إطاره.

وصايا المنصور السياسية في المصادر التاريخية:

لا تختلف آراء المؤرخين حول وصية المنصور للمهدي فحسب بـل انهم يختلفون ايضاً فيما اذا كانت الوصية مكتوبة أم شفوية فالوصية تذكر في عدد من المصادر التاريخية حيث يجمعها الطبري تحت عنوان «ذكر الخبر عن وصاياه» ويروي خمس روايات، متنوعة بأسانيدها[٥].

أ ـ أما الرواية الأولى[٦] فيسندها الطبري الى الهيثم بن عدي دون ذكر سلسة الرواة كاملة، ويظهر ان رواتها كانوا ذوي ميـول عباسيـة. ويدعي فيها المنصور العلم السري الذي ورثه عن آبائه. وكان هذا الادعاء من جملة الأسس التي استند عليها العباسيون في إثبات حقهم في الخلافة باعتبارهم الورثة الروحيين للرسول (ص)، ونذكر ـ عرضاً ـ ان أبا زكريا الازدي يسند حديثاً الى المنصور عن أبيه عن جده قال «قال رسـول الله (ص): العباس وصيي ووارثي»[٧]. يقول المنصور للمهدي في الرواية الاولى من الوصية «انظر هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة....

وأنظر هذه المدينة فإياك أن تستبدل بها فإنها بيتك وعزك قد جمعت لك فيها من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية

لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها فإنك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً . وأوصيك بـأهل بيتـك : ان تظهـر كرامتهم، وتقدمهم .. وانظر مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة ان نزلت بك . وأوصيك بأهل خراسـان خيراً، فـإنهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك . وإياك أن تدخل النساء في مشورتك، وأظنك ستفعل» .

ب ـ اما الرواية الثانية[٨] فيذكرها الطبري بدون سند وليس لها في الواقع أهمية سياسية حيث انها تتعلق بصورة تقسيم تركة المنصور من الضياع والمال والرقيق وإيفـاء ديونـه . وأهم خصائص الوصيـة في هذه الرواية انها شفوية تتضمن سؤالاً من الخليفة يقابله جواب من ابنه وولي عهده يتعهد فيه بتنفيذ الوصية .

ج ـ ويسند الطبري الرواية الثالثة[٩] الى ابي يعقوب بن سليمان عن جمرة عطارة الخلافة المنصور (اي من حاشية البلاط العباسي) ويغلب علىٰ الظن بأن هذه الرواية موضوعة الا ان واضعيها حاولوا التمويه علىٰ القارئين فنسبوها الىٰ شخص يشتغل في البلاط ظناً منهم ان هذا الاسناد سيزيد من توثيقها . الا ان الوضع ظاهر فيها ويعتقد أن النص وضع من قبل رواة ذوي ميول علوية . وتقول الوصية بأن المنصور عهد للمهدي بمفاتيح الخزائن وأوصاه بألّا يفتحها حتىٰ يصح عنده موت الخليفة . فلما كان ذلك فتحها «فاذا أزج كبير فيـه جماعـة من قتلاء الطالبيـين وفي آذانهم رقاع فيهـا أنسابهم، واذا فيهم أطفال ورجال شباب، ومشايخ عدة كثيرة» .

د ـ وسند الرواية الرابعة[١٠] يرجع الىٰ اسحق بن عيسىٰ بن علي عم أبيه، وكان عيسىٰ بن علي شاهد عيان حيث سمع الوصية عن المنصور نفسه هـذا من جهة النقـد الخارجي للروايـة . أما النقـد الداخلي فـالواقع أن الخصائص الرئيسية للوصية السياسية التي عرفت في التاريخ الاسلامي

قبل عهد المنصور تتمثل فيها.[١١]. كما وان فيها ارشادات تعبر تعبيراً صادقاً عن الخبرة السياسية والادارية التي اكتسبها المنصور خلال حكمه الذي دام ٢٢ سنة وعما كان يخالج نفسه من حلول للمشاكل التي لاتزال تبحث عن حل. ولذلك فإن هذه الرواية باعتقادي تمثل النص الصحيح لوصية المنصور لابنه المهدي تذهب الوصية في الرواية الرابعة الى القول:

«يا أبا عبدالله... فاتق الله فيما عهد اليك من أمور المسلمين بعدي يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً.. احفظ يا بني محمداً (ص) في أمته يحفظ الله عليك أمورك. وإياك والدم الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم. والزم الحلال، فإنه ثوابك في الآجل وصلاحك في العاجل، واقم الحدود ولا تعتد فيها فتبور... واعلم ان من شدة غضب الله لسلطان امر في كتابه بتصفيف العذاب والعقاب على من سعى في الارض فساداً، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم، فقال (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً) الآية. فالسلطان يا بني حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم، فاحفظه وحطه وحصّنه وذب عنه، واوقع بالملحدين فيه، اقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم، ولا تجاوز ما أمر الله في محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط، فان ذلك أقطع للشغب واحسم للعدو وأنجع في الدواء وعف عن الفيء، فليس بك اليه حاجة مع ما أخلفه لك، وافتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة. وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية. واشحن الثغور واضبط الاطراف وأمّن السبل وخص الواسطة ووسع المعاش، وسكّن العامة، وأدخل المرافق عليهم واصرف المكاره عنهم، وأعد الأموال واخفها. وإياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة والحوادث غير مضمونة وهي من شيم الزمان. واعد الرجال والكراع

والجند ما استطعت . وإياك وتأخير عمل اليوم الىٰ غد فتتدارك عليك الامور وتضيع . جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً .

هـ ـ ويتأسف الجاحظ علىٰ ضياع الكثير من أخبار بني العباس وأقوالهم فيقول ممتدحاً العباسيين : «ولو أن أهل خراسان حفظوا علىٰ أنفسهم وقائعهم في أهل الشام وتدبير ملوكهم وسياسة كبرائهم وما جرىٰ في ذلك من فرائد الكلام وشريف المعاني كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه وأسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان . ولقد تتبع ابو عبيدة النحوي ، وأبو الحسن المدائني ، وهشام الكلبي ، والهيثم بن عدي أخباراً وأحاديث تقطعت فلم يدركوا الا قليلاً من كثير وممزوجاً من خالص . وعلىٰ كل حال فانا اذا صرنا الىٰ بقية مارواه العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح والعباس بن موسىٰ واسحق بن عيسىٰ ... عن مشيخة بن هاشم ومواليهم عرفت بتلك البقية كثرة ما فات وبذلك الصحيح أين موضع الفساد مما صنعه الهيثم بن عدي وتكلفه هشام الكلبي[11] . ولعل القارىء يدرك بوضوح أن الجاحظ في مقارنة بين الروايات المختلفة يفضل تلك التي رواها اخباريون ذوو ميول عباسية صريحة .

و ـ أما اليعقوبي فلا يذكر اسناداً للروايات المتعلقة بالوصية بل انه يظهر الروايات المتعلقة بالوصية وكأنها واحدة . وقد جاء في الوصية «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد عبدالله أمير المؤمنين الىٰ المهدي محمد بن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين حين أسند وصيته اليه بعده ، واستخلفه علىٰ الرعية من المسلمين وأهل الذمة وحرم الله وخزائنه وأرضه التي يورثها من يشاء من عباده والعافية للمتقين .. وبادر يومك واحذر غدك ، واتق دنياك فإنها دنيا غدارة موبقة . ولتصدق الله نيتك وتعظم اليه فاقتك ، وليتسع انصافك وينبسط عدلك ويؤمن ظلمك . وواس بين الرعية في الأحكام واطلب بجهدك رضا الرحمن وأهل الدين فليكونوا أعضادك ، وأعط حظ المسلمين من أموالهم . ووفر لهم فيئهم وتابع أعطياتهم وعجل بنفقاتهم اليهم سنة وشهراً فشهراً . وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخراج[12] .

ويضيف اليعقوبي قائلا[14] : «وأمره بعد ذلك بأمور يطيل الكتاب بها فاقتصرنا علىٰ صدر الوصية» . والملاحظ في رواية اليعقوبي انه يصعب علىٰ الباحث التمييز بين نصوص الوصية المختلفة لأنه دمج الروايات بعضها ببعض وذلك كعادته بالاختصار ومحاولة المزج بين الروايات اذا تشابهت او كانت تتعلق بموضوع معين واحد . إلا أن مقارنة نص اليعقوبي بغيره من المصادر ضروري من الناحية التاريخية للوصول الىٰ النص الاصلي للوصية .

ز ـ ويقول المسعودي[15] «وللمنصور أخبار حسان .. وله خطب ومواعظ وسير وسياسات للملك قد اتينا علىٰ اكثرها في كتابنا أخبار الزمان والأوسط ، وانما نذكر في هذا الكتاب لمعاً تدلك علىٰ ما سبق في كتبنا» إلا أن الذي يؤسف له أن الكتابين آنفي الذكر لم يصلا كاملين الينا وبهذا خسرنا ما أورده المسعودي في هذا الباب .

هل كانت الوصية مكتوبة :

ويختلف المؤرخون فيما يخص كون الوصية مكتوبة أم شفوية . فيقول الطبري[16] إن المنصور قال للمهدي «هذا كتاب وصيتي مختوماً» إلا أن هذه الرواية بدون سند . وفي رواية أخرىٰ عن عيسىٰ بن علي قال «سمعت المنصور . وهو يقول للمهدي عند وداعه اياه»[17] . وتؤكد رواية عمرو بن شبه : أن الوصية كانت شفوية . أما البلاذري فيذكر في روايته الوحيدة ان الوصية كانت مكتوبة فيقول بأن المنصور «دعى بالمهدي فقال له يا أبا عبدالله اقرأ هذا الكتاب واعمل بما فيه» ، إلا أن البلاذري لا ينكر وجود روايات أخرىٰ للوصية وانها قد أضيف اليها . ويقول اليعقوبي بأن الوصية أرسلت الىٰ المهدي بواسطة الربيع بن يونس بعد وفاة المنصور . اما مؤلف كتاب العيون والحدائق[18] فيقول : إن المنصور سلم المهدي وصية مختومة قبل مغادرته بغداد الىٰ مكة .

ومهما يكن من أمر فالمرجح ان الوصية التي نحن بصددها ـ الوصية

السياسية ـ كانت شفوية كما تؤكد ذلك رواية الطبري عن عيسىٰ بن علي . وقد اختلق ادعاء كون الوصية مكتوبة ومختومة في فترة متأخرة من قبل الرواة المسلمين المتأثرين بالشريعة الاسلامية التي تؤكد بأن علىٰ كل مسلم أن يحمل رقعة مكتوبة معه حينما يترك مدينته في سفرة وخاصة اذا كانت السفرة طويلة[١٩] .

الأهمية التاريخية لوصية المنصور :

تعتبر وصية المنصور السياسية لابنه المهدي مرآة لعصر المنصور نفسه وهي في حقيقتها تعكس الحوادث السياسية المهمة التي وقعت في عهده وموقف الخليفة من هذه الحوادث فالنصائح التي أوردها المنصور في وصيته في عهده تعتبر من هذه الناحية خلاصة تجارب ٢٢ سنة حكم فيها المنصور الدولة الاسلامية . وهي تشير الىٰ المشاكل التي لازالت تعاني منها السلطة العباسية والتي سوف يواجهها المهدي دون شك . ونظن من ناحية اخرىٰ مدىٰ تحسس المنصور بالمسؤولية التي سيتحملها ابنه كخليفة للمسلمين .

والواقع ان المؤرخ لا يمكن ان يقبل الا رواية الطبري الرابعة كرواية موثوق في صحتها كما أشرنا الىٰ ذلك آنفاً . الا ان الوصايا المزعومة الأخرىٰ في أهميتها التاريخية ، بالرغم من كونها موضوعة ، كما سنرىٰ بعد صفحات قليلة .

أما الرواية الرابعة في الطبري وهي الرواية الثقة فتظهر خصائص المنصور ومميزات حكمه التالية :

اولاً : تظهر الوصية اهتمام المنصور بسلامة السلطان العباسي وبقاء الدولة العباسية . فبعد أن يقتبس الخليفة آية من القرآن ، وهي نفس الآية التي اقتبسها في رسالته الىٰ الثائر العلوي محمد (ذو النفس الزكية) وهذه نقطة مهمة ، يذكر ابنه المهدي بأن من اولىٰ واجباته ان يحافظ علىٰ كيان الدولة بالقضاء علىٰ الخارجين عليها ولو أدىٰ به الأمر الىٰ استعمال أقسىٰ الاساليب .

ثانياً : يبر المنصور رأيه الأول وهو ضرورة المحافظة على السلطان العباسي وذلك بادعائه بأنه يمثل الله وينوب عنه في الأرض فيقول (فالسلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى) وهكذا فقد عرف المنصور سلطة الخليفة بأن مثلها بسلطة الله . ولاغرو فالمنصور هو القائل في مناسبة أخرى بأن (الخليفة ظل الله في أرضه يسوسهم بتوفيقه) ....[٢٠] وهذه نظرة جديدة الى سلطة الخليفة ذلك لأن الخليفة لم يكن في العهد الاموي في أغلب الحالات إلا زعيم قبيلة والأول بين أقرانه . فلم يكن باستطاعة الامويين أن يسندوا دعواهم بالخلافة على أسس دينية قوية كالقربى القريبة من الرسول (ص) وهذا ربما منع انتشار مثل هذه الآراء حول سلطة الخليفة على عكس العباسيين .

ثالثاً : يوصي المنصور ابنه ليحكم بالعدل . والذي يلاحظ في سياسة المنصور خلال فترة حكمه انه ربما تجنب العدل لضرورات سياسية ملحة ، وشدّد في العقاب أكثر من الاستحقاق وخاصة في معاملته للعلويين أو للثوار الحجازيين أو البصريين الذين ساعدوا العلوين . فقد ضرب الحصار الاقتصادي على الحجاز خلال ثورة محمد «ذو النفس الزكية» ومنع وصول الحبوب اليه ، كما هدم بيوتاً وأتلف نخيل الكثير ممن ناصروا ثورة ابراهيم في البصرة . ولم يغفر المنصور زلة عبدالله بن علي العباسي الذي ثار عليه في الشام بالرغم من سجله الحافل أثناء الدعوة والثورة العباسية ودبر أمر اغتياله . وقتل كثيرين من نقباء الدعوة العباسية لاشتداد سطوتهم وقوة نفوذهم . وقتل أبا مسلم الخراساني لازدياد شهرته وسلطته .

إلا أن المنصور أدرك ـ بعد أن استقرت الأمور وزالت الأخطار الكبيرة ـ أن الظروف تقتضي نوعاً من المرونة السياسية واللين والتسامح وهذا ما أوصى به ولي عهده .

رابعاً : ينصح الخليفة ابنه بألّا يطلب أكثر من نصيبه من الفيء واذا لزم الأمر أن يتغاضى حتى عن نصيبه لكي يوزع على الجند . وهذه نقطة مهمة ذلك لأن

مسألة الفيء وتوزيعه على المقاتلة كان أحد أسباب تذمر المقاتلة العرب في خراسان في أواخر عهد الدولة الأموية حيث كان الوالي يحاول حرمانهم منه أو يأخذ أكثر من نصيبه ويرسله الى دمشق. وهذا دعاهم الى الاستياء وبالتالي الانضمام الى الدعوة العباسية في خراسان ثم الثورة.

لقد واجهت المنصور نفس المسألة حيث تذمر المقاتلة عدة مرات من طلبات المنصور مطالبين بحقهم من الفيء والغنائم معلنين بأن حق الخليفة هو الخمس فقط.

خامساً: يذكّر المنصور ابنه بأن أهم واجبات الخليفة أن يستعد لمواجهة الأعداء في (دار الحرب) من بيزنطيين وخزر وترك. وكان هذا واجباً تقليدياً للخليفة حيث يجهز الصوافي والشواتي، وقد اثبت المهدي كفاءته في ذلك وخاصة على الحدود الرومية في حملتين رئيستين سنة ١٦٣ ـ ٧٧٩ وسنة ١٦٥هـ ـ ٧٨١. كما انه ارسل حملة بحرية أشرف عليها بنفسه وأرسلها الى الهند لتوسيع رقعة الاسلام.

سادساً: يورد المنصور في ختام وصيته نصائح عديدة لابنه المهدي حول الرفق بالعامة والاقتصاد بالمصروفات وعدم التبذير. والمنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية أعرف من غيره بأهمية المال وهو القائل «لا سلطان بدون رجال ولا رجال بدون مال» وقال في مناسبة أخرى «أجع كلبك يتبع».

وأكد الخليفة على ضرورة اعداد الرجال وتجهيزهم وبث العيون والجواسيس بين الناس لمعرفة الأخبار والاشاعات ونصح ابنه بأن يسيء الظن بالعمال والكتّاب ولا يثق بأحد منهم، ويراقبهم. إن هذه الوصية تعطي صورة حقيقية لشخصية المنصور الخليفة، وتعبر بصدق عن رأي الخليفة في الطريقة التي يجب أن تساس الدولة بها.

وسأحاول الآن أن أستعرض روايات الوصية الأخرى الموضوعة والمنسوبة

الى المنصور . فهي رغم قلة الثقة بها كوصايا تفوه بها المنصور إلا انها من ناحية اخرى تعتبر انعكاساً لحوادث وقعت فعلاً في عهد المنصور أو انها تعبر عن وجهة نظر العناصر المعارضة او الموالية للعباسيين في حكم المنصور واجراءاته السياسية .

(١) فالميول العباسية واضحة في الرواية الأولى للطبري حيث يدعي المنصور بأن لديه دفتراً يضم العلم السري الذي كان عند أجداده والذي يحتوي على ما كان وما سيكون في هذا العالم . والواضح بأن واصفي الرواية كان غرضهم من ذلك أن يسندوا ادعاء العباسيين بالخلافة على العلم والحكمة الموروثة عن العباس عم الرسول (ص) ووريثه على حد قولهم .

والمعروف تاريخياً أن إدعاء العباسيين بالخلافة مر بمرحلتين رئيستين[٢١] الأولى : أثناء فترة الدعوة حيث أعلنوا بأن حقهم في الخلافة انتقل اليهم من أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية العلوي . أما الثانية فبعد تأسيسهم الدولة ضربوا الدعوى الأولى عرض الحائط ونسوها أو تناسوها وأسندوا حقهم بالخلافة الى جدهم العباس الذي تمتع بحقين رئيسين هما حق القربى من الرسول وحق حرمة البيت الحرام . وواضح ان هذه الرواية العباسية كانت رداً على الدعوى العلوية التي تقول بأن العلويين هم الورثة الشرعيون للرسول (ص) باعتبار قرابتهم من جهة الأم والأب ، وان فيهم العصمة والعلم السري وأن الرسول أوصى اليهم .

ويبدو المنصور في هذه الرواية حريصاً على تأمين سلامة الدولة التي أسسها حيث بنى بغداد قلعة لجنده ولدواوينه .

وتشير الرواية الى الكتل السياسية الموجودة في البلاط العباسي في تلك الفترة . فهناك «أهل البيت» والمقصود بهم هنا العباسيون فقط «والموالي» وهؤلاء لا يقصد بهم المسلمون من غير العرب ، وانما تلك الكتلة التي تتكون من أجناس مختلفة عربية وأعجمية مرتبطة بالخليفة بولاء يفوق في شدته أية

اعتبرات عنصرية أو اقليمية أو قبلية «وأهل خـراسان» وهم في غـالبيتهم العرب المقاتلة والمستقرون من سكان خراسان الذين كانوا الدعامة الرئيسة في الثورة العباسية[٢٢].

ولعل مما يؤكد أثر الوضع هو تنبؤ المنصور في هذه الرواية بتأثـير النساء على المهدي فهو يحذره من ادخال النساء في مشورته، والمعروف أن الخيزران زوجة المهدي كان لها نفوذ سياسي كبير في تلك الفترة[٢٣].

(٢) وتظهر الميول العلوية واضحة في رواية الطبري الثالثة كما أشرنا الى ذلك سابقاً. فبالرغم من أن المنصور شدد في سياسته تجاه العلويين الا انه لم يكن مضطراً الى القتل الجماعي لهم شاملاً في ذلك الاطفال والشيوخ منهم. فقد قتل المنصور عدداً من زعماء الفرع الحسني الفعالين سياسياً الا أن علاقته مع أئمة الفرع الحسيني كانت طيبة نوعاً ما رغم مراقبته لهم وتشديده عليهم من حين لآخر.

(٣) ورواية الطبري الخامسة تشير الى الاجراءات التي اتخذها المنصور لتوطيد الحكم لابنه، وهي جمع المال وحشد الانصار وبناء بغداد. والأهم من ذلك انها تظهر مخاوف المنصور من عيسى بن موسى ولي العهد السابق ولا غرو فقد كان عيسى بن موسى رجلاً سياسياً وعسكرياً كفوءاً وكان له من الاتباع من يعتقد بخلافته بعد المنصور. وكان المنصور يخشى شخصية أخرى هي عيسى بن زيد العلوي فقد أشتـرك هذا في ثـورات محمد ـ ذو النفس الزكيـة ـ وابراهيم ثم اختفى بعد فشل الثورة. ةالرأي الشائع انه خلف ابراهيم في زعامة حركة المعارضة العلوية المسلحة ضد العباسيين. وقد جد المنصور في طلبه دون جدوى ولذلك أوصى ابنه بضروة الظفر به.

(٤) ولا تختلف النقـاط التي وردت في رواية البـلاذري واليعقـوبي والطبـري «باسناد عيسى بن محمد بن موسى بن هارون» عما ذكرناه سابقاً وان اختلف الاسلوب والكلمات. وفيها يوضح المنصور للمهدي الاجراءات التي يجب ان

يستمر عليها وتلك التي يجب أن يبدلها ويغيرها[٣٤].

(٥) ولابد لي أن أقول: إن ابن المقفع والجاحظ وهما من أعمدة الفكر في العصر العباسي الأول قد أظهرا بوضوح في مقالاتهما وكتبهما خصائص العصر العباسي الاول. فيؤكد الجاحظ في أكثر من مناسبة بأن للمنصور حكماً ووصايا وأقوالاً لا يعادلها كل ما خلفه ملوك بني مروان. أما ابن المقفع فهو يبني منهاجاً للاصلاح في رسالته التي وجهها الى الخليفة المنصور التي تعتبر صورة معبرة عن خصائص حكم المنصور وقد ذكر فيها ابن المقفع آراءه في الحكومة والدولة والدين والكتل السياسية.

يعتبر ابن المقفع الحكم مسؤولية جسيمة وينصح الحاكم بأن يستعين «بالعلماء»[٣٥]. ويرى كذلك أن للدين أثراً كبيراً كعامل استقرار للاوضاع السياسية. فهو يقسم الحكومات الى ثلاثة انواع:

أ ـ الحكومة المستندة على القوة.

ب ـ الحكومة المستندة على الرغبة.

ج ـ الحكومة المستندة على الدين.

ويقارن بين الاولى والثالثة فيقول: انه بالرغم من قدرة الاولى على ادارة سياسة الدولة وتسيير الامور فإنها لابد وأن تثير المعارضة ضدها وهذا يؤدي الى عدم الاستقرار. أما الثالثة فإن الناس يشعرون بأن دينهم هو الذي يقرر حقوقهم وواجباتهم، ما لهم وما عليهم، ولذلك فهم يخضعون للحكومة الدينية سواءاً أيدوا قراراتها أم عارضوها[٣٦] ولقد كانت حكومة العباسيين في فترته حكومة مستندة على الدين فقد أضفى الخليفة على نفسه صفة دينية واعتبر نفسه ظل الله في الارض.

ويفضل ان المقفع هذا النوع من الحكومة، وذلك لأنها ربما كانت أدعى للاستقرار، فالدين هو السلطة العليا والحاكم يظهر نفسه وكأنه يعمل على تنفيذ ارادة الله سبحانه وتعالى[٣٧] ويصور ابن المقفع الحاكم على هيئة حاكم مطلق ولكن ليس بطاغية، وانما يخاف الله في احكامه، وذي اخلاق ومكارم وعليه ان يكون

ادارياً حازماً ورقيباً حذراً .

ويهاجم ابن المقفع صحابة الخليفة ويحذره من فسادهم وعدم كفاءتهم ، ولعل السبب في ذلك يعود الى ان غالبية صحابة الخليفة في تلك الفترة كانوا عرباً ، وكان عددهم حوالي ٧٠٠ صحابي . وقد صبغ هؤلاء الصحابة البلاط العباسي بصبغة عربية عن طريق الاشعار والمفاخرات والايام والمجادلات و. الخ . ولم يستطع ابن المقفع . وهو الداعية الأول لادخال تأثيرات ومظاهر حضارية وفارسية الى العربي والبلاط العباسي ، ان يصبر على تأثير هؤلاء الصحابة العرب[٢٨] .

الخاتمـــة :

إن وصية المنصور السياسية تعبر بأمانة ووضوح عن خصائص ذلك الخليفة القدير الذي يعد نتيجة ما قام به من إجراءات سياسية وما واجهه من تحديات مؤسساً للدولة العباسية الفتية . فقد ثبت أركان تلك الدولة ثم ترك وصيته السياسية لابنه نموذجاً يسير عليه في تسيير دفة الأمور .

هذا وقد أصبحت الوصية مثالاً اقتدى به الخلفاء العباسيون في وصاياهم . ولا يتسع المجال للتفصيل في وصايا الخلفاء العباسيين الذين أعقبوا المنصور الا اننا نقول : إن وصية الخليفة المأمون للمعتصم[٢٨] ولي عهده تحمل في طياتها روح وصية المنصور وخصائصها .

هوامش خصائص حكم الخليفة المنصور

(١) القرآن الكريم ـ سورة النساء الآية ١١، ١٢ .

(٢) البيان والتبيين ، ج٢ ص ٣٠٨ ، ٣٦٤ .

(٣) المفضليات .

(٤) الجاحظ : المصدر السابق ، ج٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، الجزء الثامن ، ص ١٠٢ ـ ١٠٧ ص ١١ .

(٦) الطبري ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٧) الأزدي ، تاريخ الموصل ، تحقيق الدكتور علي حبيب ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ،

١٩٦٧ . ص ٢٣٠ .

(٨) الطبري ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١٠٤ .

(٩) الطبري ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(١١) حيث كان الخلفاء يوصون من يعقبهم بامتثال بعض المبادىء الخلقية والدينية والسير على خطة معينة يرسمونها لهم .

(١٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق فوزي عطوي ، بيروت ١٩٦٨ ج٣ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ .

(١٣) اليعقوبي ، التاريخ ، النجف ١٩٧٤ ، ج٣ ص ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(١٤) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(١٥) المسعودي ـ مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٩٦٤ ج٣ ، ص ٣١٨ .

(١٦) الطبري ، المصدر السابق ، ج٢ ص ١٠٤ .

(١٧) الطبري ، المصدر السابق ، ج٨ ص ١٠٥ .

(١٨) كتاب العيون والحدائق ، ليدن ١٨٧١ ص ٢٦٧ .

(١٩) ١٥٩ ، ١٤٧ . المقالة السابقة .

(٢٠) الطبري ، المصدر السابق ، ج٨ . ص ٨٩ .

(٢١) الدكتور فاروق عمر ـ الخلافة العباسية (١٣٢هـ ـ ١٧٠هـ) ، الفصل الثاني ، باللغة الانكليزية . ـ نفس المؤلف الجذور التاريخية لادعاء العباسيين بالخلافة ـ مجلة كلية الدراسات الإسلامية ، العدد الثاني ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٧٧ فما بعد .

(٢٢) انظر الدكتور فاروق عمر . الكتل التي ساعدت العباسيين في العصر العباسي الاول ، مجلة كلية الآداب ١٩٦٨ (باللغة الانكليزية) .

(٢٣) الدكتور عبدالعزيز الدوري ـ العصر العباسي الاول ، بغداد ١٩٤٥ . الدكتور فاروق عمر «هارون الرشيد» في دائرة المعرف الاصلامية ، الطبعة الجديدة ، نبيه عبود ـ ملكتان من بغداد ، نيويورك ، ١٩٤٦ .

(٢٤) بعد وفاة المنصور مباشرة قام الربيع بن يونس بوضع وصية على لسان المنصور الى بني هاشم واهل خراسان يوصيهم بعدم الفرقة ، والالتفاف حول المهدي «انظر الطبري ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٢٥) ابن المقفع ـ الادب الصغير «منسوب اليه» ص ٥٩ ، داود ، المصدر السابق ، ص ٤٩ ـ إن كلمة «عالم» في تلك الفترة كانت تعني اهل العلم والثقافة والفكر . اما رجال الدين فكانت : تستعمل كلمة «فقيه» للدلالة عليهم .

(٢٦) ابن المقفع ، الادب الصغير والادب الكبير ص ٦٣ ـ ٦٤ ، داود ، المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٢٧) ابن المقفع ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٢٨) ابن المقفع ، رسالة في الصحابة . ـ الدكتور فاروق عمر ، الكتل التي ساعدت العباسيين .... مجلة كلية الآداب . ـ والجدير بالذكر ان ابن المقفع يستعمل اصطلاح «والي» حين يتكلم عن شخصية الحاكم

المحبة والمصلحة. بينما يستعمل إصطلاح «ملك» حين يتكلم عن الحكم الفاسد «انظر الادب الصغير والادب الكبير، ص ٨٦».

(٢٩) تقسم وصية المامون الى ثلاثة اقسام رئيسية: القسم السياسي وهو يتعلق بالسلطة الحكومية «الملك» القسم الديني ويتعلق «بالخلافة» التي يعتبرها المامون مسؤولية كبيرة من قبل الله تعالى. اما القسم الثالث فهو يتضمن اموراً خاصة شخصية وليست عامة دينية «انظر الطبري» المصدر السابق، ج٨، ص ٦٤٧ ـ ٦٤٨».



مختارات من المصادر الاصيلة

المؤلف	الكتاب	النشر
الاقليدي	اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس القاهرة ١٩٥٥	
ابن الاثير	الكامل	القاهرة ١٣٤٨هـ، طبعة ليدن ١٨٥١ ـ ٩١٧
الازدي	تاريخ الموصل	القاهرة ١٩٦٧
الاصفهاني	الاغاني	٢١ جزء بولاق ١٢٨٥هـ
	مقاتل الطالبيين	النجف ١٣٥٣هـ
البغدادي	الفرق بين الفرق	القاهرة ١٩١٠
البلاذري	فتوح البلدان	ليدن ١٨٦٦
	انساب الاشراف	الاجزاء المحققة ومخطوطة المغرب فيما يخص الفترة موضوعة البحث
الجاحظ	رسائل الجاحظ	نشرها السندوبي القاهرة ١٩٣٣
	الحيوان	تحقيق هارون القاهرة ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥
	البيان والتبيين	تحقيق هارون القاهرة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠
	رسائل	تحقيق هارون القاهرة ١٩٦٤
الجهشياري	الوزراء والكتاب	القاهرة ١٩٣٨
ابن خرداذبة	المسالك والممالك	ليدن ١٨٨٩
الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد	القاهرة ١٩٣١
ابن خلدون	العبر	بيروت ١٩٥٧
ابن خلكان	وفيات الاعيان	القاهرة ١٩٢٨
خليفة بن خياط	التاريخ	بغداد ١٩٦٧
	الطبقات	بغداد ١٩٦٧
الدينوري	الاخبار الطوال	القاهرة ١٩٦٠
الزبير بن بكار	نسب قريش	القاهرة ١٣٨١
	الموفقيات	بغداد ١٩٧٢
الصابىء	تحفة الامراء في تاريخ الوزراء	القاهرة ١٩٥٨
	رسوم دار الخلافة	بغداد ١٩٦٤
الصولي	الاوراق	القاهرة ١٩٣٦
ابن طباطبا	الفخري	بيروت ١٩٦٠
الطبري	تاريخ الامم والملوك	القاهرة . ليدن
ابن طيفور	كتاب بغداد	ليبزك ١٩٠٨ ـ مصر ١٩٤٩

ابن قتيبة	المعارف	كوتنكن ١٨٥٠
	عيون الاخبار	القاهرة ١٩٢٥
	الامامة والسياسة (منسوب)	١٣٢٥هـ
الماوردي	الاحكام السلطانية	القاهرة ١٩٠٩
	ادب الوزير	القاهرة١٩٢٩
مجهول	العيون والحدائق	ليدن ١٨٦٩
مجهول	اخبار العباس وولده	بيروت ١٩٧٢
المسعودي	مروج الذهب	باريس ١٨٦١ ـ ١٨٨٧
	التنبيه والاشراف	ليدن ١٨٩٣
مسكويه	تجارب الامم	ليدن ١٨٦٩
اليعقوبي	تاريخ	الطبعة الاوربية ١٨٨٣ . طبعة النجف ١٣٥٨
ابو يوسف	الخراج	ليدن ١٨٩٢

الكتب العربية الحديثة :

احمد ، الدكتور محمد حلمي :	الخلافة والدولة في العصر العباسي القاهرة ١٩٥٩
الباشا ، حسن	السفاح والمنصور بيروت ١٩٦٠
الباشا ، حسن	الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق القاهرة ١٩٥٧
جومرد ، الدكتور عبدالجبار : (١)	(١) ابو جعفر المنصور ، بيروت ١٩٦٣
	(٢) يزيد من مزيد الشيباني ، بيروت
	(٣) هارون الرشيد جزءان
حاطوم نور الدين	المدخل الى التاريخ ، دمشق ١٩٦٤
رفاعي ، احمد فريد	عصر المامون ، القاهرة ١٩٢٨
رستم عبدالسلام	ابو جعفر المنصور ، القاهرة ١٩٦٥
الريس محمد ضياء الدين	الخراج في الدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٧
الشيال ، جمال الدين	تاريخ مصر الاسلامية ، الاسكندرية ١٩٥٧
العزاوي ، عباس	عشائر العراق بغداد ١٩٣٧
محمود ، حسن احمد	العالم الاسلامي في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٥٩
المؤتمر الدولي للتاريخ	مجموعة بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ المنعقد في بغداد ١٩٧٣
النشار ، علي سامي	نشاة الفكر الفلسفي في الاسلام ، جزءان ، القاهرة
عثمان ، فتحي	(١) الحدود الاسلامية البيزنطية ، ٣ اجزاء القاهرة ١٩٦٦
	(٢) التاريخ الاسلامي والمذهب المادي في التاريخ الكويت ١٩٦٩

السرنجاوي ، عبدالفتاح — النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية القاهرة ١٩٤٥ .

سورديل ، دومنيك — الوزارة العباسية ، جزءآن (بالفرنسية) ، دمشق ١٩٦٠

الصالح صبحي — النظم الاسلامية بيروت

حسن ، ابراهيم حسن — تاريخ الاسلام ، الاجزاء كلها ، القاهرة ٩٦٦

الدوري ، عبدالعزيز — (١) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ١٩٤٨

(٢) دراسات في العصور العباسية المتاخرة بغداد ١٩٤٥

(٣) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . بيروت ١٩٧٠

زامباور ، معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، جزءان

القاسمي ، ظافر — نظام الحكم بيروت ١٩٧٧

القزويني معز الدين — انساب القبائل العراقية ، النجف ١٩١٨

كحالة ، عمر رضا — معجم قبائل العرب ، دمشق ١٩٤٩

ماجد عبدالمنعم — العصر العباسي الاول ، القاهرة

ما ساهم به المؤرخون العرب — الجامعة الاميركية ، بيروت ١٩٥٩

مصطفى الدكتور شاكر — تاريخ بني العباس الكويت ١٩٨٠

معروف ناجي — عروبة المدن الاسلامية بغداد ، ١٩٦٤

المقدسي — امراء الشعر العربي في العصر العباسي ، بيروت ، ١٩٦١

النجم ، الدكتورة وديعة طه — الجاحظ والحضارة العباسية ، بغداد ١٩٦٥

النص احسان — الخطابة السياسية في عصر بني امية دمشق ١٩٦٥

اليوزبكي ، توفيق — الوزارة ، بغداد ، ١٩٧٠

المحتويات

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١١٣٢ لسنة ١٩٨٦